زمن الأنظمة الاستبدادية

مجموعة دراسات وآراء

د.آزاد أحمد علي

مركز دراسات رووداو
Rudaw Research Centre

زمن الأنظمة الاستبدادية

مركز دراسات روودراو
2019

زمن الأنظمة الاستبدادية
مجموعة دراسات وآراء

د.آزاد أحمد علي

مركز دراسات روودا
Rudaw Research Center

اسم الكتاب: زمن الأنظمة الاستبدادية
د.آزاد احمد علي
مراجعة وتصحيح: شاخوان عبدالرحمن

الطبعة الأولى ـ أربيل - كوردستان العراق
2719 كوردى - 2019 ميلادي
researchcentre@rudaw.net
العنوان - أربيل - إقليم كوردستان العراق
كافة حقوق الطبع والاقتباس محفوظة لمركز دراسات روودا
رقم الإيداع في المكتبة العامة في إقليم كوردستان العراق (سنة 2018)
طبع في مطبعة رۆژهەلات - أربيل

فهرس

- المقدمة: الأفكار مازالت تواجه هيمنة المال والسلاح 6

القسم الأول 15

- موقع داعش في حرب الغاز ومسارات أنابيبه 16
- سر التدخل الروسي في سوريا 32
- قصة نجاح كوباني 40
- الحزام (العربي) في الجزيرة السورية. أكبر تغيير ديمغرافي في الشرق الأوسط 45
- واقع الهجرة في كوردستان سوريا 55
- هل ستفتح منبج الطريق إلى أربيل أم دمشق 75
- لماذا يشتد الصراع الجيوبوليتيكي على شرق سوريا 84

القسم الثاني 88

- لماذا تعادي بريطانيا (العظمى) كوردستان 89
- لماذا سايكس – بيكو باقية وتترسخ 93
- الحمولة السياسية والبعد التغييري لاستفتاء إقليم كوردستان العراق على الاستقلال 109
- كوردستان وكتالونيا أول ضحايا الرأسمال المقوى 115

القسم الثالث 127

- معرفة الكورد عربياً 128
- حدود بلاد الكورد حسب رواية ابن فضل الله العمري 138

القسم الرابع 149

- إيران بين الدور والانتصار 150
- هل ستقود تركيا العالم الإسلامي نحو التطرف؟ 156
- الأبعاد الجيوستراتيجية للخلاف الأمريكي - الصيني حول تشييد الجزر الاصطناعية 166
- الخطوط العامة للستراتيجية الأمريكية الجديدة 187

المقدمة

الأفكار مازالت تواجه هيمنة المال والسلاح

قيل سابقاً بأن الأفكار تقود العالم وتحكمه، لذلك فالعالم عبر تاريخه الاجتماعي والسياسي الطويل شهد حروب أفكار أكثر مما شهد حروباً بالأسلحة. هذه المقولة تبدو صحيحة إذا اعتمدنا عدداً قليلاً من الأحداث الفارقة المجتزأة من سياق مجمل الأحداث المؤثرة، أو إذا توقفنا عند حالات استثنائية تظهر تأثير ونفوذ مجموعات الفكر المنظم وعلاقتها بالسلطات والمجتمعات على الساحة الدولية، الحالة الأكثر استثنائية في عالمنا المعاصر التي تبين قوة الأفكار وربما تفتح السجال حول دور مراكز الفكر في المشهد السياسي العالمي، هي حالة مجموعة: مشروع للقرن الأمريكي الجديد Project for the New American Century المعروف اختصاراً: بـ(بناك PNAC). ففي العام 1990م شكل مجموعة من المثقفين والناشطين ضمن صفوف المحافظين الجدد الأمريكيين مجموعة ضغط فعالة، بدعم مالي من قطاع صناعة السلاح في أمريكا كان أبرزها لوكهيد مارتن Lockheed Martin Corporation وهي أكبر شركة للصناعات العسكرية في العالم. رسخت بناك PNAC مفهوم "الحرب الوقائية" ضد الدول المارقة. وكانطلاقة للعمل في العام 1992 وضع موظفان من وزارة الدفاع الأمريكية هما نائب أمين سر السياسة الدفاعية بول فوفيتز ولويس ليبي تصوراً جديداً للدفاع الأمريكي وقدماه إلى ديك تشيني، ملخص تلك الأفكار هي أنه: "يجب إعادة اختراع النظام العالمي". كما قدمت بناك تقريراً مفصلاً من 46 صحيفة كخطة لسيطرة أمريكا على العالم ومنع ظهور منافس جديد لها بعد تفكك الاتحاد

السوفيتي. لكن على ما يبدو كان التقرير متطرفاً وتسرب إلى الصحافة، ما اضطر ديك تشيني لإعادة كتابة الوثيقة بالتركيز على أسلحة الدمار الشامل والتوجه نحو التحالفات الظرفية، حتى بلورت بناك فكرة أخرى هي: "زعامة أمريكا هي خير للولايات المتحدة ولبقية العالم". لم يمل أعضاء مجموعة بناك من الضغط باتجاه أن تجد أفكارهم طريقها للتطبيق، حيث أرسلت المجموعة في العام 1998 رسالة إلى الرئيس كلينتون اقترحت فيها تغييراً جذرياً في علاقات الولايات المتحدة الأمريكية مع الأمم المتحدة وإسقاط حكم صدام حسين، لعدم جدوى وفاعلية آليات التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل بحسب طريقة وقوانين الأمم المتحدة.

حدثت المصادفة الكبرى وتوفرت الفرصة الذهبية التي خدمت بناك إثر تسلم الرئاسة الأمريكية أحد الشخصيات المعجبة والمتأثرة بأفكارها، إذ تسلم جورج بوش الابن رئاسة أمريكا في 20 كانون الثاني 2001، وقام بضم عدد من أعضاء مجموعة بناك إلى أركان حكمه، حتى بلغ عددهم في مواقع حساسة في الإدارة الأمريكية حوالي عشرين شخصاً. ونفذ بوش أفكارهم في الحرب الوقائية وزعامة أمريكا المفترضة للعالم، فتم إسقاط نظامي الحكم في كل من كابول وبغداد خلال أعوام. تعد هذه العلاقة الفعالة والاستثنائية بين مجموعات الأفكار والسلطات التنفيذية إحدى مصادفات التاريخ المعاصر.

في حالة أخرى نجد مركزاً آخر للفكر حاول رفع راية مشروع تغييري كبير في الشرق الأوسط وهو (المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في قطر). ففي يومي السبت 30 والأحد 31 تموز/ يوليو 2011، عقد مؤتمر تحت عنوان: "سوريا بين خيارات ومصالح القوى السياسية والاجتماعية واحتمالات التغيير"، شاركت فيها مجموعة من الباحثين والمفكرين السوريين من داخل سوريا وخارجها، لمناقشة الأحداث ورسم آفاق مستقبل سوريا.

توصل عدد من المشاركين، في اليوم الثاني، إلى رؤية سياسية هي على الأرجح

فكـرة رئيـس المركـز الدكتـور عزمـي بشـارة، الـذي قـام بتلخيـص مـا يحـدث في سـوريا: "بأنهـا ثـورة شـعبية سـلمية... ولا شروط عـلى الثـورة... ويجـب إسـقاط نظـام الحكـم في دمشـق". وكان لهـذه الأفـكار دور توجيهـي وتشـجيعي لعـدد مـن المشـاركين بمـن فيهـم أسـتاذ العلـوم السياسـية الدكتـور برهـان غليـون، الـذي وافـق عـلى رؤيـة مركـز قطـر هـذه قائـلا: "وماذا سـتكون لـو لم تكـن ثـورة". ثـم انخـرط عـدد مـن المشـاركين بقـوة في الحـراك الاحتجاجـي السـوري، حتـى أصبـح الدكتـور برهـان، بعـد فـترة قصـيرة مـن هـذا المؤتمـر، رئيسـاً للمجلـس الوطنـي السـوري المعـارض وعـدد آخـر مـن الحضـور أعضـاء في قيـادة الحـراك.

لم تقتـصر هـذه الرؤيـة الثوريـة -الانقلابيـة الداعيـة للتغيـير الجـذري والحتمـي عـلى مركـز قطـر لدراسـة السياسـات، بـل دعمهـا العديـد مـن مراكـز الدراسـات والمفكـرون الآخـرون، فضـلاً عـن قطـاع واسـع مـن المشـتغلين في حقـلي الدعـوة الإسـلامية وتنظيـمات الإسـلام السـياسي. وعـلى الرغـم مـن وضـوح هـذه الرؤيـة والدعـم المـالي الكبـير، وتحشـيد مجموعـات كبـيرة مـن المتخصصـين العاملـين في مؤسسـات أخـرى إعلاميـة وبحثيـة، فقـد فشـلت هـذه الأفـكار والـرؤى في التأثـير الفعـال عـلى مسـار انتفاضـات الربيـع العـربي. فلـماذا؟ ببسـاطة لأن مصادفـة مجموعـة بنـاك ومعجزتهـا لم تتحقـق في حالـة دولـة صغـيرة مثـل قطـر. كـما أن مـشروع بنـاك كان مؤسسـاً عـلى أفـكار كبـيرة وعميقـة موجهـة لأهـداف صغـيرة ومحـددة، أي إسـقاط حكومتـين مارقتـين فقـط عـلى المسـتوى العالمـي. في حـين كان مـشروع مركـز وحكومـة قطـر وغيرهـا مـن المجموعـات الضاغطـة، يعتمـد أفـكاراً مرتجلـة وعامـة تهـدف إلى إجـراء عمليـة تغيـير كـبرى في العـالم العـربي بـأدوات وجهـات غـير منظمـة تمامـاً ولا تحمـل فكـراً تغييريـاً في الأصـل. ومـن جانـب أخـر لم تكـن آليـة عبـور تلـك الأفـكار التغييريـة قـد درسـت لتصل بصيغـة مناسـبة إلى غرف قيـادات و إدارة غـرف الانتفاضـات العربيـة، لأن إشـكالية فعاليـة الأفـكار السياسـية سـواء أكانـت فرديـة أم جماعيـة تكمـن في آليـة عبورهـا إلى ذهـن مجموعـات صانعـي القـرار أو القـادة السياسـيين. كـما أن خصوصيـة انتفاضـات الربيـع العـربي

ومعضلاتها التي كانت من التعقيد بحيث لم تكن مجرد توصيفية، فيما إذا كانت ثورة أم لا. وبصرف النظر عن مآلات هذه الانتفاضات، وثمرة منجزاتها السياسية، فمن منظار تاريخي، وكمساهمة نقدية متواضعة وتقييمية إزاء مجمل ما حدث، وبالتالي محاولة تلمس إشكالية العلاقة بين الأفكار السياسية وفرص نجاح تلك الأفكار، خاصة التي سوقت إعلامياً إبان انتفاضات الربيع العربي، يمكن الافتراض أن جذر المشكلة كان في الأساس أساساً داخلياً وبنيوياً، إذ طغى كل ما هو متشدد وشعبوي وأيديولوجي على المشهد السياسي للحراك، وصولاً إلى ما هو مخادع، قريب من الأوهام. ربما جاء ذلك كانعكاس سريع لاحتياجات مجتمعاتنا الملحة للتغيير، وبسبب انسداد الآفاق السياسية أمام قطاعات واسعة من النخب والعوام، إضافة إلى تسلط أنظمة استبدادية حزبية وعائلية على أغلب الجمهوريات والممالك العربية، أدى كل ذلك، فضلاً عن مقدمات أخرى في بداية الاحتجاجات، إلى تشكل قناعة عامة بأن جموع الجماهير المتضررة قد ثارت، وأن الانتصار والتغيير قريب ولا شك فيه. ولقد تم رفد تلك القناعات بنشاط إعلامي وتبشيري محموم، يجزم بأن ما يحدث هو ثمرة لتراكم تاريخي وضرورة موضوعية ونقلة في حياة شعوب المنطقة، وبالتالي هي (ثورات عربية) معاصرة، ثورات جديدة، رائدة وملهمة. وبخاصة التونسية منها، التي قيل عنها أنها غطت بمخمليتها وعمقها على الثورة الفرنسية. وما على باقي المجتمعات إلا السعي إلى استنساخ هذه التجربة الرائدة، فوقع جل القيادات الشبابية والسياسية السورية منها خصوصاً تحت تأثير هذا الحدث العظيم، وتداعوا للسير سريعاً نحو ذرى الكرامة والمجد والتغيير.

لكن مسار الأحداث انحرف، كما نعرف جميعاً، فبعد كل هذا الكم من التضحيات والنهوض الشعبي الاستثنائي، أصبحنا نتساءل ما الذي أتلف ثمرة هذه الانتفاضات، التي كادت أن تهز العالم، وتغيير ثوابت السياسة وتوازنات المنطقة؟

لقد نشرت العديد من الدراسات والآراء التي كان أغلبها مفيداً وصحيحاً، لكن ما هو صحيح أيضاً القول: بأننا قد خرجنا منذ أمد بعيد من عصر الثورات السياسية، بالمعنى المعجمي للكلمة، ودخلنا عهداً يتطلب تغييرات تدريجية في البنى الاجتماعية – السياسية، ومن ثم في أشكال الحكم وصيغ إدارة المجتمعات. فالثورات الشاملة تحتاج إلى مقدمات ثقافية ومعرفية عميقة وفاعلة. لكن ما روج له إعلامياً إبان ذروة الانتفاضات العربية كان غير ذلك، وبالتالي لم تتح الفرصة للكثيرين للقول: بأن أي حركة احتجاجية جماهيرية، أو انتفاضة عفوية في وجه القهر والظلم لا تشكل بالضرورة ثورة على المفاهيم ومنظومات القيم وبنية السلطة السائدة. فما حدث على الأرض كان غير ما تم تلميعه سياسياً، ودفعه باتجاه الأيقنة الثورية التي كانت الجماهير بغنى عنها. فأغلب القوى المشاركة في الانتفاضات العربية - وهي قوى متنوعة في بلدان مختلفة بيئة ومنشأ وأهدافاً - كانت تريد تغييراً منسجماً ومتوازناً، لتحقق أهداف الإصلاح السياسي والاقتصادي، ولتأمين فرص العمل للشباب، ولتوفير الأرضية لإعادة توزيع الثروة. فحتى الرمز الأيقوني للربيع العربي كان شاباً جامعياً عاطلاً عن العمل، أحرق نفسه واستشهد احتجاجاً على الظلم الاجتماعي وطلباً للعمل والخبز، ولم يكن احتجاجه مؤدلجاً ولا مسيساً، ولم يأتِ في سياق العمل السياسي والعسكري لتغيير نظام الحكم في تونس.

لقد تشكلت بيئة الانتفاضات العربية بمعزل عن بيئات سياسية معارضة ومجاهدة تاريخياً. ما يعني أن جوهر الاحتجاجات العربية كان اجتماعياً اقتصادياً، تحول بالضرورة إلى حراك سياسي، فعنف عفوي في مواجهة عنف السلطات. إلى إن تطور إلى حروب داخلية، طائفية وإقليمية تستلهم طاقتها من جذور تاريخية وميثيولوجية.

فمن الذي حول مسار هذه الانتفاضات؟ وما هي العوامل الخفية والظاهرة الكامنة وراء هذا التحول والتعقيد، وبالتالي سببت الإخفاق في تحقيق الأهداف

الاجتماعية على الأقل للانتفاضات العربية. هل ثمة أفكار شيطانية ساهمت في ذلك؟ نعم بالتأكيد، لقد خططت جهات ذات خبرة عملية استثنائية في دفع مسار الحركات الاحتجاجية نحو دروب وعرة وباهظة التكاليف، سواء بعسكرتها أو ادلجتها أو الاثنين معاً.

مع ذلك، إن خرجنا من حقل فرضية المؤامرة، فثمة مؤشرات واضحة على مواضع خلل داخلية، بل أعداء داخليين. فأول عدو للانتفاضات العربية هو الاستعجال عموماً، واستعجال تغيير السلطة خصوصاً. شكل الاستعجال سلوكاً ترجمته النكتة المصرية المتلخصة في يافطة كرتونية مرفوعة في ساحة التحرير مكتوب عليها: "خلاص ارحل أيدي تعبت"، هذه النكتة تحولت إلى دراما يومية لاحقاً في كل من ليبيا واليمن وسوريا بعنوان "يا لله ارحل يا..."، فإلى صراع دموي جامح على السلطة. إلى أن عادت وتمظهرت مرة أخرى في استعجال تغيير حكم محمد مرسي، انطلاقاً من ساحة التحرير نفسها. فثقافة الاستعجال التي تعبر في أحد جوانبها عن جوع شديد من قبل بعض قيادات المعارضة إلى السلطة، إضافة إلى بديهية تمسك غرائزي للقوى الحاكمة بالسلطة والكرسي المتقاتل عليه. إن جوع المجتمعات العربية التاريخي للسلطة - إن جاز التعبير- لم يمهد الطريق لحروب أهلية حقيقية وحسب، وإنما استرجع كل حروبها التاريخية السابقة التي دارت على عروش السلطة وحول مشروعية الخلافة، وان ارتسمت في صيغ ومسميات جديدة. وللأسف لم يرافق هذا الجوع للسلطة رغبة موضوعية للإصلاح، بل نفور وكراهية لكل ما يمت إلى الإصلاح والحوار السياسي بصلة، لقد حركت انتفاضات الربيع العربي رغبة جامحة لقلب كل النظام السياسي والسلطة القائمة بنشاط احتجاجي فج.

حتى دفعت عوامل ضعف قوى التغيير إلى استرجاع الجانب القاتم من التاريخ، هذا الجانب الذي لا يمكن له أن يجدد الواقع، ولا أن يؤسس لنهضة سياسية، أو مستقبل واعد، إلا في حالات استثنائية. لقد استرجعت انتفاضات

الربيع العربي التاريخ استرجاعاً مؤدلجاً ناتجاً عن قمع السلطة العنيف من جهة، واستجماعاً لكل الطاقة الروحية والمعنوية والايديولوجية في مواجهة سطوة وجبروت وبطش السلطات الحاكمة من الجهة الأخرى. إن التخلي عن طريق الإصلاح أفقد مجتمعاتنا فرصتي الثورة والإصلاح معاً.

شاءت الصدف أيضاً أنه لم تكن للانتفاضات العربية أي مناعة تجاه الأمراض المذهبية والأيديولوجية المزمنة، لأن بيئاتها الاجتماعية كان تفتقر أصلاً إلى مقدمات ثقافية معرفية، ولم تمتلك منهجية علمية لتشخيص طبيعة السلطة والسلطات التي تناضل من أجل تغييرها، هذه السلطات التي استعصت بنيوياً على التغيير، ولا يكفيها شعار ارحل، أو عشرات الألوف من الضحايا، لأنه وعلى الأرجح يتطلب زوالها عملية إصلاح وتفكيك منهجية، بجهود المجتمع الدولي ومؤسساته الشرعية، غير المنتبهة بعد إلى وظيفتها الجديدة والصعبة هذه.

لقد خاضت المجتمعات الشرقأوسطية تجربة سياسية مريرة طوال السنوات الثمانية الماضية، فلم تعد الأفكار السياسية قادرة على أن تقف أمام طوفان العنف والحروب، فالمال السياسي وتزاوجه مع الإسلام السياسي ومنظومة الإرهاب العالمية المرتبطة عضوياً بالمؤسسات الاستخبارية، تفاعلت جميعاً لتسطيح دور الفكر السياسي من جهة، وإفشال فعالية الأحزاب التقليدية القائمة قبل بدء انتفاضات الربيع العربي من جهة أخرى. لقد انتصر المال وسيطر العسكر من جديد، لقد تم تعويم النظم الاستبدادية، يترافق ذلك مع محاولات حثيثة لتجميلهم أمام بشاعة الإرهاب وفوضى التناحر والتحارب.

في المحصلة تراجعت مسيرة الديمقراطية لدرجة من الممكن تسمية المرحلة القادمة بمرحلة النقمة على الديمقراطية والعودة إلى حضن الأنظمة الاستبدادية.

تقصدنا في سردنا المطول السابق لحالة مجموعتين فكريتين أو مركزين للدراسات السياسية ورصد تجربتيهما المختلفتين إلقاء الضوء على أهمية وقوة الأفكار السياسية – العلمية التي تسوق وتنشر خارج مجال وبرامج الأحزاب السياسية، وبالتالي التنبه لأهمية مراكز الفكر من جديد والتذكير بنجاحاتها

هنا وإخفاقاتها هناك. هذا ما كنا ندركه منذ أمد بعيد وتمت ترجمته في مركز روداو للدراسات بين الأعوام (2014-2017)، تجربتنا لم تكن كبيرة وفعالة بقدر ما كانت واعدة وجادة لتناول السياسة من المنظار الكوردي علمياً وليس حزبياً، حيث كان هاجسنا الرئيس القراءة الصحيحة للمشهد الإقليمي والتوازنات الدولية وانعكاسها على واقع ومستقبل الشعب الكوردي.

حسنا فعل الأخوة في إدارة شبكة روداو الإعلامية ومركز روداو للدراسات عندما قرروا تجميع عدد من الدراسات والآراء السياسية التي تم نشرها سابقاً لتوثيقها ضمن هذا الكتاب، الذي حاولت تبويبه إلى أربعة أقسام الأول متعلق بالشأن السوري، والثاني بكوردستان العراق، أما الثالث فهي مواد تاريخية ومعرفية عامة، في حين ضم القسم الرابع مواضيع إقليمية ودولية. وعنونت الكتاب بزمن الأنظمة الاستبدادية، ليس لأنه يطابق المحتوى، وإنما لأنه يشير إلى فشلنا في تقدير الموقف وإجراء قراءة أكثر دقة واستشراف مناسب للمستقبل في المقام الأول ويعنون للمرحلة القادمة، إذ أن هذه المرحلة الصعبة توحي بأن الموجة الثالثة من دمقرطة العالم قد توقفت، وبالتالي أفسح المجال لبقاء وانتعاش النظم الدكتاتورية وشبه الدكتاتورية من جديد.

بهذه المناسبة أشكر إدارة شبكة روداو الاعلامية على توفير مناخ الحرية والبيئة الملائمة لي طوال فترة عملي في مركز دراسات روداو في أعوام (2014-2017)، حيث تمكنت من انجاز هذه الدراسات والقراءات التي آمل أن ترفد القارئ ببعض المعلومات المفيدة وتساهم في تنشيط الذهن وإطلاق المخيلة بحرية.

أخيراً أود التذكير بأن إشكالية العلاقة بين الأفكار السياسية والقوة العسكرية فالموارد المالية ستظل قائمة وستخضع لمزيد من التعقيد، كما ستؤثر عملية الخلل بينها على مسار العديد من القضايا الراهنة ومصير الشعوب والأمم. فالأفكار القوية والرائدة مازالت تحكم العالم وتتصارع في كل الجهات، لكن مشكلتها في ظروف هيمنة الرأسمال وطغيان الحاجات الاستهلاكية وتشعب

أصناف الرفاهية هي أنها باتت تخضع لقوة المال وسحره، لذلك فدور الفكر قد تراجع إلى المرتبة الثانية وإن مازال هنالك من يقاوم من حاملي ورواد الفكر الإنساني النبيل. أفترض أنه حتى تعيد الأفكار دورها الريادي وتتمكن من حكم العالم من جديد، ينبغي أن تتحول إلى أفكار مسلحة، ليس بمعنى أن تتشبع بالقوة والمنطق العسكري بقدر ما تكون قادرة على خرق عالمي العسكر والمال وإخضاعهما لقوة منطقها الداخلي القادر على تسفيه عالمي المال والسلاح معاً.

د.آزاد أحمد علي

القسم الأول

موقع داعش في حرب الغاز ومسارات أنابيبه[1]

1 - مدخل

قبل حوالي أربع سنوات، كان لا بد أن يثير مبنى غير اعتيادي وغير مكتمل انتباه كل من يعبر الطريق العام بين دمشق – بيروت، المبنى كان يجمع بين سمات القصر والحصن، مستقراً على حافة هضبة مطلة على تجمعات سياحية جميلة. بالرغم من الحراسة المشددة على القصر، لم يكن ثمة داعٍ للاستفسار عن سره، فالفضول كان يدفع بالكثيرين لكشف السر تلقائياً، مؤكدين أن القصر يشيد ليكون مقراً لإقامة أمير قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني. العلاقات السياسية كانت متينة يومئذ بين بشار الأسد وحمد، كما كانت العلاقات العائلية حميمية بين الأميرة موزة والسيدة أسماء، فما الذي دفع بهذه العلاقات الوثيقة إلى هاوية العداوة والتصارع؟

إذا نظرنا إلى المشهد من جهة الشمال، فقد مرت العلاقات بين حكومتي تركيا وسوريا بمرحلة ذهبية، بدءاً بحكمي أردوغان وبشار، حيث كانت العلاقات تتصاعد وتتنامى بطريقة مذهلة، لدرجة أن رئيس وزراء سوريا في تلك المرحلة محمد ناجي عطري[2] صرح أكثر من مرة بمناسبة وغير مناسبة: "أن تركيا دولة شقيقة لسوريا"، وهذا التعبير والمصطلح كان يندرج ضمن الأدبيات البعثية في توصيف الدول العربية حصراً. كما فتحت حكومة عطري

1. نشر هذا البحث في موقع شبكة روداو الإعلامية بتاريخ 30/11/ 2014 على الرابط:
http://www.rudaw.net/arabic/opinion/281120141

2. محمد ناجي عطري، مواليد حلب 1944، مهندس معماري، عين رئيساً لوزراء سوريا (2011-2003)، وهو من أصول تركمانية، شكل مع حسن تركماني وآخرين لوبياً تركياً داخل الهرم الأعلى للسلطة في دمشق.

كل الأبـواب أمـام الـشركات التركيـة، ومهـدت لهـا كل طـرق الاسـتثمار، حتـى باتـت سـوريا سـوقاً تابعـة لتركيـا في غضـون سـنوات قليلـة. وعـلى الرغـم مـن هـذا المسـتوى المتقـدم مـن العلاقـات، تحولـت علاقـات الصداقـة والتحالـف والتماهـي السـياسي بـين الـدول الثـلاث المتحالفـة إلى عـداوة صريحـة.

2 - الحرية أولاً أم تسويق الهيدروكربونات؟

كـما في المنعطفـات التاريخيـة الكـبرى، وفي ظـل عواصـف الحـركات الاجتماعيـة، تغيـب حقائـق كثـيرة، وتظهـر في الواجهـة وتعـوم عـلى السـطح شـعارات وحقائـق أخـرى مختلفـة تمامـاً. بعـد انسـداد آفـاق نجـاح الانتفاضـة السـورية تكاثـر الحديـث عـن خلفياتهـا، سـواء مـن جهـة الـصراع عـلى سـوق الطاقـة عمومـاً، والغـاز خصوصـاً، أو فرضيـات المؤامـرة، وتنامـي الإرهـاب، حسـب الروايـة المفضلـة للمقربـين إلى السـلطة السـورية.

مـا حـدث في الخـط العـام للانتفاضـة السـورية، أن الحاجـة الاجتماعيـة للتغيـير، وكذلـك انسـداد الآفـاق السياسـية أمـام قطاعـات واسـعة مـن النخـب والجماهـير، إضافـة إلى تسـلط نظـام اسـتبدادي، سـيطر ضمـن منظومـة حزبيـة وعائليـة عـلى مفاصـل الحكـم في كل سـوريا، شـكلت هـذه العوامـل مجتمعـة دافعـاً للانتفـاض وطلبـاً للتغيـير. في سـياق تنامـي الانتفاضـة وتطورهـا، والمداخلـة التركيـة – القطريـة الصريحـة، لم تتوافـر فسـحة كافيـة للتأمـل في حقيقـة مـا يحـدث، ولم تُقيـم الأحداث علميـاً، خاصـة في جزئيـة ملاءمـة الظـروف للاسـتمرار في الانتفاضـة، ومـن يمسـك عمليـاً بدفـة التوجهـات الثوريـة التغييريـة.

في الجانـب الآخـر، وعـلى الأرجـح كان هنالـك مـن يسـتثمر الانتفاضـة السـورية بـذكاء، ليـس مـن قبـل أجهـزة اسـتخبارات بعـض الـدول فحسـب، بـل مـن قبـل العقـول التـي تخطـط لكبريـات شركات النفـط والغـاز.

أجريـت قـراءات صحيحـة ومتنوعـة، كـما نُـشرت دراسـات مهمـة، وسُـوقت

روايـات أكثرهـا قـوة وتماسـكاً هـي أن هـذه الانتفاضـة تمظهـرت في أحـد جوانبهـا كحـرب عـلى سـوق الغـاز، لدرجـة أنـه تـم تعميـم بعـض هـذه القـراءات لإحالـة مجمـل الحـراك التغيـيري في الـشرق الأوسـط إلى مقدمـات لرسـم الخارطة السياسـية لمـا بـات يعـرف بعـصر الغـاز[1]. فأيهـما كانـت لـه الأسـبقية، الرغبـة والحاجـة للتغيـير السـياسي- الاجتماعـي، أم الخطـط السريـة لتغيـير عـدد مـن أنظمـة الحكـم في المنطقـة؟

3 - عصر الغاز والطاقة النظيفة

الحـرب الدائـرة رحاهـا اليـوم عـلى أرض سـوريا والعـراق، الحـرب التـي تتصـف ببعـد دولي، وتشـابكات إقليميـة لم يعـد يكفـي لفهمهـا قـراءة جانبيـة واحـدة، بـل هنـاك حاجـة إلى نظـرة منظوريـة لتفسـيرها مـن أوجـه متباينـة، وخاصـة ضرورة الاسـتعانة بالمنهـج التاريخـي وفرضيـة المحـاكاة.

إن قـراءة تاريخيـة مقارنـة بـين مطلـع القـرن المـاضي ومطلـع هـذا القـرن، تبـين أن أهـم تغيـير سـياسي حـدث في الـشرق الأوسـط، كان في نهايـة الحكـم العثـماني، إبـان الحـرب العالميـة الأولى. هـذا التغيـير العميـق لم يكـن بمعـزل عـن حـدث آخـر ذي طابـع علمـي، وهـو اكتشـاف النفـط على ضفتـي الخليـج، وكذلك في كوردسـتان. هـذه المناطـق كانـت تابعـة بدرجـة أو بأخـرى للإمبراطوريـة العثمانيـة. نتيجـة لتفاعـل الحدثَـين المتراكبـين والمتداخلـين، أي ضعـف السـلطة العثمانيـة السـياسي،

---

[1] صدر ونشر عدد كبير من الدراسات والمقالات ذات الصلة بمسألة الغاز، يمكن الاطلاع على بعضها على سبيل المثال:

- ربى حصري، سوريا وخريطة الطاقة المتغيِّرة في الشرق الأوسط. مركز كارنيغي للشرق الأوسط. كانون الثاني2013، على الرابط التالي:
http://carnegie-mec.org/publications/?fa=50481 .

- تقرير أولي عن المعركة الجغرافية السياسية العالمية الحقيقية. مرسل من موقع Washington Blog في 8 تشرين الأول 2012 دار بابل للدراسات والاعلام.

- هـ. د. س. غرينواي. الخروج على النفط. جريدة المستقبل- السبت 17 أيلول -2005 العدد 2042.

- سليمان الخطاف. تداعيات اكتشافات الغاز الطبيعي في شرق المتوسط . اليوم .على الرابط:
http://www.alyaum.com/article/3114329

- عبدالله جناحي. صحيفة الوسط البحرينية- العدد -3778 10 يناير 2013م، على الرابط:
http://www.alwasatnews.com/3778/news/read/729318/1.html

والاكتشاف العلمي لحقول النفط، تم تفكيك إمبراطورية بني عثمان، وإنشاء العديد من الدول والإمارات والممالك العربية. وعلى الأرجح لم يكن هنالك أي حافز وعامل فاعل في نشوء هذه الدويلات والممالك أكثر من النفط، وجوده واستثماره، بصرف النظر عن دقة الروايات وفاعلية العوامل الأخرى. أما من منظور ثقافي فلم يعد العرب "خير أمة" تنتفض في وجه السلطة العثمانية المسلمة، وتساهم في تفكيكها، من زاوية الأصالة الإسلامية فحسب، وإنما بات العرب أصحاب ثروة نفطية أسطورية تحت أقدامهم كقيمة مضافة. لذلك، وبكثير من الموضوعية، يمكن الافتراض بأنه لم تكن هنالك إبان الحرب العالمية الأولى ثورة عربية ولا مستوى متبلور من الوعي بالثورة وبالتحرر، بل هيأت الأجواء السياسية والعسكرية كلها لعائلة عربية دينية عريقة هي (الهاشمية) القيام بالمهمة التفكيكية للدولة العثمانية، ونصف التحررية للجزيرة العربية وبلاد الشام. فقد تم ترشيح العائلة الهاشمية لحكم المناطق العربية، لكي تقوم بمهمة مزدوجة، أحد وجهيها سحب الشرعية الدينية من السلطنة العثمانية، وثانيهما حكم المناطق التي ستخرج عن سيطرتها. هذا وقد ترافق انتشار وانتعاش الفكر القومي العروبي في بلاد الشام مع اكتشاف النفط أيضاً. في مرحلة لاحقة تحولت كل بقعة صغيرة من الأرض، فيها مجموعة من آبار النفط، إلى إمارة أو مملكة عربية، لدرجة تَلازم وترابط تشكل معظم الدول العربية مع اكتشاف النفط واستثماره.

في السنوات القليلة الماضية تسرب العديد من الدراسات والإحصائيات الجيولوجية التي تؤكد وجود كميات هائلة من الغاز في منطقة شرقي المتوسط. لدرجة أن تشجع بعض الدارسين لإطلاق تسمية قرن الغاز على القرن الحادي والعشرين، واستشرفوا متوقعين أن يغير الغازُ المشهد الجيوستراتيجي لمجمل الشرق الأوسط في السنوات القليلة المقبلة.

4 - جيوستراتيجية أنابيب نقل الغاز

لماذا الغاز؟ وما هي مواصفات وخصائص هذه المادة التي ستغير المشهد السياسي، لدرجة أن ترتقي إلى حد تسمية عصرنا باسمه!؟ يشبه الغاز الطبيعي في تكوينه أنواع الوقود الأخرى (مركبات هيدروكربونية) مثل الفحم والبترول اللذين يترافقان عادة مع الغاز، وكانا يتطلبان تكنولوجيا أبسط لاستخراجهما واستثمارهما، لكن الغاز يعد أكثرها ملاءمة للبيئة، على اعتبار أنه عالي الكفاءة، وانبعاث الغازات الملوثة منه قليل، لدرجة بات يوصف بأنه مصدر نظيف للطاقة. وراهناً يعد الغاز البديلَ الأمثل لوقود محطات توليد الكهرباء العاملة على الفحم والطاقة النووية في أوروبا. وهذا ما هو متوقع في المستقبل القريب، خاصة بعد القرار الألماني بالتخلص من المحطات النووية بعد كارثة فوكوشيما في اليابان. لكن من أهم سلبيات تسويق الغاز ومعضلاته، أن حسن استثماره يتطلب تحويله فيزيائياً من الحالة الغازية إلى السائلة، وذلك عن طريق تقنيات متعددة، منها التعريض لضغط شديد، حتى يتحول الغاز إلى سائل، تمكن إسالته وضخه بسهولة عبر الأنابيب في البر. إذ من الصعوبة نقله عبر البحر، حيث تزداد كلف نقله.

كنتيجة لهذه السلبية والمعضلة التي تواجه تسويق الغاز، تبدأ القصص السياسية لمسارات أنابيب إسالتها عبر البر، مثلما كانت مشكلة ضخ النفط حاكماً على رسم الكثير من الحدود والتقسيمات الجغرافية في منطقة الشرق الأوسط سابقاً. لأن خطوط نقل الطاقة هي أحد المؤشرات التي يستدل منها على حال العلاقات الدولية بين طرفي البدء والانتهاء، وكذلك أطراف المرور التى يعبرها الخط. فعبر ذلك الخط، تتجسد توازنات العلاقات الدولية المتأرجحة بين نقطتي التعاون والنزاع، وما بينهما من أمور وسطية. ونظراً لأن خطوط الأنابيب هي الناقل للسلعة الستراتيجية العالمية/ النفط، أحد أهم العناصر الهامة فى العلاقات الدولية، فإن تتبع المسارات الجغرافية لخطوط

الأنابيب يعكس المسارات السياسية للعلاقات بين الدول المنتجة"[1].

بعد اكتشاف احتياطيات هائلة من الغاز في السنوات الأولى من هذا القرن، خاصة في حقول متعددة ضمن بوادي سوريا والعراق، وفي السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، قبالة شواطئ سوريا ولبنان وإسرائيل[2]، اشتد الصراع على سوق الغاز، وترافق هذا التنافس مع اكتشافات مفاجئة لحقول الغاز في مناطق أخرى من العالم، إضافة إلى تضاعف الإنتاج القَطَريّ، لتظل الدولة الأكثر حساسية في التفاعل مع متغيرات سوق الغاز واكتشافاتها.

إن المشهد الراهن لسوق الغاز واحتياطياته يشير إلى أن ثلاث دول لا تزال في مقدمة منتجي الغاز، وهي لا تزال صاحبة كبرى الاحتياطيات، وهذه الدول هي بالترتيب روسيا الأولى على المستوى العالمي، ثم إيران، ثم قطر بحوالي (15%) من مجموع الاحتياطي العالمي. إن هذه التراتبية توحي بالكثير. فالتدقيق في أسماء الدول الثلاث يؤكد على أن الغاز بات عملياً موضوعاً جوهرياً ومحوراً للسياسة الدولية والإقليمية.

أشارت معظم التوقعات والقراءات الاستشرافية إلى أن هذه الاكتشافات قد تجعل الشرق الأوسط عموماً، والدول العربية منها خصوصاً، هي المنتج الرئيس للغاز العالمي في السنوات القليلة المقبلة. ولكن روسيا كانت قد قرأت الخارطة على الأرجح قبل الجميع، وتعلمت الدرس جيداً من سقوط الاتحاد السوفييتي السابق، بسبب خروج موارد الطاقة العالمية عن سيطرتها في المقام الأول، لذلك سعت لضمان حصتها في تقسيم مناطق النفوذ والمصالح مع القوى الأخرى، وحرصت على أن تكون فعالة في منطقة الغاز الناشئة في شرقي المتوسط، لأنها كانت قد تنبهت إلى أن لغة الطاقة في القرن الحادي والعشرين، تبدأ من أبجدية الغاز المكتشف، وبقي الهدف المطلوب هو كيفية التحكم في طرائق نقله ومساراتها.

1. عادل سيد أحمد، أنابيب الطاقة. الجغرافيا تقود السياسة، السياسة الدولية. عن الأهرام الرقمي، إبريل 2006.
2. أهم هذه الحقول التي بدأت فيها عمليات الإنتاج، هو حقل "لفيثان" البحري الذي اكتشفته إسرائيل في 2010.

5 -عودة إلى القصر غير المكتمل

يبقى سر قصر الشيخ حمد غير مكتمل البناء دلالة على سر عدم اكتمال علاقات الأنظمة الثلاثة، وعدم تتويجها باتفاقات ستراتيجية. فعلى ما يبدو كانت مسألة الغاز الموضوع الرئيس، والمادة اللاصقة لعلاقات أنظمة تركيا، سوريا وقطر، طوال سنوات العسل (2002-2010)، وخاصة بعد احتمال انضمام سوريا إلى نادي الدول المصدرة للغاز.

كانت مخططات إنتاج الغاز: من قبل من؟ وعلى أي مسار سيتم ضخه وإسالته؟ وعبر أي مناطق وأقاليم ستمدّ أنابيب النقل؟ تلك المخططات تمثل الموضوع الأكثر سرية وجدية مما كان يتم تداوله بين قيادات الدول الثلاث. فأغلب الروايات، وخاصة تلك المتناغمة مع سرديات الحكم السوري تشير إلى: "أن العروض المغرية كانت تنهال على القيادة السورية للحصول على موافقتها لتمرير خط أنابيب الغاز القطري عبر أراضيها، ثم إيصاله براً إلى أوروبا، بغية تحييد النفوذ الاقتصادي لروسيا، وخفض اعتماد أوروبا عليها في مجال الطاقة"[1] كان توقيت العروض المطروحة في النصف الثاني من العام 2010، وعلى الأرجح كان الدب الروسي يتلصص على هذه المداولات، كما لم تكن شركته العملاقة "غازبروم" غافلةً، وهي التي توصف بأنها قد ورثت قوة الاتحاد السوفييتي[2].

1. هل تغير اكتشافات النفط والغاز في المتوسط الجغرافيا السياسية؟ مكتب قناة الميادين في واشنطن، بالتعاون مع مركز الدراسات الأمريكية والعربية، على الرابط :

http://www.almayadeen.net/ar/news/studies-aidqvwLQOkmIlqGfASVtfA

وفي السياق نفسه تم تضخيم موقع سوريا في سوق الغاز المستقبلية، كما تم ربط موضوع الغاز مع المسألة السورية بشكل مبالغ فيه، من قبل كل من الدكتور عماد فوزي شعيبي، في: حرب الغاز، الصراع على الشرق الأوسط، على الرابط:

http://www.voltairenet.org/article173717.html

وكذلك ناصر قنديل، في مقاله عن الصراع في سوريا والربيع العربي.

2. تعد شركة غازبروم الروسية المساهمة المفتوحة، أكبر شركة استخراج للغاز الطبيعي وواحدة من أكبر الشركات في العالم. والمقر الرئيس للشركة موجود في مقاطعة شريوموشكي، بالأكروغ الإداري الجنوبي الغربي، في موسكو. اسم الشركة عبارة عن لفظة مكونة من كلمتين روسية " *Газовая промышленность*"، وهو يعني "صناعة الغاز". وقد تم إنشاء شركة غازبروم في العام 1989 عندما حولت وزارة صناعة الغاز في الاتحاد السوفييتي نفسها إلى شركة، مع الحفاظ على سلامة كل أصولها. وفي وقت لاحق، تمت خصخصة جزء من الشركة، ولكن في الوقت الحالي، تسيطر الحكومة الروسية على أغلب أصول الشركة. في العام 2011، أنتجت الشركة ما مقداره 17% من إنتاج الغاز الطبيعي في العالم. بالإضافة إلى ذلك، أنتجت غازبروم 32.3 مليون طن من النفط الخام

أما الرواية الأكثر احتمالاً وقبولاً، فإنها تشير إلى أن النظام في سوريا، وكعادته طلب حصة كبيرة من إنتاج الغاز القطري، مقابل السماح لقطر بتمرير أنابيب غازها عبر سوريا إلى تركيا، ثم أوروبا، متحججة مبدئياً بوجود مشروع قيد التنفيذ لشبكة الغاز العربية، بتمويل كويتي وبطول 1200 كيلومتر. إذ كانت المرحلة الثالثة منه تشمل تمديد خط داخل الأراضي السورية، يبدأ من الحدود الأردنية- السورية إلى الحدود السورية- التركية، وفرع إلى لبنان، وبالتالي يمكن لقطر استثمار الشبكة بعد اكتمالها. كما هو موضح في الخارطة رقم (1) المرفقة[1].

في سياق مواز ومنافس، وبالترابط الوثيق مع أحداث (الربيع العربي)، تسارعت المحادثات السرية بين حكومات كل من سوريا، العراق وايران، لمد خط أنابيب لنقل الغاز الإيراني عبر العراق. إذ "أعلن رسمياً أن سوريا وإيران والعراق وقعت في طهران اتفاقية لمد أنبوب غاز بطول خمسة آلاف وستمائة كيلومتر لنقل 110 ملايين متر مكعب من الغاز الإيراني يومياً عبر العراق وسوريا إلى البحر الأبيض المتوسط، ثم إلى أوروبا"[2]. كما هو مبين في الخارطة رقم (2) المرفقة. هذا وكان الدكتور حسين الشهرستاني، وزير النفط العراقي السابق، قد أعلن عدم اعتراض بلاده على مد خط أنبوب الغاز الإيراني إلى سوريا عبر الأراضي العراقية، وكانت وزارة النفط العراقية قد أفصحت في شهري (تموز- آب) 2011 عن موافقتها على مد أنبوب الغاز الإيراني إلى سوريا عبر الأراضي العراقية، ومن ثم إلى لبنان فأوروبا، على الرغم من احتجاج زعيم

و12.1 مليون طن من الغاز المتكثف، وقد ساهمت أنشطة غازبروم بما يصل إلى 8% من إجمالي الناتج المحلي لروسيا في العام 2011.
وتمتلك غازبروم أكبر نظام نقل للغاز في العالم، وتشتمل مشروعات خطوط الأنابيب الكبرى الجديدة التي تقوم بها الشركة خاصة على خطي التدفق الشمالي والتدفق الجنوبي.
وتمتلك الشركة شركات فرعية تعمل في العديد من المجالات الصناعية، بما في ذلك التمويل والإعلام والطيران. لقد باتت إمبراطورية مالية، فعلى سبيل المثال جاءت "غازبروم" في المرتبة الثالثة عالمياً في العام 2012 من حيث رقم الأرباح، بمستوى أرباح هائلة، مسجلة رقم 37.8 مليار دولار.

1لمعرفة تفاصيل هذا المشروع، المصدر السابق: أنابيب الطاقة. الجغرافيا تقود السياسة. ودقق في الخارطة رقم 2.

2. للتفاصيل انظر: موقع بي بي سي العربي على الرابط:

http://www.bbc.co.uk/arabic/business/2011/07/110724_iraq_iran_syria_gas.shtml

"صحوة العراق" الشيخ أحمد أبو ريشة على مدّ أنبوب الغاز الإيراني عبر أراضي محافظة الأنبار العراقية إلى سوريا[1].

خلال تصاعد الانتفاضة السورية في صيف2011، ومع بقاء المستقبل السياسي للنظام في دمشق مجهولاً، كانت حكومات سوريا والعراق وإيران جادة في توقيع اتفاقية يتم بموجبها السير بالمشروع، والعمل على تنفيذ الأنبوب المنشود، بكلفة تقديرية تقارب 10 مليارات دولار، وبمدة تنفيذ تقدر بحوالي ثلاث سنوات، بهدف وضعه قيد الاستثمار السريع.

6 - مسار أنبوبين متضاربين وسياسات كسر العظم

استفاقت روسيا في خضم أحداث انتفاضات الربيع العربي من هول الصدمة، فكانت إزاء مشاريع تهدد أمنها القومي من ناحيتين، أولاهما أنها ستخرج جيوسياسياً من البحر المتوسط، بعد أكثر من مائتي عام من نفوذها ووجودها، وستبتعد كثيراً عن مياه وشواطئ جنوب أوروبا وشمال أفريقيا، ثم ستواجه منافسة شديدة لعملية إنتاج وبيع غازها الخام في المقام الثاني. إضافة إلى ذلك أضحى من شبه المؤكد تزويد أوروبا بغاز شرق أوسطي، عبر سوريا وتركيا بسرعة غير متوقعة. وبذلك بات الغاز الشرق أوسطي منافساً قاتلاً للاقتصاد الروسي، وخاصة احتياطات الغاز القطرية- الإيرانية من عدة حقول، أهمها الحقل البحري المشترك[2].

صحيح أن قطر دويلة صغيرة، لكن صحيح أيضاً أنها صاحبة أكبر مشاريع أنابيب نقل الطاقة في العالم، بالرغم من أنها تقع على مياه بحر الخليج،

1. علي عجيل منهل. موقع الحوار المتمدن، العدد: 3139 - 2010/9/29.

2. يوجد حقل غاز وبترول قطري- إيراني مشترك في مياه الخليج، يقع ثلثاه ضمن المياه القطرية، وبالتالي يتبع لسيادتها، وثلثه المتبقي تحت السيادة الإيرانية، ويعرف بحقل غاز الشمال في قطر وحقل فارس الجنوبي في إيران. هو حقل غاز طبيعي مشترك بين قطر وإيران يقع في الخليج الفارسي والحقل يعد الأكبر بين حقول الغاز بالعالم ويضم 50.97 ترليون متر مكعب من الغاز، تبلغ مساحة حقل غاز الشمال نحو 9,700 متر مربع منها 6,000 في مياه قطر الإقليمية و3,700 في المياه الإيرانية، اكتشف الحقل في العام 1971 وبدأ الإنتاج فيه في العام 1989. عن موسوعة ويكيبيديا.
لاحظ مسار أنابيب نقل الغاز تنطلق من هذا الحقل، على الخارطة رقم (2) المرفقة.

لذلـك تظـل قطـر المنافـس الرئيـس لروسـيا في سـوق الغـاز العالميـة، لسـنوات طويلـة مقبلـة.

هـددت الانتفاضـات الشـعبية العربيـة، وسياسـات محـور قطـر- تركيـا الداعمـة لهـا، سياسـات روسـيا وسـتراتيجياتها، وبـات التهديـد عـلى الأمـن القومـي الـروسي مشـخصاً وملموسـاً، في حـال أنتجـت انتفاضـات الربيـع العـربي حكومـاتٍ مواليـة لقطـر، كـما في حالـة مـصر أيـام محمـد مـرسي.

تلخـص المشـهد السـياسي في البلـدان العربيـة عمومـاً وسـوريا خصوصـاً، في أن شـكلت المتغـيرات السياسـية المحتملـة خطـراً مركبـاً ومتعـدد الجوانـب عـلى روسـيا. وقـد ترجـم هـذا الخطـر في المشـهد الجيوسـتراتيجي لعمليـات إنتـاج الغـاز والنفـط، وخاصـة في احتـمال نجـاح أصحـاب أحـد الأنبوبـين، القطـري- الـتركي (الانبـوب A عـلى الخارطـة رقـم 2) المسـتند عـلى فرضيـة تغيـير الحكـم في سـوريا، أو الأنبـوب الـذي تـم الاتفـاق عـلى تمديـده بـين حكومـات ايـران، العـراق، سـوريا، (الأنبـوب B عـلى الخارطـة رقـم 2) المعتمـد أساسـاً عـلى ثبـات الحكـم في دمشـق. هـذا وقـد رعـت موسـكو سياسـياً نجـاح تنفيـذ الأنبـوب (B) الإيـراني ورجحتـه عمليـاً، كأفضـل حـل للخـروج مـن أزمتهـا. علـماً أنـه لم يتـم البـدء بتنفيـذ الأنبـوب (B)، واحتـمال أن تتوافـر بيئـة سياسـية وعسـكرية مناسـبة للقيـام بتنفيـذ هـذا المـشروع الإيـراني - السـوري الطمـوح ضعيـف.

7 - هل الشعب السوري ضحية لعصر الغاز؟

روّج إعلاميـاً لانتفاضـات الربيـع العـربي، وبخاصـة لنقـاء محتواهـا التحـرري وصفائهـا العفـوي والجماهـيري، وكان ذلـك صحيحـاً في العديـد مـن الحـالات والأوقـات، فكيـف تحولـت عمليـاً إلى حـروب محليـة تـدار بالنيابـة عـن قـوى إقليميـة ودوليـة؟ وهـل هنالـك احتـمال أن يكـون قـد خطـط لهـذه الانتفاضـات مسـبقاً؟ وهـل تضمنـت الخطـة أن تشـكل أحـزاب الإسـلام المعتـدل النمـوذج

المقترح لقيادة المرحلة؟ هل كانت هي الرافعة السياسية المهيأة للقيام بوظيفة مزدوجة، بحيث تقوم ظاهرياً بالاستجابة لمطالب الجماهير المنتفضة وتحقق بعض مطالبها الاجتماعية، وتضع حداً لمعاناتها، أما باطنياً فتساهم في ترتيب واقع المنطقة الجغرافي والأمني، لتوفير أفضل بيئة لإنتاج الغاز وضخه بطريقة سلسة عبر أراضي سوريا وتركيا إلى قلب أوروبا؟ وهل كان لكل من قطر وتركيا كل هذه القوة والتأثير في الساحة العربية؟ ثمة من يصر على ذلك بل ذهب التشكيك بالبعض إلى اعتبار الربيع العربي ظاهرة تقف خلفها حكومة أردوغان، بهدف السيطرة على سوريا وأجزاء أخرى من العالم العربي، وإعادة أمجاد تركيا القديمة[1].

هل كان أحد الأهداف غير الظاهرة لانتفاضات الربيع العربي، تأمين توافق وتطابق بين الخارطة السياسية الجديدة للمنطقة، ومخطط إنتاج الغاز واستثماره في الشرق الأوسط؟ كما حدث في مرحلة اكتشاف النفط! وبالتالي ثمة تساؤل يتطلب الإجابة، فهل ما خطط له هي صيغة محاكاة واستنساخ لما حدث من تحولات جذرية في خارطة الشرق الأوسط مطلع القرن العشرين؟ وبناء عليه هل يحق لنا أن نتصور ثنائية جديدة ضمن ماتريس السياسات الراهنة، تربط بين سياقات وتطورات انتفاضات الربيع العربي ومسألة إنتاج الغاز؟ أم أنها رواية تتضمن الكثير من الخيال السياسي. من الصعب الإجابة عن كل هذه التساؤلات، فالمعلومات مازالت غير مكتملة، والمشهد السياسي والعسكري يزداد تعقيداً وتشابكاً يوماً بعد آخر. لكن تبقى العلاقة بين رواية إنتاج الغاز وإغراءات إسالته ونقله عبر أراضي شرقي المتوسط صحيحة في كثير من أركانها، ولكن افتراض أن علاقتها عضوية ومباشرة مع الأحداث السياسية في سوريا والعراق، ليس صحيحاً بالضرورة، ولا يمكن إحالة فشل الانتفاضات العربية إلى مسألة الغاز وصراعات تسويقه، فثمة أسباب أخرى ساهمت بالتأكيد في تغيير وجهة انتفاضات الربيع العربي، لتتحول إلى ظاهرة

1. د. إبراهيم علوش. خطّا غاز يرسمان مصير المشرق العربيّ. البديل 22/10/2014 على الرابط: http://elbadil.com/2014/10/22

مختلفة تماماً. وقد قيل سابقاً إن الشعب الكوردي ذهب ضحية عصر البترول مطلع القرن العشرين، فهل يدفع الشعب السوري ضريبة بداية عصر الغاز؟ التخوف مازال قائماً، لأن المنطقة التي كان من المفترض أن يمر عبرها أحد الأنبوبين لا تزال ساحة للمعارك، ومساحاتها الرئيسة لا تزال تحت سيطرة تنظيم "الدولة الإسلامية".

8 - الحرب على داعش... خاتمة لعصر الغاز أم بداية لمرحلة صعبة؟

إن مصير سوريا ومستقبلها السياسي في أحد مستوياته متوقف على تأمين بيئة آمنة ومستدامة لمسار أحد هذين الأنبوبين، أو قد يتم التوافق على إمرار كلا الأنبوبين، كاحتمال غير مستبعد سياسياً. ولكن كما أشرنا سابقاً، ليست آلية الصراعات ضمن سوق الطاقة هي العامل الوحيد، ولا الفاعل الرئيس في الساحتين السورية والعراقية، فلا يمكن استبعاد كل الإرث الثقافي- السياسي وتأثيراته على المشهد السياسي، كما لا يمكن تجاوز أو تخطي الخارطة السياسية والعسكرية التي ارتسمت في المناطق الساخنة داخل حدود الدولتين، خاصة بعد أن تفاعلت المعطيات الجغرافية للسلطات المحلية الناشئة مع البنى الاجتماعية السابقة، هذه البنى التي أفصحت عن قابلية للتكيف والاحتضان بدرجات متفاوتة. فنحن إزاء واقع سياسي واجتماعي وعسكري جديد، ومعطيات مشخصة في نواة كلٍّ من دولتي سوريا والعراق. أنتجت هذه المعطيات في السنوات الأخيرة فئة عسكرية- جهادية نفطية، تتحرك في تخوم المناطق التي تحتوي على آبار النفط والغاز، وبشكل أكثر تحديداً في محافظات (الحسكة، دير الزور، الرقة وحمص) السورية، وفي الجانب العراقي (الأنبار، صلاح الدين والموصل). تتحكم هذه الشريحة الجديدة بسوق النفط والسلاح، تدير وتخزن أموالاً طائلة، لدرجة أنها بدأت تزيح الطبقات الاجتماعية السائدة في تلك المناطق فعلياً عن السياسة والاجتماع.

هـذه الفئـات الاجتماعيـة الصاعـدة والطموحـة باتـت تدعـم وتؤسـس لتوسـع وتضخـم تنظيـم الدولـة "داعـش". إضافـة إلى كل مـا سـبق، يبـدو أن عالمنـا المعـاصر بـكل تعقيداتـه وتطـوره التقنـي، وكذلـك تشـابك مصالـح أممـه وشـعوبه، بـات ينتـج ظواهـر سياسـية مركبـة تسـاهم في ولادة أجيـال جديـدة مـن تنظيـمات شـديدة الخطـورة والتعقيـد، تنمـو في بيئـات تمتلـك أصـلاً هـذه القابليـة. ليـس ثمـة اختـلاف عـلى أن تنظيـم داعـش بـات يشـكل أحـد أبـرز منتجـات المرحلـة، وأحـد مفـرزات سـوء تقديـر وتخطيـط سياسـات الغـرب في الـشرق الأوسـط، بعـد تفـكك الاتحـاد السـوفييتي السـابق، وفي سـياق التعامـل مـع التنظيـمات الإسـلامية بـدءاً مـن أفغانسـتان وانتهـاء بالجزائـر، مـروراً بجنـوب شرق آسـيا. مـن جانـب آخـر يتبـين للمراقـب أن بنيـة وسـلوكية تنظيـم داعـش، كآخـر نسـخة مطـورة لمجموعـة المنظـمات الإسـلامية المتطرفـة، تشـبه إلى حـد كبـير شركـة أمنيـة – إرهابيـة متعـددة الجنسـيات والأسـهم. تمـارس هـذه "الشركـة" المنظمـة وظائفهـا غـير بعيـدة عـن معضـلات سـوق النفـط والغـاز. فالتنظيـم مـازال يهيمـن ويتحكـم بجغرافيـا واسـعة منتجـة للطاقـة، وسـيظل الوضـع الأمنـي والاسـتقرار في منطقـة عبـور أنابيـب الطاقـة الرئيسـة مضطربـاً، خاصـة في ظـل اختفـاء سـلطة كل مـن الدولتـين المركزيتـين (سـوريا والعـراق)، وانكـماش حدودهـما الفعليـة، وسـواء كانـت داعـش أحـد مفـرزات الـصراع عـلى سـوق الطاقـة، أم كانـت حركـة جهاديـة صِرْفـاً انبثقـت مـن أيديولوجيـا التشـدد الإسـلامي؟ فإنـه سـيبقى تنظيـماً قائمـاً عـلى الأرض، وطرفـاً فاعـلاً ومؤثـراً في المسـتقبل القريـب.

ثمـة تكهنـات وقـراءات ترجـح أن بدايـات الحملـة عـلى داعـش غـير واضحـة المعـالم السياسـية، إذ أن الـصراع في جوهـره لا يـدور حـول تصفيـة منظمـة متطرفـة فحسـب، بـل يـدور حـول مصـير ومسـتقبل جغرافيـا سياسـية واجتماعيـة واسـعة ومتداخلـة بـين البلديـن، وكنتيجـة أوليـة تستشـف مـن سـياقات الحملـة الراهنـة، تحولهـا إلى صراع حقيقـي حـول شـكل ودرجـة المتغـيرات الجيوسياسـية المتوقعـة لهـذه الرقعـة الحساسـة، الممتـدة بـين الفضاءيـن المتوسـطي والخليجـي. لذلـك

فـإن الملمـح العـام لهـذه الحملـة وللتحالفـات والنشـاطات السياسـية المرافقـة، لا تنـدرج في أنهـا مجـرد لعبـة سياسـية أو حملـة تأديبيـة سريعـة، تتطلـب فقـط بعـض المهـارة، والأذرع العسـكرية، أو تصفيـة هـذا الطـرف أو ذاك عسـكرياً، كـما أنهـا ليسـت لعبـة الصغـار، دولاً كانـوا أو شركات، وإن توافـر لديهـم فائـض مـن المـال، وإنمـا الأسـاس فيهـا وفي نجاحهـا ومصداقيتهـا، هـو العـودة إلى تقييـم وتفهـم مطالـب ورغبـات سـكان هـذه الجغرافيـا الواسـعة، وكيفيـة تأمـين حقهـم في تقريـر مصـير مناطقهـم، وحسـن إدارتهـا، وشـكل الدولـة التـي يرغبـون الانضـواء تحـت سـيادتها. ومـن الواضـح أن مـن سـاهم في إشـعال هـذه الحـرب التـي تعقـدت وتشـابكت خيوطهـا عـلى أرض سـوريا والعـراق، قـد لا يكـون قـادراً عـلى إطفائهـا، وليـس بالـضرورة أن يقطـف ثمارهـا، فالخاتمـة مازالـت مجهولـة الملامـح، شـكلاً ومضمونـاً، وكذلـك توقيتـاً، ضمـن المنظـور الحـالي للحملـة الدوليـة عـلى داعـش.

المشـهد السـياسي والاجتماعـي شـديد التعقيـد، وسـيزداد تعقيـداً مـا لم ترسـم خطـة عمـل بمنهجيـة جديـدة ومبتكـرة لتفكيـك هـذه المنظومـة الأمنيـة السياسـية الثقافيـة التـي اختزلـت في "داعـش". فتصفيـة داعـش عسـكرياً غـير ممكنـة في المنظـور القريـب، كأي منظمـة إرهابيـة تمتلـك حاضنـة اجتماعيـة، وتسـتند إلى أيديولوجيـة دينيـة إيمانيـة، وإن تحقـق ذلـك افتراضـاً، فإنهـا سـتخلف خرابـاً وفراغـاً كبيريـن، كـما أن اسـتقرار المنطقـة وتنميتهـا يظـلان مرتبطَـين بشـكل وثيـق مـع مصـير الكتلـة البشريـة الأكـبر في سـوريا والعـراق معـاً، وهـي قضيـة أسـاس باتـت تـدرج سياسـياً تحـت عنـوان عريـض: " مسـتقبل العـرب السـنة".

الخارطة رقم(1) مسار مشروع شبكة الغاز العربية

الخارطة رقم (2) المسارات المقترحة لخطوط نقل الغاز القطري والإيراني

سر التدخل الروسي في سوريا[1]

قـد لا أكـون ديمقراطيـاً، ولكننـي ضمانـة الاسـتقرار ونمـو الاقتصـاد وتسـديد الرواتـب التقاعديـة مـن غـير تأخـير.

فلاديمير بوتن

لا أحـد يسـتطيع الكشـف عـن كامـل سر هـذا التدخـل، فقـد كان التدخـل الـروسي في سـوريا متوقعـاً، لكنـه شـكل مفاجـأة مـن حيـث توقيتـه وطبيعتـه، لأن العلاقـة الروسـية (السـوفييتية) ليسـت جديـدة مـع حـكام سـوريا، فقـد كان تدخلها الحـالي متوقعـاً تمامـاً، لأنـه سـبق أن تـم توقيـع معاهـدة مـع الحكومـة السـورية في عهـد الأسـد الأب في العـام 1980، وتمـت مسـاندة نظـام الحكـم في دمشـق إبـان أحـداث الأعـوام (1982-1980) في ظـروف مشـابهة نسـبياً، لكـن الوضـع الإقليمـي والمنـاخ الـدولي قـد اختلـف في الأعـوام الأخـيرة، لذلـك وللكشـف عـن جوانـب مـن سر هـذا التدخـل- الهجـوم الـروسي المريـب، لا بـد مـن المحاولـة لقـراءة جديـدة لمعطيـات الواقـع الـدولي والإقليمـي الراهـن.

يعـد التدخـل العسـكري- السـياسي الـروسي في الحـرب السـورية محطـة مهمـة عـلى صعيـد المنطقـة والعـالم، بـل شـكلت عمليـة التدخـل البوتنيـة القويـة انقلابـاً في الموازيـن السـورية والإقليميـة، بعدمـا أخلّـت تمامـاً بالتوازنـات الإقليميـة التـي سـادت في الأشـهر والسـنوات الأخـيرة. إذ لم تتجـرأ أي دولـة بمـا فيـه أمريـكا عـلى التدخـل بهـذا الشـكل المبـاشر والمعلـن، وتحـت عناوين وأهـداف سياسـية وأجندات

1. أنجزت هذه الدراسة في مركز دراسات روودراو، بعد التدخل الروسي في سورية - تشرين أول 2015، وتم تداولها بشكل محدود.

معلنة بخصوص المسألة السورية، ولا بد أن يكون لهذا التدخل مفاعيل وتأثير عميق على المستويات الدولية والإقليمية والمحلية.

فعلى الصعيد الدولي، يسعى الرئيس بوتن إلى ضرب مساعي الغرب لإضعاف روسيا وعزلها منذ فترة ما بعد نهاية الحرب الباردة، وتأتي عملية التدخل لتشكل جزءاً من خطة إعادة بناء الوجود العسكري الروسي خارج أوروبا الشرقية، وذلك كردّ فعل على احتكار الولايات المتحدة عملية الحرب والسلم على الصعيد الدولي، خلال عقدين من الزمن. لذلك أعلنت روسيا عن طريق هذا التدخل أنه: "إذا كانت الولايات المتحدة، كقوة عظمى، تسمح لنفسها بالتدخل في بلاد أخرى من دون موافقة مجلس الأمن الدولي، فإن روسيا كقوة عالمية يمكن أن تدّعي لنفسها نفس الحق".

كما أن وجود روسيا في سوريا يبين بأنها ليست مجرد قوة إقليمية في أوروبا الشرقية فحسب، لكنها أيضاً لاعب عالمي مؤثر وعلى استعداد لاستعراض قوتها العسكرية وتجريب تقنيات صناعة السلاح لديها في مناطق أخرى من العالم، بعيدة من الأراضي الروسية إن اقتضت الضرورة.

إن طبيعة الوجود العسكري الروسي في الساحل السوري، واستحداث قاعدة جديدة في مدينة جبلة جنوب اللاذقية، وكل المؤشرات الراهنة المستخلصة من حدة الهجمات الجوية، تدل على بقاء روسي طويل الأمد وليس عابر أو حالة إسعافية كما تدعي، لأن حجم ونوعية العتاد الروسي في اللاذقية وطرطوس وقابليته للتوسع كيفياً ونوعياً تتجاوز بكثير مهمة محاربة الإرهاب المعلنة. ومن شأن التموضع الراهن للقوات الروسية أن يؤمن لها وجوداً ميدانياً شرق البحر الأبيض المتوسط، وموقعاً ستراتيجياً قابلاً للتأثير على مجمل موازين القوى في الشرق الأوسط.

وثمة عوامل وأسباب رئيسة أخرى عجلت من التدخل الروسي، ورسمت ملامحه وتوقيته، وهي:

• **العقيدة العسكرية الروسية**

لقد جددت روسيا البوتنية نفسها على أساس عقيدة – أيديولوجيا قومية عرفت بالعقيدة العسكرية أو "الأمنية الجديدة" وهي ترتكز أساساً على خطاب دبلوماسي: "عدم جواز استخدام القوة أو التهديد باستخدامها إلا عندما يقرر مجلس الأمن ذلك، وبموافقة كافة أعضاء المجتمع الدولي. وتصر موسكو على أن استخدام القوة في العلاقات الدولية يجب ألا يقتصر على الحصول على التفويض اللازم فحسب، بل يجب أن يُشرف عليه ويراقبه عن كثب مجلس الأمن طيلة الفترة التي تستغرقها عملية التدخل العسكري".

العقيدة الدفاعية الروسية هي في الحقيقة منهج لإعادة إحياء نفوذها الإقليمي والدولي، ففي 4 شباط 2010، وقع الرئيس الروسي السابق ديمتري ميدفيديف على وثيقة "العقيدة الدفاعية الروسية". وبهذا الصدد لا بد من الإشارة إلى أنه، ومنذ انهيار الاتحاد السوفييتي السابق مطلع التسعينات، والحكم الروسي الجديد، الذي سيطر على الإرث السوفييتي يعمل جاهداً لاسترجاع النفوذ في الجوار الروسي القريب، ومن البديهي أن يستحوذ هذا الأمر على العقائد الدفاعية الروسية بصفتها منظومة شبه أيديولوجية بديلة عن الاشتراكية السابقة، خصوصاً منذ 2000 عندما تولى فلاديمير بوتن السلطة في الكرملين. أما آخر نسخة معدلة من "العقيدة الروسية" الجديدة البديلة للاشتراكية، فقد وقعها وصادق عليها بوتين في 26 كانون الأول 2014. وعندما نشر الكرملين النسخة الجديدة للعقيدة العسكرية، اتضح بأنها تعتبر حلف شمال الأطلسي تهديداً أساساً لأمن البلاد، وخاصة قدرتها الصاروخية. هذا وقد أدخلت الإدارة الروسية في العقيدة العسكرية الجديدة مؤخراً أربعة عشر خطراً عسكرياً خارجياً أساسياً يهدد روسيا، منها: نشاطات أجهزة الاستخبارات والمنظمات الأجنبية، تهديدات التطرف والإرهاب، خاصة في ظروف عدم كفاية التعاون الدولي في هذا المجال، وأيضاً انتشار أسلحة الدمار الشامل. انسجاماً

مـع هـذه العقيـدة، واسـتغلالاً للفرصـة التاريخيـة يبـدو أن اندفـاع روسـيا نحـو البحـر المتوسـط هـو جـزء مـن خطـة بوتـن لإضفـاء مسـحة مـن العالميـة والثقـل الجيوسـياسي -الـذي كان يمتلكـه الاتحـاد السـوفييتي السـابق- عـلى روسـيا المعاصرة.

• سوق الغاز

قبـل حـوالي سـنة وقعـت شركـة (سـيوز نفـت غـاز) المملوكـة للحكومـة الروسـية عقـداً بقيمـة 90 مليـون دولار لمـدة 25 عامـاً مـع حكومـة دمشـق، للبـدء في التنقيـب عـن بعـض مصـادر الطاقـة في البحـر قـرب الشـواطئ السـورية. كـما حققـت شركـة غـاز بـروم إنجـازاً كبـيراً عندمـا نجحـت في تأمـين الحصـول عـلى الحقـوق الحصريـة لتصديـر الغـاز المسـال مـن حقـل تامـار الإسرائيـلي. يبـدو أن روسـيا حريصـة كل الحـرص عـلى زيـادة حصتهـا في قطـاع الغـاز المسـال عالميـاً، وهـو أمـر أسـاس لتلبيـة الطلـب المتزايـد عـلى الغـاز. لكـن يفـترض بعـض المراقبـين أن "هـدف الـروس الخفـي في الدخـول عـلى خـط مصـادر الطاقـة في البحـر المتوسـط هـو إبطـاء تطويـر مصـادر الغـاز الجديـدة وليـس تسريـع إنتاجهـا، وبالتـالي تهـدف إلى التحكـم بالجغرافيـا السياسـية لعمـوم سـوريا، كونهـا عقـدة بريـة سـتراتيجية لتأمـين إمـدادات الغـاز نحـو أوروبـا.

يقـول مانكـوف بهـذا الصـدد: "الـروس ليسـوا في عجلـة للحصـول عـلى الغـاز الـذي يمكـن أن يصـدّروه إلى أوروبـا. إنهـم يريـدون ضـمان أن الآخريـن لـن يزيـدوا مـن إمداداتهـم بطريقـةٍ تُنافسـهم".

هنـا يتضـح الهـدف الجوهـري مـن الوجـود الـروسي في سـوريا وهـو منـع وصـول الغـاز القطـري والسـعودي بـأي شـكل مـن الأشـكال إلى أوروبـا عـبر أنابيـب تمـر بتركيـا. وهـذا مـا يفـسر أيضـاً إصرار تركيـا عـلى البقـاء عـلى تمـاس جغـرافي مـع مناطـق العـرب السـنة في سـوريا، ومنـع الكـورد مـن السـيطرة عـلى مناطـق غـرب الفـرات (حسـب تصريحـات داود أوغلـو الأخـيرة التـي وصفـت هـذه المنطقـة بالمحرمـة أو الخـط الأحمـر). مـن جهـة أخـرى قـد يكـون الهـدف الخفـي لسـيطرة

روسيا المستقبلية على سوريا، حرمان إيران من المناخ الذي يوصلها براً إلى ساحل المتوسط، وبالتالي تظل روسيا هي وحدها المتحكمة بسوق الغاز بعد أن تستبعد كلاً من قطر وايران، أو تعرقل انتاج الغاز لديهما على أقل تقدير. وهما المنافسان الرئيسان لها في سوق الغاز العالمية.

- **إسرائيل**

بات من الواضح أن إسرائيل لم تعد مستعجلة، أو حتى تهدف في المستقبل القريب إلى تغيير نظام الحكم في سوريا، كما أنها في الوقت نفسه لا تريد لإيران أن تكون صاحبة النفوذ العسكري والسياسي الأول في سوريا المفتتة، لذلك يبدو أن الحل الوسط، وربما صيغة ما من التفاهم قد تم تثبيتها بين إسرائيل وأمريكا، وتتلخص في: أن تشغل روسيا لوحدها الفراغ السوري. حيث أنها نسقت أولاً جهودها العسكرية مع إسرائيل قبل غيرها، وحتى قبل قوات التحالف الدولي.

- **الأرثوذكسية المسيحية**

لقد كانت روسيا راعية للكنيسة الأرثوذكسية المشرقية، لدرجة أنها كانت تحاول حماية مسيحيي المشرق واعتبارهم رعاياها طوال القرون الماضية، ما زج بها في مواجهات تاريخية مع العثمانيين، تجاوزت ست عشرة معركة وحرباً عبر التاريخ، كما أنها كانت تصطدم مع الغرب وكنسية روما، في مسائل تخص التبشير والكثلكة في العالم. ما أود إضافته هنا هو ضرورة أن لا نغفل هذا الجانب كمكمل وسند للعقيدة العسكرية الروسية التي تم إعلانها والعمل بها في السنة الأخيرة، وذلك لتأمين أكبر قدر من المبررات وتوفير المظلة الأخلاقية والفكرية لدخولها سوريا، ولكي تظهر روسيا دينياً بمظهر حامية مسيحيي المشرق، وربما بشكل وصيغة ما، كحامية لكل أقليات المنطقة بما فيها الكورد. إن السياسة الروسية المعاصرة تحمل لأول مرة بُعداً أيديولوجياً في المنطقة بعد

تقارب الكرملين مع الكنيسة الكاثوليكية في السنوات الماضية، وبالتالي بدأت فكرة حماية الأقلية المسيحية في سوريا ومنطقة الشرق الأوسط تظهر باعتبارها مصلحة جيوسياسية جديدة، وهدفا أخلاقياً لروسيا البوتنية. هذا وقد دعمت مواقفُ عددٍ من البطاركة الأرثوذكس وعززت هذه السياسة.

• **الجيش السوري**

كنا نتوقع منذ بداية الانتفاضة السورية ونستقرئ بأنه لا بد أن يكون لروسيا أصدقاء، بل متعاونون وأتباع داخل قيادة الجيش السوري، وهذا ما لم يثبت عملياً حتى الآن، لذلك قد يكون أحد أهداف التدخل الروسي هو إعادة حسن علاقتها السابقة مع كبار الضباط في الجيش السوري، وخاصة من أبناء الطائفة العلوية، عن طريق توثيق علاقاتها المباشرة بقياداته، في سياق تعزيز قدرات الجيش القتالية، وتحديث أسلحته، وبناء على تطوير العلاقات المباشرة مع أوساط الجيش والاستخبارات يفترض أن تكون الدوائر الروسية ذات العلاقة في وضع أفضل لإيجاد قيادات في الجيش يمكن أن تكون في نهاية المطاف بديلاً للأسد، من دون الخوف من تمرد الجيش، انهيار الدولة أو فقدان سوريا المفيدة كحليف مستقبلي.

• **كوردستان الحائرة**

تحاول روسيا في الآونة الأخيرة كسب مصداقية المجتمع الدولي بعدة صيغ، خاصة من خلال إظهار أنها دولة راعية للأقليات في الشرق الأوسط، سيما بعد أن واجهت تلك الأقليات المجازر، وتم استهدافها من قبل التنظيمات الإرهابية، كتنظيم "داعش".

بعبارة أخرى، فإن روسيا تسعى من خلال فتح قنوات تواصل مع الأقليات في المنطقة إلى تعزيز نفوذها في المنطقة بشكل يُمكن أن يحولها إلى رقم مهم في معظم الملفات الإقليمية إن لم يكن مجملها، ومن ضمنها الملف الكوردي.

موسكو ليست بعيدة عن كوردستان، بل كوردستان على سلم أولويات روسيا، ولكن ما هي طبيعة أهدافها البعيدة؟ ليست بين أيدينا معلومات موثقة بهذا الصدد.

أما لماذا كانت كوردستان حائرة في السنتين الماضيتين؟! فيمكن القول بدون تحفظ، وباحترام شديد، أن إدارة ملف سوريا وغربي كوردستان لم تكن ناجحةً في إطارها العام، ويبدو لي أن طرفين إقليميين سيخرجان شبه خاسرين من المعركة السياسية والدبلوماسية والعسكرية الراهنة، هما تركيا واقليم كوردستان في التصفيات الأولى، فهل سيوفر التدخل الروسي المناخ لكوردستان لكي تعود إلى المباراة مرة أخرى، وهل لدى القيادات الكوردستانية القدرة على التعامل مع الملف السوري واستثماره بشكل أفضل؟ ربما، لكن كيف؟

من حيث المبدأ وكقراءة أولية، يمكن التكهن بأن روسيا جادة في استبعاد تركيا وكذلك قادرة على منافسة إيران في سوريا، وهي متفقة مع إسرائيل على ذلك، فهي ستلتقي بالضرورة مع المصالح والطموحات الكوردية، بصيغة ما!

• خاتمة

لقد كانت عملية التدخل الروسي تعبيراً عن ديناميكية وذكاء القيادة البوتنية، فهي تسعى لسد الفجوة بين موقعها الاقتصادي على خارطة العالم وقدراتها العسكرية العملاقة، وإذا علمنا أن مساهمة روسيا في الاقتصاد العالمي لا تتجاوز 3%، مقابل 20% لأمريكا، في حين تظل روسيا الدولة العسكرية الثانية مباشرة بعد أمريكا، بدون وجود فجوة كبيرة بينهما كما في الاقتصاد، وبالتالي هذه الفجوة انتقلت من الاقتصاد إلى السياسة و لجمت دورها الدبلوماسي العالمي.

قد يساهم التدخل الروسي في سوريا في إطالة أمد الصراع السوري، كما قد يفتح آفاق الحل في الوقت نفسه، وذلك حسب شدة واتجاه الموقف

الأمريكي، لكن هذا التدخل سيعيد بالتأكيد رسم خارطة العلاقات الدولية فيما يتعلق بطبيعة العلاقة بين روسيا من جهة وأوروبا والولايات المتحدة من جهة ثانية. وهي محاولة مباشرة وقوية لاستبعاد ولجم تركيا في نفس الوقت، لكن ليس بمقدور روسيا وحدها صنع سلام مستقر في سوريا، لذلك ستظل موسكو بحاجة للتنسيق مع واشنطن وعواصم إقليمية تمتلك جزءاً من مفاتيح الحل السوري، وبالتالي يمكن التكهن بأن الملف السوري قد يتجدد ويعاد تدويره ونثر أوراقه على الطاولة من جديد، كما قد يتم استبعاد أوروبا ممثلة بفرنسا وبريطانيا، والتركيز على فعالية أطراف محلية قريبة جغرافياً، فلماذا لا تكون كوردستان واحدة من هذه القوى؟ لكن كيف؟

لقد شكلت عملية التدخل الروسي مؤشراً على ديناميكية وسرعة المبادرة واستغلال الفرص، بعكس ما أبدته القيادة الكوردستانية من كسل، وسوء تقدير وأخطاء جسيمة في قراءة المشهد السوري في السنتين الماضيتين.

قصة نجاح كوباني

لم يبدأ نجاح كوباني من لحظة قدرتها على مواجهة هجمات داعش الإرهابية، ولا إثر تزايد اهتمام الإعلام العالمي والعربي بها، وإنما منذ نشأتها كمدينة صغيرة، بائسة ومنسية على حافة الحدود الدولية التي خطت على طول مسار قطار الشرق السريع مطلع القرن الماضي بين سوريا وتركيا.

إن تركيز هجمات تنظيم "الدولة الإسلامية" على ريف كوباني ومركز المدينة في الأشهر الماضية، أثار تساؤلات عديدة حول خلفية وهدف هذه الهجمة الشرسة، وما الذي سيحققه تنظيم الدولة من وراء السيطرة على هذه المدينة تحديداً؟ ولماذا كل هذه الخسائر والضحايا؟ كثرت الأسئلة التي تزداد صعوبة الإجابة عليها بدون معرفة واستعراض أبرز ميزات منطقة كوباني، وبالتالي الالتفات إلى ثقلها الستراتيجي، والاستعانة به لتفسير جانب من تعقيدات المعضلة والحدث.

تبدأ قصة نجاح كوباني في الربع الأول من القرن الماضي عندما تبلورت ملامحها كمركز حضري صغير، تأسس من تجمع لعائلات كوردية حضرية، ومهاجرين أرمن فارين من بطش السلطات العثمانية إبان الحرب العالمية الأولى. ثم توسعت وانتعشت لتكون حاضرة لريف واسع شرق الفرات. بدأت حدود منطقة كوباني ترتسم وتترسخ بدءاً بمعاهدة سان ريمو (1920) واتفاقية أنقرة (1921) بين فرنسا والحكومة التركية، مقابل اعتراف تركيا بالانتداب الفرنسي على سوريا، واستندت مشروعية هذه الحدود على معاهدة لوزان (1923) التي تم بموجبها طي قرار معاهدة سيفر (1920) المتضمن إنشاء دولة كوردية في المناطق ذات الغالبية الكوردية الواقعة شرق نهر الفرات وتتضمن أيضاً كامل ولاية الموصل. فمن حيث الجوهر كانت إتفاقيتا سان

ريمو وأنقرة تعديلاً بل إلغاءً لمعاهدة سيفر، التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، واشتملت على خفض مساحة أقاليم تركيا، وإنشاء دولة كوردية في بعض ولايات الدولة العثمانية السابقة. ما تحقق عملياً كان ضم مناطق من ولاية دياربكر وأجزاء واسعة من سهول ويرانشهر وسروج إلى سوريا التي كانت تتشكل كدولة، وكإتحاد لأقاليم فدرالية في ظل الانتداب الفرنسي. سبّبت عملية رسم الحدود تمزيقاً للنسيج الحضري- الاجتماعي الكوردي شمال خط القطار (تركيا) وجنوبه (سوريا)، فتم حرمان هذه الأرياف من الاتصال بالمدن الكوردية التاريخية، وهما في منطقة وسط وشمال سهول الجزيرة، مدن: (ويرانشهر، سروج وأورفا)، فدفعت الحاجة بالأهالي لاستحداث مدينة جديدة، وسوق محلية للأرياف التي ظلت جنوب الحدود السورية- التركية، فوقع الاختيار على موقع (كانيا عربان) ليكون هذا الموقع مركزاً إدارياً وسوقاً ناشئة. تكونت النواة الأولى لمدينة كوباني حول أحد مراكز الشركة الألمانية التي قامت بمدّ سكة القطار، وسرعان ما اندمجت واستوعبت مخيم النازحين الأرمن، واستعارت اسمها كوباني اختصاراً من اسم الشركة (كومباني).

نسجت الأعوام قصة استيعاب كوباني لمحيطها الريفي والرعوي الواسع، الذي قاربت مساحته أربعة آلاف كيلومتر مربع، فارتبطت مع البلدة سهول واسعة كانت تقطنها في الغالب عشائر كوردية رحالة، كانت تجوب براري شرق الفرات شمال مدينة الرقة، وحتى شرق مدينة حماه.

حدث ذلك التحول الكبير في عمران المنطقة بدون خطة مسبقة لربط هذه الأرياف بمركز حضري، إلى أن تم إلحاق منطقة كوباني لاحقاً بأقرب وأكبر مدينة في شمالي سوريا وهي حلب، التي تقع على بعد 160 كيلومتراً غرباً.

حافظت منطقة كوباني على أهميتها التي تنبثق من جغرافيتها الوسيطة، فهي شرق الفرات ضمن الجزيرة الفراتية، إلا أنها أخرجت من الناحيتين الإدارية والعملية من الجزيرة، وضمت إلى محافظة حلب، وأتبع قسم صغير

مـن ريفهـا بمحافظـة الرقـة التـي تأسسـت في العـام 1960.

نتيجـة لهـذه الإجـراءات تـم قطـع التواصـل الاجتماعـي والاقتصـادي والسـياسي بـين كـورد الجزيـرة (محافظـة الحسـكة) وكـورد كوبـاني، الذيـن كانـوا متواصلـين سـابقاً عـبر سـهول ويرانشـهر ورأس العـين، وعـبر الطريـق التاريخـي الـذي كان يربـط حلـب بالموصـل. لقـد انقطـع التواصـل الاجتماعـي والإداري الـذي اسـتمر لآلاف السـنين قبـل تقسـيم مناطـق كوردسـتان بعـد الحـرب العالميـة الأولى.

أصبـح تفتيـت وتخريـب المناطـق الكورديـة، في شـمال وغـرب سـوريا، لاحقـاً هدفـاً وموضوعـاً لسياسـات وخطـط الدولـة والحـزب الحاكـم في دمشـق. ولتثبيـت هـدف تفتيـت مناطـق الجزيـرة العليـا، صـادرت الحكومـة السـورية أراضي الملاكـين الكـورد في غـرب رأس العـين، خاصـة أمـلاك عائلـة (إبراهيـم باشـا المـلي)، وذلـك تحـت شـعار الإصـلاح الزراعـي، كـما تـم تسـهيل مهمـة اسـتيطان بعـض القبائـل العربيـة البدويـة غربهـا، في ناحيـة (سـلوك)، ومنطقـة تـل أبيـض (كـري سـبي).

وفي سـياق لاحـق، تفتـت وانكمـش كل المناطق الكوردية في شـمال وغرب سـوريا بسـبب سياسـات الحكومـات المتعاقبـة التـي كانـت تتعمـد إهمالهـا وتطويقهـا، بمـا فيهـا كوبـاني التـي سـجلت رغـم تلـك السياسـات قصـة نجـاح تنمـوي، وانتعـاش اقتصادي.

حافظـت منطقـة كوبـاني عـلى خصوصيتهـا وأصالتهـا، وكذلـك عـلى التجانـس والتضامـن الاجتماعـي بـين قبائلهـا، فاتجـه أبنـاء المنطقة نحـو العمل الحـر، والزراعة بعيـداً عـن الدعـم الحكومـي. فتمكنـت مـن المحافظـة عـلى التنميـة البشريـة فيهـا، وكذلـك عـلى قدرتهـا الفريـدة في أن تربـط كـورد الجزيـرة مـع الخـزان البـشري الكـوردي المـوزع في المناطـق الغربيـة مـن سـوريا في مناطـق (البـاب، تـل عـرن، ريـف شـمال حلـب، عفريـن، جبـل الكـورد في اللاذقيـة، حـماه وحمـص)، فالطبيعـة العشـائرية للمناطـق الكورديـة في غـرب سـوريا هـي مـن نفـس الأصـول العشـائرية في كوبـاني، كعشـائر البرازيـة التـي تتواجـد أيضـاً في محافظـة حـماه عـلى سـبيل المثـال لا الحـصر.

تمكنت منطقة كوباني من العيش بشكل شبه مستقل، وباكتفاء ذاتي عالي المستوى، فهي مكونة من ريف واسع تبلغ مساحته إدارياً 2730 كيلومتراً مربعاً، تتبعها ناحيتان هما (شيوخ، وصرين) بمجموع قرى ومزارع يتجاوز عددها 400، وعدد السكان بلغ 363000 نسمة، حسب آخر إحصاء رسمي.

إضافة إلى سيادة الرعي في سهولها قديماً، انتعشت فيها الزراعة منذ أواسط القرن الماضي، خاصة المروية (القطن والحبوب) إلى أن حققت كوباني قفزة في الحياة الزراعية عندما نجحت في زراعة أشجار الفستق الحلبي، الجوز واللوز، وكذلك الزيتون في السنوات الماضية.

وتوالت فصول نجاح أبنائها عندما اكتسبوا خبرة صناعية عالية، فاشتهروا بصناعة الآلات الزراعية وتعديلها، وبشكل خاص حفارات الآبار العميقة، ومضخات المياه العمودية، ومعدات تقنية أخرى متعددة، لدرجة ان توزع أبناؤها في أصقاع متباعدة من قارتي آسيا وأفريقيا، وهم يحفرون آبار مياه الشرب، بنفس الآلات التي صنعوها في مدينة كوباني، ونجحوا في رفع المياه من أعماق تتجاوز الخمسمائة متر.

ثم تحققت في كوباني نهضة عمرانية وصناعية، فتوسعت المدينة، وأنشئت فيها مصانع الآلات الزراعية والألبان، إضافة إلى وجود معملين للإسمنت، أحدهما بشراكة تركية (غورش)، والآخر شركة عملاقة (لافارج) بأسهم فرنسية، شيد في قرية جلبي، وتجاوز رأسماله 680 مليون دولار، ويقدر إنتاجه السنوي بثلاثة ملايين طن، بمبيعات تقريبية تبلغ 240 مليون دولار.

• بعد الانتفاضة السورية، توجهت إلى كوباني وريفها آلاف العائلات، وخاصة العربية التي تعرضت مناطقها للقصف والتدمير لتشكل حاضنة ومكاناً آمناً للمدنيين.

وعلى ما يبدو، فإن كوباني استهدفت من قبل داعش لهذا السبب أيضاً، إضافة لخيراتها واقتصادها المتنامي، وكذلك لقرب بوابتها التجارية من الحدود التركية. فكان قرار الغزو، الذي سبب خسائر بشرية تجاوزت ألفي شخص،

وأخـرى اقتصاديـة كبـيرة، تقـدر بحـوالي 3,7 مليـار دولار، وقـد ترتفـع إلى حـوالي خمسـة مليـارات دولار حتـى صيـف العـام 2015، وعـلى الرغـم مـن الخـراب الكبـير في ريفهـا، وتدمـير مرافـق ومسـاكن مركـز المدينـة، إلا أنهـا تسـتمر في تسـجيل النجاحـات مـن الناحيتـين المعنويـة والسياسـية، فقـد توحـدت في معركـة الدفـاع عنهـا كل القـوى المحبـة للسـلام والمعاديـة للإرهـاب والاسـتبداد.

كانـت كوبـاني تجربـة فريـدة، تحـكي قصـة انتعـاش وتطـور منطقـة كورديـة منسـية في وسـط وشـمال سـوريا، قابلـة للتطـور والاتحـاد مـع مناطـق الجزيـرة في شرقهـا، لتشـكل أرضيـة لمنطقـة واسـعة تنتعـش خـارج سـلطة الحكـم في دمشـق.

أخـيراً، باتـت كوبـاني في الفصـل الأخـير والدامـي مـن قصتهـا، رمـزاً للبسـالة ولتضامـن قـوى السـلم والديمقراطيـة والمدافعـين عـن حقـوق الإنسـان، لدرجـة أن مقاومتهـا المسـتمرة باتـت ترسـل إشـارات أمـل قويـة لإحيـاء العلاقـات العربيـة الكورديـة، ولتوفـير أرضيـة سياسـية مناسـبة لإمكانيـة وحـدة قـوى المعارضـة السـورية. فـإن نجحـت في ذلـك فسـتثبت مـن جديـد اسـتمرارية رمزيـة قصـة نجاحهـا، في سـنوات السـلم كـما في أوقـات الحـرب.

الحزام (العربي) في الجزيرة السورية[1]
أكبر تغيير ديموغرافي في الشرق الأوسط

•الجذور التاريخية لسياسات التعريب في سوريا

تمر في هذه الأيام ذكرى حدث أليم ولئيم في نفس الوقت، لما كان له من أثر اجتماعي وسياسي بالغ الخطورة، إذ واجه عشرات الألوف من الفلاحين الكورد في سوريا أحداثاً مأساوية ومصيراً مجهولاً. يمر اليوم (24 حزيران) واحد وأربعون عاماً على تطبيق مشروع الحزام العربي في شمال الجزيرة الفراتية، فمن أين انبثقت فكرة هذا المشروع الاستطياني؟ وعلى أي أسس قانونية وأخلاقية استند؟! وكيف طُبّق؟ سنحاول في هذا البحث الموجز اختزال سياقات الحدث وتوضيح خلفياته وتسليط الضوء على بعض تفاصيله.

في الواقع لم تكن سوريا يوماً أرضاً خالية من البشر، ولا فجوة حضارية ليتم ملء فراغها السكاني لاحقاً. ولم يتبخر سكانها في أي عهد من العهود، ولم يتفرق أبناؤها حسب كل المعطيات التاريخية، وإنما جسد المجتمع على أرض سوريا أقصى درجات التنوع والتلاقي الثقافي.

تبين الدلائل والوثائق التاريخية أن أول محاولة لتوحيد هوية سوريا الثقافية جرت مع بداية الغزو العربي الإسلامي، وترجمت في مساعي تعريبها إبان العهد الأموي، خاصة في مجال تعريب الدواوين، وصولاً إلى استقدام القادة والحكام من قلب الجزيرة العربية إليها. هذا وقد ظهر الحكام الأمويون أغراباً عن مدن بلاد الشام ومجتمعاتها في البدء، فشيدوا قصورهم على تخوم بوادي بلاد الشام، على شكل مجمعات ومراكز للحكم.

1. نشرت في موقع شبكة رووداو الاعلامية بتاريخ 24 حزيران 2015 على الرابط:
http://www.rudaw.net/Library/Files/Uploaded20%Files/arabic/hizam_alarabi_rudaw.pdf

بـصرف النظـر عـن كل النظريـات القوميـة العروبيـة، وافتراضاتهـا العديـدة والضعيفـة، فقـد تمـت أولى مراحـل تعريـب سـوريا في العهـد الأمـوي لأسـباب سياسـية وأيديولوجيـة، ولاحتـكار السـلطة الإسـلامية الجديـدة لصالـح بنـي أميـة حـصراً. ومـع ذلـك اسـتمر معظـم سـكان سـوريا يحافظـون عـلى ثقافاتهـم المحليـة وحتـى معتقداتهـم الدينيـة، فثمـة مصـادر تاريخيـة تشـير إلى أن أغلبيـة سـكان سـوريا كانـوا مسـيحيين حتـى مطلـع الألـف الثـاني الميـلادي، إضافـة إلى وجـود أديان أخـرى، إلى أن تغـيرت تركيبـة سـوريا السـكانية وتعقـدت وتشـابكت ثقافاتهـا لاحقـاً، إثـر اندماجهـا مـع العـالم الإسـلامي الرحـب والمتنـوع. لكـن عـادت سـوريا لتظهـر بهوياتهـا المحليـة، وضعـف العنـصر العـربي فيهـا كثـيراً، وانحـصر الثقـل السـكاني العـربي في البـدو والمسـيحيين العـرب خـلال العهـد العثـماني، حتـى باتـت اللغـة الكورديـة هـي السـائدة في مدينـة دمشـق أواسـط القـرن التاسـع عـشر.

بعـد تطبيـق اتفاقيتـي سـايكس بيكـو وسـان ريمـو، اسـتقدم الملـك فيصـل بـن الحسـين مـن الحجـاز لحكـم دمشـق، وتـم تأسـيس المملكـة العربيـة في بـلاد الشـام، وعاصمتهـا دمشـق (1920-1918) برعايـة بريطانيـة- فرنسـية، فجسـد تنصيـب (ملـك عـربي) المحاولـة الثانيـة لتعريـب الحكـم في دمشـق، كمدخـل لتعريـب كل بـلاد الشـام. جلـب الملـك فيصـل معـه قـادة ومستشـارين ومسـاعدين مـن أقربائـه الحجازيـين، بـل شـجع قبائـل عربيـة مـن المتنقلـين في أطـراف باديـة الشـام عـلى التوجـه نحـو غـرب بـلاد الشـام، والسـكن في مدينـة دمشـق وغيرهـا مـن مـدن بـلاد الشـام. أمـر فيصـل بذلـك بهـدف التخلـص مـن الإرثَـين الثقيلَـين الأيـوبي الكـوردي والعثـماني اللذيـن كانـا مهيمنَـين عـلى المشـهد العـام في بـلاد الشـام[1].

•بداية التطبيق العملي لسياسة التعريب

بعـد اسـتقلال سـوريا في العـام 1946م، سـعى التيـار القومـي العـربي والقومـي السـوري لإزاحـة العديـد مـن العائـلات الكورديـة عـن مفاصـل الحكـم، فتنامـت

1. فيليب خوري، أعيان المدن والقومية العربية "سياسة دمشق 1860ـ1920"، ترجمة: عفيف الرزاز. بيروت 1993.

سياسات الإقصاء السياسية أولاً، فالثقافية والفكرية لاحقاً، وذلك من قبل الأوساط الحاكمة التي تعاقبت على الحكم من بعد فيصل. وبلغت هذه السياسة الذروة في منتصف القرن العشرين (1949) مع عملية إعدام الجنرال حسني الزعيم، الشخصية العسكرية الكوردية ورئيس الجمهورية السورية، إلى جانب رئيس وزرائه الدكتور محسن البرازي، الشخصية الحقوقية والأستاذ الجامعي الكوردي الكبير.

في مرحلة لاحقة تابعت النخب العربية الحاكمة في دمشق نفس سياسة تعريب القطاع العسكري، وإقصاء العسكريين والإداريين الكورد، وقد أعطي لهذه التوجهات بعد تطبيقي في مرحلة حكم جمال عبدالناصر (الجمهورية العربية المتحدة) عندما كانت سوريا الإقليم الشمالي فيها.

لاحقاً قام ما يسمى بالحكم الوطني بالتركيز على مسألة الأرض وإمكانية حرمان الكورد من حق التملك، فكانت عملية منع تملك الأراضي، من أولى خطوات التعريب الناعمة والقانونية. ثم تصاعدت وانتعشت لتتم محاربة الكورد في لقمة العيش، فصدر المرسوم التشريعي رقم (193) للعام 1952، المتضمن "عدم إنشاء أو تعديل أي حق من الحقوق العينية على الأراضي الكائنة في مناطق الحدود إلا برخصة مسبقة تصدر بقرار من وزير الداخلية". هذا المرسوم حرم الكورد حصراً من تسجيل الأراضي الزراعية بأسمائهم، في كامل الشريط الحدودي بدءاً من محافظة إدلب على حدود لواء اسكندرون غرباً، حتى ريف محافظة الحسكة شرقاً، على الحدود مع تركيا، ومن على ضفاف نهر دجلة وحتى تخوم جبل سنجار بمحاذاة الحدود العراقية. وكانت النتيجة الأولية لهذا المرسوم- القرار عدم قيام أي مشروع زراعي أو صناعي، أو حتى أي منشأة خدمية عائدة ملكيتها للمواطنين الكورد في هذه المناطق الغنية والواسعة، وتوقفت عملية التنمية العمرانية، وتضاعفت الهجرة من المناطق الكوردية، السكان و/أو رؤوس الأموال.

هـذا وقـد عـدل وتعمـق تأثـير هـذا المرسـوم بموجـب القانـون رقـم (75) للعـام 1964 ليتـم اعتبـار كامـل محافظـة الحسـكة منطقـة حدوديـة. جديـر بالتوضيـح أن هـذه الإجـراءات كانـت خاصـة بالكـورد في التطبيـق العمـلي، لأن باقـي المواطنـين كانـوا يحصلـون عـلى الرخـص وبالتـالي الموافقـات "الأمنيـة" المطلوبـة التابعـة لـوزارة الداخليـة، للقيـام بأعمالهـم واسـتثماراتهم بشـكل طبيعـي.

لم تكتـف السـلطات الحاكمـة، ومـن خلفهـا المنظـرون والسياسـيون، بهـذه الإجـراءات لمحاربـة الكـورد اقتصاديـاً بـل كانـت تتطلـع إلى المزيـد، إلى أن صـدر قانـون الإصـلاح الزراعـي العائـد لعهـد "الوحـدة"، بأهدافـه المزدوجـة، الاجتماعيـة المتمثلـة في توزيـع الأراضي عـلى الفلاحـين الفقـراء، والقوميـة العروبيـة التـي اندرجـت ضمـن خطـة ممنهجـة لإلغـاء ملكيـات الأرض الكبـيرة للملاكـين الكـورد في عمـوم سـوريا، وبالتـالي تـم ضرب الثقـل السـكاني والسـياسي لكـورد سـوريا بـدءاً بعهـد "الوحـدة" بـين مـصر وسـوريا (1961-1958)، وصـولاً إلى عهـد حافـظ الأسـد أوائـل السـبعينات مـن القـرن المـاضي.

يبـدو للمتابـع، وحسـب مـا طبـق عمليـاً، أن الأراضي العائـدة لكبـار الملاكـين الكـورد لم تـوزع عـلى الفلاحـين الكـورد، لسـببين، الأول، أن معظـم الفلاحـين الكـورد تـم تجريدهـم مـن الجنسـية السـورية قبـل سريـان مفعـول قـرار توزيـع الأراضي، والثـاني، لـكي لا يسـتقروا في الريـف ويتشـبثوا بـالأرض، وإنمـا تـم التخطيـط لتهجيرهـم وتجويعهـم وبالتـالي إبادتهـم بشـكل متـدرج داخـل مجمعـات في قلـب الصحـراء السـورية، بالقـرب مـن مدينـة تدمـر وشرقهـا، بحسـب مـا هـو موثـق ومـا نـشر كثـيراً في أدبيـات حـزب البعـث والمقربـين منهـم(2)[1].

في عهـدَي الانفصـال 1961 والبعـث 1963، سـادت أيديولوجيـا التعريـب بشـكل سـافر، ونظّـر لهـا، وعمـل عـلى تطبيقهـا بعنـف وقسـوة، بـدءاً بالترويـج السـياسي

1. محمـد طلـب هـلال. دراسـة عـن محافظـة الحسـكة مـن النواحـي القوميـة، الاجتماعيـة، السياسـية. تاريـخ 12ـ 11ـ 1963 مـن الصفحـة 51 حتـى 53، كـراس طبعتـه ووزعتـه الحكومـة السـورية. علـماً أن محمـد طلـب هـلال، شـخصية أمنيـة وسياسـية أصلهـا مـن حـوران، كان شـديد العـداء للكـورد ويطالـب بترحيلهـم وإبادتهـم، عـلى الطريقـة التـي أبـادت فيهـا المنظـمات الصهيونيـة الفلسـطينيين، تـدرج مـن ضابـط أمـن في المخابـرات السـورية في محافظـة الحسـكة إلى أن أصبـح وزيـراً للزراعـة فنائبـاً لحافـظ الأسـد في حكومـة العـام 1970.

والإعلامي لكون الكورد مهاجرين قادمين من خارج سوريا، وصولاً إلى إجراءات السجن والنفي والحرمان من التعليم، وكان الهدف من ذلك إلغاء الخصوصية الثقافية واللغوية للمجتمع الكوردي، وتخريب وتقطيع نسيجه الاجتماعي في مناطق سكنه وتواجده التاريخي وخاصة في ريف شمالي الجزيرة الفراتية، هذا الوجود الموثق بدقة في معظم المصادر التاريخية العربية والإسلامية، وكذلك مشاهدات الرحالة في القرون الثمانية الأخيرة من تاريخ المشرق على أقل تقدير.

لقد خُططت ورسمت هذه السياسة العنصرية على أعلى المستويات السياسية، فقد اتخذت بهذا الخصوص أخطر القرارات المصيرية في المؤتمر القطري الثالث لحزب البعث العربي الإشتراكي (1966)، حسب الفقرة الخامسة من توصياته، والمتضمنة ما نصه: "إعادة النظر بملكية الأراضي الواقعة على الحدود السورية التركية، وعلى امتداد 350 كيلومتراً وبعمق 15-10 كم، واعتبارها ملكاً للدولة، وتطبق فيها أنظمة الاستثمار الملائمة بما يحقق أمن الدولة" وبذلك تمت مصادرة حوالي 5250 كيلومتراً مربعاً من أراضي شمال الجزيرة السورية الخصبة، وجعلها ملكاً حصرياً للدولة بهدف تحويلها إلى مزارع فمستوطنات زراعية تستوعب العنصر العربي فقط، ولطمس معالم وهوية المجتمع الكوردي المحلي المستمد من واقع الغالبية المطلقة لسكانها.

لقد بلغ عدد السكان الكورد المقيمين في هذا الشريط الحدودي، المسجلين في سجلات الأجانب (المجردين من الجنسية السورية) في ريف هذه المنطقة حينها حوالي 25 ألف شخص.

لاحقاً واستكمالاً لنهج حكومات البعث المعادي للوجود الكوردي اجتماعياً وقومياً، أكد المؤتمر القطري الخامس لحزب البعث في أيار 1971 على تطبيق هذه السياسة، وبالتالي شكل حكم حافظ الأسد الأداة والمرحلة التفيذية لسياسات التعريب والتهجير العنصرية ضد الكورد. علماً أن مشروعي الحزام

والإحصاء (التجريد من الحقوق المدنية) كانا نهجاً وخطة يكمل أحدهما الآخر، وكانا يسيران في خطين متوازيين ويفعلان فعلهما في تحطيم بنية المجتمع الكوردي الريفي وتفتيته.

وعلى الرغم من هذه السياسية الحكومية العنصرية، وضعف الإمكانات، لم يقف الفلاحون الكورد مكتوفي الأيدي إزاء هذه السياسات، وإنما قاموا بحركات احتجاج ومقاومة لعملية الاستيلاء على أراضيهم، عن طريق طرد جرارات الحكومة وضرب الشرطة في أغلب المناطق الكوردية، حتى بلغت الذروة حين تم تحطيم بعض الجرارات وقتل سائق أحدها في ريف ديريك. هذا وقد دخل السجن مئات الفلاحين والناشطين الحزبيين خلال أعوام المقاومة هذه، طوال سنوات الستينات من القرن العشرين.

كانت حكومة البعث تسير بخطوات ثابتة انسجاماً مع ترسيخ سلطتها الدكتاتورية في عموم سوريا والمناطق الكوردية على وجه الخصوص، نحو تطبيق مشروع الحزام، ومهد حكم حافظ الأسد بمناوراته السياسية الطريق لتنفيذ مشروع الحزام الأخضر (وهو اسمه الرسمي في الوثائق الحزبية والحكومية)، ولإضعاف الجبهة الكوردية المقاومة لمشروع الحزام، قامت أجهزة الأمن العائدة لفترة حكم حافظ الأسد، وقيادة جبهته الوطنية التقدمية، باعتقال قيادات كوردية من الحزبين المعارضين، للمشروع وخاصة من الحزب الديمقراطي الكوردي (البارتي) في 29 تموز 1973 وهم:

1. دهام ميرو. سكرتير الحزب.
2. كنعان عكيد
3. محمد نذير مصطفى
4. محمد أمين شيخ كلين هوري
5. خالد مشايخ
6. محمد فخري
7. عبدالله ملا علي

ولاحقاً حميد حسين سينو، الذي تم اعتقاله في العام 1977. وقد أمضوا أكثر من ثماني سنوات في سجون النظام، وهي أطول فترة سجن لقادة وساسة كورد في تاريخ سوريا؟

تم تنفيذ مشروع الحزام بحذر وخوف شديدين، على الرغم من أن الأجواء كانت قد مهدت لتطبيقه بأقل الخسائر. بحيث جاء قرار التنفيذ الذي أتخذ من قبل القيادة القطرية لحزب البعث بموجب: القرار رقم (521) بتاريخ 24 حزيران 1974م، كتحصيل حاصل وكان قد تم إعداد قوائم جموع الفلاحين المطلوب ترحليهم من ديارهم وأرضهم في منطقة الرقة – طبقة نحو الجزيرة.

وصلت طلائع الفلاحين المرحلين إلى الجزيرة، وتم تجميعهم في مخيمات بجانب مطار القامشلي، وحراستهم خوفاً من أي هجوم محتمل عليهم، ثم نقلوا لاحقاً إلى مواقع المستوطنات (قرى الغمر– الجديدة)، بدأت عمليات الترحيل في خريف العام 1974 وانتهت جميع عمليات التوطين في ربيع العام 1975، ولتأمين بيئة استقرار مريحة للمستوطنين، تم تشييد مساكن من اللبن الطيني بأسقف خشبية ومعدنية لإنجازها بأقصر وقت ممكن. جدير ذكره أن المشروع قد خطط ونفذ تحت إشراف مباشر ومتابعة يومية من القيادة القطرية لحزب البعث، وكان قد تم تكليف كل من (محمد جابر بجبوج الأمين القطري المساعد، وعبدالله الأحمد عضو القيادة) بعمليات التطبيق والمتابعة وذلك بمساعدة السلطات المحلية في كل من محافظتي الرقة والحسكة. حتى استكملت كافة عمليات التوطين ومراحل توزيع الأراضي وفلاحتها بسلام وسلاسة في ربيع العام 1975.

وبصدد موقف الفلاحين المرحلين العرب، كان أغلب المعطيات والمعلومات يشير إلى أن أبناء القبائل العربية لم تكن ترغب بالمجئ وترك مواطنها الأصلية، إلا أن الحكومة أغرتهم حيناً بالمال والأرض الخصبة، وهددتهم حيناً آخر.

•الهيكل العام لمشروع الحزام العربي في غربي كوردستان
عدد القرى الاستيطانية

أ- المرحلة الأولى التجريبية : 1960-1959

وهي عشر قرى قديمة جلب إليها مستوطنون من محافظات: درعا، السويداء، حماه، إدلب، والقرى هي: (العريشة، المناجير، الأهراس، العامر، الأربعين، ليلان، أم الخير) في حوض الخابور. مستوطنة (قسرك) في منطقة درباسية، وأخيراً مستوطنتا (الزهيرية والأحمدية) على نهر دجلة.

ب- المرحلة الثانية الكبرى: 1975-1974

مشروع الحزام العربي، وهو جغرافياً بطول 275 كيلومتراً، وعمق 15-10 كيلومتراً، استوعب عدداً من العائلات المستقدمة والتي وثقت رقمياً بحوالي أربعة آلاف عائلة من ريف الرقة، بعدد سكان إجمالي يقدر بأربعين ألف نسمة، وبلغ مجموع القرى الكوردية المتضررة داخل مشروع الحزام 335 قرية، بتعداد سكاني تجاوز حينه مائة وخمسين ألف نسمة. شيدت مستوطنات (قرى الغمر)، وعددها ست وثلاثون، في هذا المشروع، موزعة على الشكل الآتي:

1 . منطقة ديريك- المالكية، تسع قرى من الشرق، أي من ضفاف نهر دجلة نحو الغرب وهي: (عين الخضراء، تل الصدق، الصحية، المصطفاوية، تل أعور، تل علو، الحمراء، توكل، معشوق).

2 . مستوطنات منطقة القامشلي، وهي إثنتا عشرة، موزعة من الشرق نحو الغرب، وهي: (المناذرة، الحرمون، القحطانية، حلوة، التنورية، أم الفرسان، هيمو، الثورة، الحاتمية، أم الربيع، بهيرة، الجابرية).

3 . مستوطنات منطقة سه ري كانيي- رأس العين عددها خمس عشرة، وهي: (تل تشرين، القنيطرة، القيروان، ظهر العرب، الأسدية، برقة، تل الحضارة، تل

الأرقـم، المتنبـي، أم عظـام، المثنـى، العناديـة، الراويـة، الدهـماء، هنادي).

تحملـت الدولـة- الحكومـة تكاليـف تشـييد هـذه القـرى وإجـمالي تكاليـف الترحيـل وإعـادة التوطـين. أمـا القـرى التـي شـيدت بنـاء عـلى الحقوق المكتسـبة من توزيـع أراضي أمـلاك الدولـة عـلى الفلاحـين العـرب، فقـد سـاهم الأهالي بأنفسـهم في عمليـة التوطـين الـذاتي، حيـث شـجعتهم الدولـة عـلى الاسـتقرار والتوطـين في الأرض الجديـدة، ويقـدر عـدد هـذه القـرى الصغـيرة والمتناثـرة بالمئـات ولا يسـع المجـال لذكـر جميعهـا بالتفصيـل(3).

• النتيجة

أ- مشروعـا الإحصـاء (1962م) والحـزام (1974م) ومـا ترابـط وتداخـل معهـما مـن خطـط، سـببا مـن الناحيـة الديموغرافيـة تجريـد حـوالي 25% من الكورد، سـكان محافظـة الحسـكة، مـن الحقـوق المدنيـة والانتفـاع بـالأرض، وتـم مقابـل ذلـك اسـتقدام فلاحـين عـرب بمـا يـوازي 20% مـن مجمـوع سـكان محافظـة الحسـكة، تـم جلبهـم مـن باقـي المحافظـات السـورية وخاصـة محافظتـي الرقـة ودير الـزور المجاورتـين. فأحدثـت هـذه السياسـة تغيـيراً ديموغرافيـاً بنيويـاً كبـيراً، تراجعـت بموجبـه نسـبة السـكان الكـورد في محافظـة الحسـكة ابـان أعـوام الخمسـينات مـن حـوالي 77% إلى حـوالي 56% بعـد العـام 2000م.

ب- مجمـوع الأراضي التـي منحـت للفلاحـين المسـتقدمين مـن خـارج المحافظـة في إطـار مـشروع (الحـزام العـربي) بلـغ حـوالي ثلاثـة ملايـين دونـم في محافظـة الحسـكة فقـط، أمـا مناطـق سـلوك وتـل أبيـض وعـين عيـسى فتـم الاسـتيلاء فيهـا عـلى مليونـين ومئتـي ألـف دونـم، كانـت عائـدة للحلـف القبـلي المـلي، وزعامتهـا عائلـة ابراهيـم باشـا، وقبائـل كورديـة أخـرى شرق نهـر الفـرات.

وكنتيجـة رئيسـة، حـرم الفلاحـون الكـورد مـن حـق اسـتثمار الأراضي في محيـط سـكنهم وبجـوار قراهـم، ومنـح حـق الامتـلاك والاسـتثمار للغـير لأسـباب سياسـية وآيديولوجيـة صرفـة، وهجـر السـكان الأصليـون هـذه المناطـق بحثـاً عـن لقمـة

العيش، وتوزعوا على المدن والمحافظات السورية الأخرى، وأفرغت مناطق سكن الكورد التاريخية شمال الجزيرة الفراتية من سكانها جزئياً.

إن مجموع المساحات التي شملها هذا المشروع السياسي الطويل الأمد تجاوز مساحة مملكة البحرين، العضو الأصيل في الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية، ويوازي مجموع الأراضي الزراعية في عدد من الدول العربية (قطر والكويت) على سبيل المقارنة.

وبذلك يمكن التأكيد على أن هذا المشروع بتأثيراته السكانية ومساحاته الشاسعة، يعد أكبر عملية تغيير ديمغرافي استيطاني سياسي في الشرق الأوسط.

المراجع

1 . فيليب خوري، أعيان المدن والقومية العربية "سياسة دمشق 1860ـ1920"، ترجمة: عفيف الرزاز. بيروت 1993.

2 . محمد طلب هلال. دراسة عن محافظة الحسكة من النواحي القومية، الاجتماعية، السياسية. تاريخ 12ـ 11ـ 1963 من الصفحة 51 حتى 53، كراس طبعته ووزعته الحكومة السورية. علماً أن محمد طلب هلال، شخصية أمنية وسياسية أصلها من حوران، كان شديد العداء للكورد ويطالب بترحيلهم وإبادتهم، على الطريقة التي أبادت فيها المنظمات الصهيونية الفلسطينيين، تدرج من ضابط أمن في المخابرات السورية في محافظة الحسكة إلى أن أصبح وزيراً للزراعة فنائباً لحافظ الأسد في حكومة العام 1970.

3 . للمزيد عن تفاصيل مشروع الحزام العربي والمساحات وجداول بأسماء الفلاحين المستقدمين، راجع كتاب: الحزام العربي في الجزيرة السورية (مقدمة، تنفيذ، نتائج)، برزان مجيدو (المهندس الزراعي عبدالصمد مجيد داود)، إصدارات حزب يكيتي الكردي في سوريا، القامشلي، 2003.

واقع الهجرة في كوردستان سوريا[1]
دراسة ميدانية لعينات من القرى والمدن الكوردية في محافظة الحسكة

أولاً: مقدمة

تُعتبر الهجرة من أكثر الظواهر التي تتكرر في حياة البشر. رغبة من الجميع في الحصول على الحياة الكريمة والعيش باحترام وحرية. لم تتوقف موجات الهجرة خلال التاريخ البشري الحديث سواء في الظروف الاعتيادية أو الاستثنائية، فقد كانت الجماعات أو الأفراد يتنقلون من مكان إلى آخر ومن بلد إلى آخر بحثاً عن ملاذ آمن أو عمل أفضل.

عادة ما تُرافق النزاعات والحروب موجاتُ هجرة كبيرة، سواء خوفاً من الموت بين رحى الأطراف المتحاربة، أو خوفاً من عمليات الانتقام، أو هرباً من الوضع الأمني والرغبة في الحفاظ على حياة الأطفال والنساء. ولعل موجات الهجرة خلال الحربين العالميتين شكلت بداية جديدة من آليات التعاطي مع المهاجرين، كما شكلت موجة النزوح الكبيرة للكورد في كوردستان العراق في بدايات التسعينيات من القرن الماضي انعطافاً جديداً بالنسبة للكورد، لما رافقه من تبنّ دولي للحقوق الكوردية سياسياً.

في كوردستان سوريا حتى ما قبل 2011م، كان المجتمع الكوردي يعاني من حالتين مركبتين للهجرة، الهجرة إلى الداخل السوري نتيجة مراسيم وقرارات

1. انجز هذا البحث الميداني من قبل فريق عمل وأعده شفان ابراهيم، واشرف عليه مدير مركز دراسات رووادو د.آزاد علي. نشر في موقع شبكة رووداو الاعلامية بتاريخ 5/6/2017 على الرابط:

http://www.rudaw.net/arabic/kurdistan/050620171

مجحفة بحق الكورد، بحثاً عن ما يسد رمقهم، هجرة ثانية كانت من الريف إلى المدينة ساهمت في توسيع نطاق الطبقة الوسطى، التي كان يمكن أن تكون لها مشاركة واسعة في اتخاذ القرارات السياسية. لكن بعد عسكرة الانتفاضة السورية، وتداخل الأحداث، فضلاً عن تقاطع وتعارض مصالح الدول والجهات والأطراف المهيمنة في الموضوع السوري، تغيرت موازين القوة وتشعبت المسارات، ورغبة من جهات عديدة في تفريغ المنطقة الكوردية، ساهمت هذه العوامل في المحصلة في تشجيع هجرة أعداد ضخمة من أبناء الشعب الكوردي من مناطقهم الأصلية، سواء في الأرياف أم المدن.

لكن نمطية الهجرة في كوردستان سوريا أخذت منحى آخر، حيث لا تزال المناطق الكوردية مقارنة بباقي مناطق سوريا، تعيش حالة أفضل نسبياً، على الرغم من ذلك فإن موجات الهجرة تكبر وتزداد لأسباب ستُذكر لاحقاً. لكن الغريب في الأمر هو حالة الاستسلام الكبيرة التي عاشها الفرد الكوردي خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة، وتقبله فكرة الاستغناء عن كل ما عمل لأجله طوال حياته في سبيل الظفر بخيمة في أحد مخيمات اللجوء، ما يعكس هشاشة عمل مختلف الجهات، خاصة السياسية في زرع فكرة التشبث بالأرض، وإن كانت المعطيات تشير إلى حالة اليأس وانعدام الثقة بمختلف الأطراف، لكن نوعية وكمية موجّهات الهجرة، خلقت جرحاً لن يندمل في المجتمع والوجدان الكورديين معاً.

ثانياً: منهج العمل

تُعد البحوث والدراسات السابقة من أهم شروط نجاح البحث العلمي المبني على قواعد متينة. خاصة إذا تم الاستناد عليها وتبيان مكامن الخلل والنجاح فيها، كذلك كشف نقاط القوة والضعف في الدراسات السابقة، محاولة تطويرها والبناء عليها، لكن وبسبب عدم توافر أبحاث سابقة تعنى بهذا الموضوع من جهة العمل الميداني، البحث والاستكشاف. فإن هذا البحث

سيكون استكشافياً ويعتمد على المنهج الكمي، عن طريق اعتماد الدراسات الميدانية واستبيانات المقابلات الشخصية، أخذ عينات عشوائية لتغطي الدراسة أكبر مساحة ممكنة، لإلقاء الضوء على الحالات المختلفة، بالتالي تأمين أكبر دقة ممكنة في تحديد نسب الهجرة وأسبابها. سواء من الريف أو المدينة ليتم بدلالتها الوصول إلى مؤشرات واضحة وواقعية. لقد تم تنظيم نتائج الإحصاء في جدول خاص، ورسم مجموعة من المخططات التي توضح النسب المئوية للهجرة والأسباب المؤدية إليها والدول الأكثر رغبة في الهجرة إليها.

ثالثاً: مصاعب العمل

ككل عمل لا بد أن يواجه جملة من المعضلات والصعوبات. كان في مقدمتها اشتراط الغالبية العظمى من المستهدفين عدم ذكر أسمائهم سواء في البحث أو لاحقاً. إضافة إلى طرحهم لسؤال مكرر، هل سنحصل على سلة غذائية كنتيجة لهذا الإحصاء؟ مما سبب لنا إحراجاً كبيراً.

الصعوبة الكبرى التي واجهت البحث كان في عدم توافر أي أبحاث سابقة، أو نتائج لدراسات قديمة عن الهجرة في المنطقة يُمكن الاعتماد عليها أو الإنطلاق منها، وعدم قدرتنا على الحصول على أي إحصائية رسمية لعدد السكان الكلي في المناطق المستهدفة في الاستبيان، لنقارن العدد الفعلي للسكان مع العدد المتبقي. عدا عن بطء العمل لأسباب مُختلفة.

رابعاً: دراسة وتحليل الاستبيان

شملت الدراسة الميدانية 100 عينة – عائلة، أخذت بشكل عشوائي في مناطق ريف قامشلو (منطقة سنجق)، وفي مدينة قامشلو (حي الهلالية) في غربها، (حي العنترية) في شرقها، وكذلك عائلات من مدينة عامودا.

تم الاستنتاج الأولي بأنه يمكن تقسيم الهجرات إلى ثلاث شرائح زمنية:

• شريحة هاجرت نتيجة فقدان الأمن في بداية الأحداث السورية من الداخل السوري.

• شريحة هاجرت نتيجة توتر الأوضاع والخلافات السياسية وعدم بلورة مشروع كوردي جامع يوفر الأمان ويؤمن بعض الحقوق الكوردية في المناطق الكوردية.

• شريحة هاجرت بشكل رئيس نتيجة تطبيق قانون التجنيد الإجباري (واجب الحماية الذاتية).

وكنتيجة رئيسة ثانية تبين أن الهجرات متنوعة ومتباينة بحسب نوعيات المهاجرين أنفسهم، بمعنى حسب طبيعة مشاكلهم وبالتالي دوافع الهجرة.

لقد عانت المناطق الكوردية قبل بدايات الأحداث والصراعات الراهنة في سوريا من حالات عدم استقرار في التركيبة السكانية، نتيجة حالات الهجرة المستمرة إلى الداخل السوري أو إلى أوروبا، بسبب الضغوطات والمراسيم والقرارات المجحفة بحق الكورد وتضييق الخناق بشكل مستمر على المشاريع الاقتصادية وموارد العيش والأرزاق التي كان الكورد يعتمدون عليها، خاصة أبناء الريف كنتيجة مباشرة لسوء الموارد الزراعية وشح المواسم. مع ذلك لم تكن الهجرة بذات المقياس أو المؤشرات التي آل إليها وضع الهجرة الكوردية بعد العام 2011م. علماً أنه مع بدايات التظاهرات في المناطق الكوردية، ونتيجة تدهور الأوضاع الأمنية والمعيشية في الداخل السوري، خاصة في مناطق درعا وريف دمشق وحمص، فقد بدأت الهجرة العكسية للكورد من مختلف المحافظات السورية إلى المناطق الكوردية. بغية الاستقرار فيها والعمل على إقامة مشاريع صغيرة أو تأمين عمل يلبي حاجاتهم. لقد ساد الاعتقاد لدى الغالبية أن الوضع الأمني والعسكري والسياسي سينتهي خلال أشهر قليلة. لكن مع تطور الأوضاع نحو الأسوأ وانحسار المظاهرات وتزايد عسكرة الثورة السورية، توزعت مناطق النفوذ في الساحة الكوردية، رافق ذلك موجة من الغلاء وفقدان مقومات المعيشة بأبسط حالاتها، كلها دفعت بالتفكير بالهجرة

بشكل جماعي، مع فتح الحدود بين غرب وجنوب كوردستان واستقبال إقليم كوردستان العراق لكل من يرغب بالعمل، ولجوء العساكر الكورد المنشقين من الجيش السوري إلى إقليم كوردستان، بدأت وجهة جديدة للهجرة الكوردية نحو الإقليم وفتحت بوابة كبيرة لتلقي موجات الهجرة، سواء بسبب رغبة الأهالي في زيارة أبنائهم المنشقين، أو الرغبة في العمل، أو اللجوء إلى الإقليم والإقامة فيه. هذه المرة لم تقتصر الهجرة على أبناء الريف وحدهم، بل شملت الجميع بمن فيهم العائدين من هجرتهم في مناطق الداخل السوري حتى أصبحت الهجرة ثلاثية المصدر: أبناء الريف، وأبناء المدينة، والمجموعات التي كانت مهاجرة سابقاً إلى الداخل السوري طلباً للعمل. فتراكبت موجة الهجرة من ثلاث مصادر نحو إقليم كوردستان، ونسبة أخرى إلى تركيا.

خامساً: موجات الهجرة اعتماداً على الأسباب الاقتصادية والمعيشية

a) موجة الهجرة الأولى كانت في فترة فقدان المواد والمستلزمات الغذائية والغاز ومختلف مصادر الطاقة والشح في المياه والمحروقات، هذه الأخيرة أثرت بشكل مباشر وكبير على أغلب الأعمال اليدوية والصناعية والزراعية واليومية والمهنية الحرة، ما دفع بآلاف من العمال والفلاحين إلى الهجرة لانقطاع مصادر رزقهم بشكل مباشر.

b) الدفعة الثانية من المهاجرين كانوا من الفئة المثقفة وحملة الشهادات الجامعية، لتدني قيمة معاشاتهم، تدهور مستوى معيشتهم وغياب فرص العمل لخريجي الجامعات والمعاهد الجدد. أظهر تحليل نتائج الاستبيان أن النسبة الأكبر من هذه الفئة كانوا من منطقتي عامودا والريف جنوب شرق قامشلو، ما أثر بشكل مباشر على التركيبة الهرمية لفئة الشباب في الوسط المجتمعي وأثر بشكل مباشر على التوازن ضمن الطبقة الوسطى. في حين كانت طبقة الذين لا يحملون شهادات أو حملة الشهادات ما دون الجامعية أكبر الأعداد من حيّ الهلالية غرب قامشلو والعنترية شرق قامشلو، كحيين

جدول رقم (1)

يوضح عدد الأفراد المهاجرين من العدد الكلي الذين تم استهدافهم، تفاصيل عن أسباب الهجرة، أعمار المهاجرين، دول اللجوء

رقم تسلسلي	إسم العائلة	المكان	عدد الأفراد	عدد المهاجرين	ذكر	أنثى	سبب الهجرة	مكان الهجرة	المستوى التعليمي	العمر	نسبة
1	آ ت	عامودا	8	5	4	1	1جيش 2عمل 1زواج	3كوردستان 1تركيا 1المانيا	3جامعي 1معهد 1بكلوريا	25-22-31-19-30	
2	د تو	عامودا	4	لا يوجد	-	-	اعمار صغيرة		صف تاسع صف سابع	15-13	
3	د اب	عامودا	3	لا يوجد	-	-	اعمار صغيرة		صف ثالث	9	
4	ص د	عامودا	5	1	ذكر	-	عمل	كوردستان	معهد	27	
5	شي ز	عامودا	4	1	-	انثى	زواج	المانيا	جامعي	20	
6	ش اب	عامودا	6	3	2	1	جيش+عمل+ دراسة	1كوردستان 2المانيا	1جامعي 1بكلوريا 1سنة اولى جامعة	29+33+19	
7	عبدالوها ب	عامودا	9	7	6	1	4عمل+1دراسة +1جيش	3كوردستان 1تركيا 2المانيا	2جامعي-2متعلم +سنة أولى جامعة+معهد	29+30+22+25+ 23+19+37	
8	مج..بش	عامودا	6	4	3	1	جيش+وضع أمني+زواج	4 النمسا	4جامعي	25+33+29+35	
9	ع هس	عامودا	9	4	4	-	عمل	2كوردستان 2المانيا	4جامعي	29+32+33+38	
10	م.ع..بش	عامودا	7	5	3	2	زواج/وضع أمني	2كوردستان، 1تركيا،2 النمسا	5جامعي	25+30+33+35+ 39	
11	علي..ا	ريف	9	7	5	2	3جيش+2عمل +2زواج	كوردستان1 تركيا2 4المانيا	3جامعي،2معهد، 2بكلوريا	26+29+22+24+ 30+35	
12	ع اس	ريف	4	لايوجد	-	-	-		ثانوية واعدادي	12+15+16+9	
13	م اس	ريف	7	لايوجد	-	-	-		جامعي عدد4+1بكلوريا	18+19+22+25+ 26+32	
14	ر..أس	ريف	5	لايوجد	-	-	-		2طلاب ثانوي+1جامعي +1مرحلة ابتدائية	20+16+22+17+ 9	
15	محمود ص	ريف	9	4	4	-	3عمل+1جيش ووضع امني	كوردستان، 2المانيا، نمسا	4جامعي	26+28+30+33	
16	احمد خ	ريف	7	5	4	1	3وضع امني+2زواج	2كوردستان 3المانيا	5جامعي	26+28+29+33+ 35	
17	خالد ي	=	4	لا يوجد	-	-	-		مرحلة ثانوية اعدادية..	13+15+16+8	
18	ع اب	=	4	2	-	2	وضع امني/زواج	بلجيكا2	جامعيات	19+21	
19	ا ب اب	=	6	1	1	-	لم شمل	المانيا	قاصر	13	
20	عزيز اب	=	3	1	1	-	=	المانيا	=	9	
21	ع شمد	=	6	4	3	1	جيش ووضع امني+1زواج	كوردستان2 المانيا1 نمسا 1	2طلاب جامعة+1جامعي +1اعدادية	19+27+21+17	

22	؟ شمد	=	4	1	1	–	جيش	كوردستان	جامعي	21	
23	ا شمد	=	5	1	1	–	دراسة	تركيا	جامعي	19	
24	؟شم	=	9	1	1	–	زواج	هولندا	جامعية	25	
25	و شمن	=	7	5	2	2	وضع امني+عمل+زواج	1هولندا، 3المانيا	3جامعي+طالبة	17+26+22+19	
26	م غ ا	=	8	6	1	5	وضع امني+زواج	2كوردستان، 1فرنسا،2المانيا	متعلم+3جامعي+طالب ثانية+جامعية	+22+27+33+39 24+18	
27	اكرم غد	=	4	1	1	–	لم شمل	المانيا	قاصر	11	
28	اكرم دح	=	6	2	2	–	جيش ودراسة	2كوردستان	جامعي+طالب جامعي	20+26	
29	ع اب	=	9	5	5	–	جيش وضع امني	5كوردستان	5جامعي	+33+29+27+27 40+35	
30	ش ت	=	7	4	4	–	جيش	4كوردستان	3جامعي+1معهد	30+29+24+22	
31	مصطفى اب		6	4	4	–	جيش+ وضع امني	4كورستان	2جامعي+1متعلم +1أمي	44+39+29+25	
32	فنر اس	=	4	2	2	–	جيش+دراسة	1 كوردستان. 3 النمسا	1جامعي +شهادة بكلوريا	19+25	
33	فرحان اب	=	6	1	1	–	جيش	كوردستان	متعلم	22	
34	سعيد حس	=	4	1	1	–	جيش ووضع امني	1 كوردستان تركيا 1	جامعي	25	
35	علي.اب	=	8	2	2	–	عمل	السويد 1 كوردستان 1	جامعي+شهادة تاسع	37+33	
36	نواف.ام	=	7	2	2	–	عمل	المانيا 2	معهد+بكلوريا	39+35	
37	ممو اح	=	6	3	3	–	جيش وضع امني	كوردستان المانيا 2	1جامعي+1بكلوريا +معهد	22+27+30	
38	فيلزور يو	=	5	2	2	–	جيش	كوردستان 2	جامعي+معهد	22+27	
39	فرهاد اح	=	6	4	3	1	وضع امني+زواج	1 المانيا 2 النمسا	جامعي	33+30+26+25	
40	ابو برازني	=	8	4	4	–	جيش+عمل+امني	1 النمسا 2المانيا تركيا1	جامعي2+بكلوريا1 +متعلم1	20+25+30+35	
41	شريف	=	8	5	4	1	جيش4 زواج 1	كوردستان2 تركيا1 نروج1	معهد, جامعة, بكلوريا2	19–24–27–29	
42	جواد	=	7	2	2	–	جيش	كوردستان2	جامعي	29+25	
43	محسن	=	7	3	3	–	وضع امني+جيش	كوردستان2نمسا	جامعي2+بكلوريا	23+35+39	
44	فرحان عب	=	5	2	2	–	جيش وعمل	كوردستان2	جامعي	26+33	
45	فاز كل	=	5	2	2	–	جيش	كوردستان2	جامعي+بكلوريا	19+22	
46	جلود ج	=	6	3	2	1	جيش ودراسة	كوردستان تركيا	جامعي+بكلوريا+ دراسات	29+18+23	
47	سيد نوري	=	9	6	6	–	جيش+وضع امني+عمل+زواج	كوردستان3 تركيا1 نمسا1 المانيا1	جامعي2+بكلوريات2 +تاسع2	+25+30+35+39 18+20	
48	اوب مج	=	6	1	1	–	دراسة	تركيا	جامعي	19	
49	خل مج	=	4	1	1	–	دراسة	المانيا	ثانوية	18	
50	سمان مج	=	5	1	1	–	دراسة	كوردستان	ثانوية	20	
51	ك ش	=	8	2	2	–	عمل	كوردستان2	بكلوريا+جامعي	31+36	
52	ا شم	=	7	3	1	2	زواج2 جيش 1	كوردستان2 المانيا 1	اعدادية، معهد، جامعي	29.33 .21	
53	س ح ر	=	11	7	2	5	1جيش 1عمل، 5زواج	كوردستان2+ المانيا2+ نمسا3	5اعدادية، 1بكلوريا، 1جامعي	–19–33–28–25 30–38–22	
54	ع حج	=	6	3	1	2	1جيش 2زواج	3كوردستان	بكلوريا+اعدادية	27،22،19	

55	م ا	=	4	1	1	–	لم شمل	المانيا	طالب ابتدائي	11	
56	ع ا	=	5	1	1	–	لم شمل	المانيا	طالب ابتدائي	9	
57	ع ح	=	9	3	3	–	جيش وضع امني	2كوردستان 1تركيا	ثانوية+ جامعي	20-24-27	
58	ع ح	=	11	7	3	4	جيش-وضع امني - زواج	3كوردستان - 4المانيا	جامعي	25-23-20-27-30-33-35	
59	ل ي	=	6	3	2	1	جيش-دراسة	المانيا	طلاب جامعة	20-22-25	
60	ي ي	=	7	3	1	2	جيش زواج	كوردستان2 المانيا1	جامعي	27-30-25	
61	س م	عنترية	7	6	3	3	الفقر	كوردستان	ابتدائيات وأميين	18 وما دون	
62	ع م	=	8	8	4	4	للعمل	5كوردستان و3اوربا	أميين	30 وما دون	
63	ا م	=	6	6	4	2	ضغوط مختلفة	اوربا	3جامعيين 3متعلمين	28 وما دون	
64	ا خ	=	12	8	4	4	ضغوط مختلفة	اوربا+كوردستان	بكلوريا2 اميي	25-30	
65	م ن	=	14	12	4	8	ضغوط مختلفة	اوربا	متعلمين	40 وما دون	
66	ص ع	=	17	17	9	8	للعمل	كوردستان+ اوربا	متعلمين واميين	40 وما دون	
67	م ع	=	15	13	7	8	عمل وضغوط مختلفة	كوردستان	متعلمين واميين	35 وما دون	
68	م ر	=	7	7	4	3	عمل	كوردستان	جامعيين وبكلوريا واميين	40 وما دون	
69	ح ع	=	14	7	4	3	عمل	كوردستان	اميين	45 وما دون	
70	ش أ	=	11	6	6	5	عمل	كوردستان	اميين	45 وما دون	
71	ا م	=	14	10	9	1	ضغوط مختلفة	كوردستان واوربا	متعلمين جامعيين اميين	40 وما دون	
72	م ع	=	9	9	5	4	عمل وضغوط	كوردستان اوربا	متعلمين وبكلوريات	30-40	
73	ب ع	=	8	8	4	4	للعمل	كوردستان واوربا	متعلمين	40 وما دون	
74	ش ح	=	16	6	2	4	عمل وضغوط	كوردستان واوربا	متعلمين	40 وما دون	
75	ح ح	=	16	15	9	6	ضغوط الحياة	كوردستان واوربا	متعلمين	40 وما دون	
76	ص ح	=	19	19	10	9	ضغوط مختلفة	كوردستان	متعلمين	40/35 وما فوق	
77	ص ر	=	8	7	3	4	ضغوط العيش	كوردستان اوربا	اميين	35 وما دون	
78	س ر	=	10	4	2	2	عمل	اوربا	اميين	25 وما دون	
79	ع ح	=	15	5	3	2	ضغوط العمل	كوردستان اوربا	اميين	35 وما دون	
80	م د	=	7	5	4	1	فقر وجوع	كوردستان	اميين	38 وما دون	
81	ع ب	هلالية	4	1	1	–	لم شمل	المانيا	صف خامس	11	
82	م خ	=	3	1	1	–	لم شمل	المانيا	صف سابع	13	
83	م خ	=	5	1	1	–	لم شمل	المانيا	صف تاسع	15	
84	خ خ	=	7	4	3	1	فقر وزواج	2كوردستان 2المانيا	بكلوريات وتاسع	22-25-30-33	
85	ج س	=	5	2	2	–	جيش ودراسة	كوردستان	جامعي وطالب جامعي	21-27	
86	ف س	=	7	2	–	2	زواج	كوردستان	جامعيات	25-29	
87	ح ر	=	7	5	4	1	فقر وزواج	كوردستان	اميين وبكلوريات	18-22-25-29-33	
89	ب ب	=	13	9	5	4	فقر وضغوط وظروف امنية	3كوردستان 3،المانيا، 2تركيا، 1نمسا	2بكلوريا،3جامعة، 4متعلمين	22/22-25-30-33-37-40-44-48	
90	ش ش	=	8	4	4	–	فقر	كوردستان	بكلوريات وتواسع	25/30/33/39	
91	ا ش	=	7	3	1	2	فقر وزواج	1كوردستان 2المانيا	تاسع	19/22/28	
92	ب د	=	12	5	5	–	فقر وجيش	كوردستان، 2المانيا	جامعي1، 2بكلوريا، 2اميين	20/26/30/35/40	

93	ر ر	=	5	1	1	–	دراسة	كوردستان	جامعي	22	
94	ع ا	=	6	4	4	–	فقر	كوردستان	قبل جامعي	37/33/30/25	
95	د ز	=	7	3	3	–	فقر	كوردستان	معاهد	39/35/30	
96	ك ب	=	10	6	4	2	فقر وضغوطات	كوردستان، 3المانيا، 1نمسا	معاهد وجامعات وبكلوريات	33/30/28/26/22 36/	
97	ط ع	=	7	4	1	3	فقر وزواج	كوردستان2 بلجيكا 2	جامعي1, معهد1, بكلوريا2	37/33/30/25	
98	د د	=	11	3	3	–	وضعامني وجيش	كوردستان	جامعي3	30/72/25	
99	ل ش	=	4	1	1	–	دراسية	تركيا	جامعي	22	
100	ز ب	=	6	4	1	3	فقر وزواج	كوردستان والمانيا	جامعي ومعهد	32/29/45/21	

فقيريـن. علـماً أن قسـماً مـن السـكان المتبقـين في هذيـن الحيـين هـم أعضـاء في جهـاز الآسـايش أو قـوات حمايـة الشـعب أو موظفـون لـدى الإدارة الذاتيـة، فقـد توفـر لهـم بذلـك مصـدر العيـش.

سادساً: التأثيرات المتبادلة لعملية الهجرة:

1. انعـدام التـوازن بـين الأجيـال بسـبب الفـراغ الحاصـل لـدى فئـة الشـباب في المنطقـة حيـث أن أكـثر مـن نصـف المهاجريـن هـم مـن فئـة الشـباب مـا خلـق جيلـين متباعديـن، فئـة الكبـار والصغـار فقـط، في ظـل غيـاب غالبيـة شريحـة الشـباب.

2. إنهيـار الطبقـة الوسـطى بسـبب هجـرة الشـباب والمثقفـين والجامعيـين والموظفـين، المهندسـين والأطبـاء.

3. انكـماش الطبقـة البرجوازيـة أو الأغنيـاء الكـورد، نتيجـة انحسـار الأعـمال والتجـارة، واحتـكار مـا تبقـى منهـا بيـد فئـات صاعـدة لم تؤسـس لا لنظـام اقتصادي يمكـن أن يعيـل الشـعب ولا لإفسـاح المجـال أمـام أي فئـات أخـرى للعمـل ضمـن جماعـات اقتصاديـة مغلقـة، أو فتـح مشـاريع اقتصاديـة يمكـن أن تـدر عـلى المنطقة أرباحـاً وتسـاهم في الإبقـاء عـلى الأجيـال والأهـالي والمسـاهمة في منـع الهجـرة.

كان يمكـن للمنطقـة الكورديـة أن تنتعـش عـبر الاسـتفادة مـن الخزيـن البـشري الهائـل وخاصـة فئـة الشـباب المسـتعد للعمـل في سـبيل خدمـة المجتمـع. لكـن عـدم الوقـوف بجديـة عـلى مطالـب الأهـالي وعـدم تأمـين حاجاتهـم الناتجـة عـن موجـات الغـلاء المتزايـدة واحتـكار فئـات معينـة لأغلـب المـوارد، كذلـك تكـرار عمليـات التفجـير والخطـف. كلهـا عوامـل سـببت الرعـب والقلـق، كـما زاد الأمـر سـوءاً وتعقيـداً الاشـتباكات المتكـررة بـين قـوات حمايـة الشـعب والآسـايش مـع الجهـات الأخـرى.

هـذه الظـروف وفـرت الأرضيـة وهيـأت العوامـل النفسـية للأهالي لقبـول العيش في مخيـمات اللجـوء في كل مـن تركيـا وكورسـتان، أو الهجـرة في قـوارب المـوت إلى أوربـا، لقـد فـروا مـن واقـع الحيـاة والمعيشـة القاسـية في موطنهـم الأصـلي.

- **سابعاً: تلخيص وتمثيل النتائج بيانياً**

المخطط رقم (1) عدد الأسر المستهدفة ونسبة الذكور إلى الإناث المهاجرين

في هـذا المخطـط يبـدو واضحـاً أنـه مـن أصـل 822 شـخصاً، هـم مجمـوع أفـراد الأسر المئـة التـي تمـت دراسـتها، هاجـر 414 شـخصاً، منهـم 281 ذكـراً و 133 أنثـى. بالتـالي نسـبة الهجـرة تعـادل حـوالي 50%.

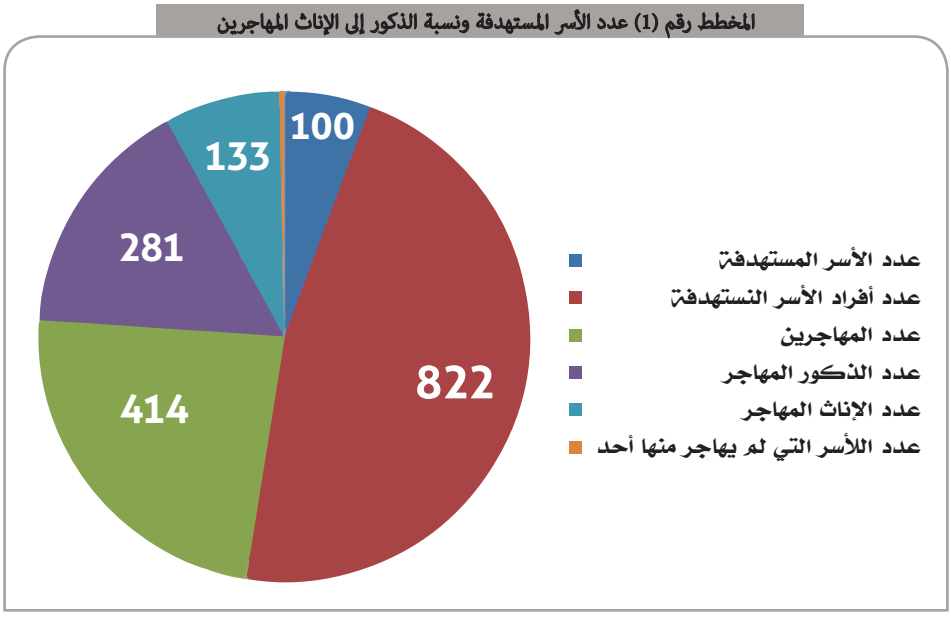

المخطط رقم (2) أجمالي عدد الأسر المهاجرة وغير المهاجرة

من مجموع الأسر الـ100 التي تم استهدافها، عانت 94 أسرة من موضوع الهجرة وهاجر أفرادها بنسب وأعداد مختلفة، مقابل ست أسر فقط لم يُهاجر منها أحد.

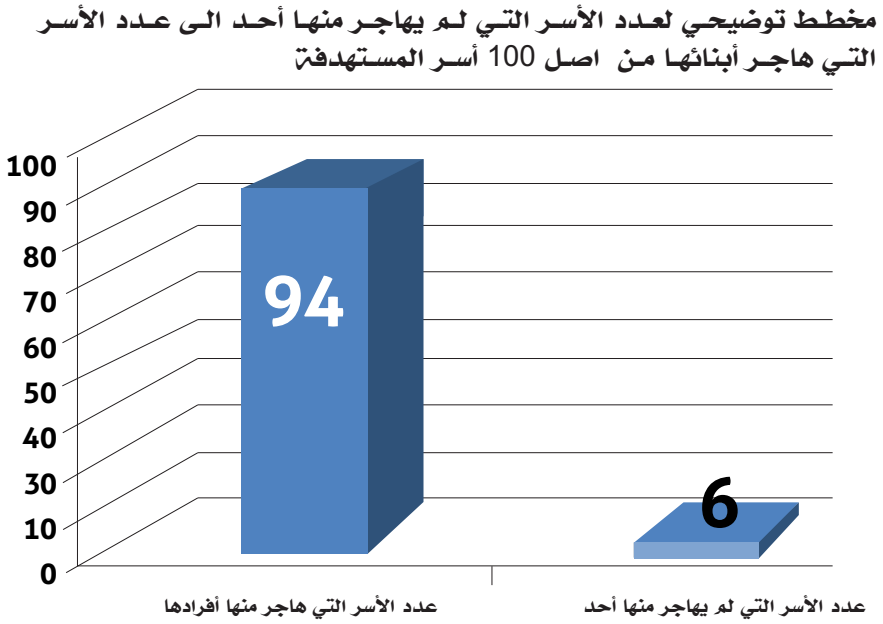

المخطط رقم (3) يبين أسباب الهجرة

يبين تحليل الأرقام أن 49% من المهاجرين هاجروا بسبب الفقر والبحث عن تأمين مستقبلهم، و39% من المهاجرين هاجروا بسبب الخشية من الوضع الأمني، وهرباً من التجنيد الإجباري، خاصة في ظل تعدد الأطراف التي ترغب بكسب الشباب إلى صفوفها. أما 9% وغالبيتهم من الإناث فقد هاجروا للزواج من شاب يعيش في الخارج، وهاجر 2% فقط لإتمام الدراسة، وهاجر 1% لأسباب غير واضحة.

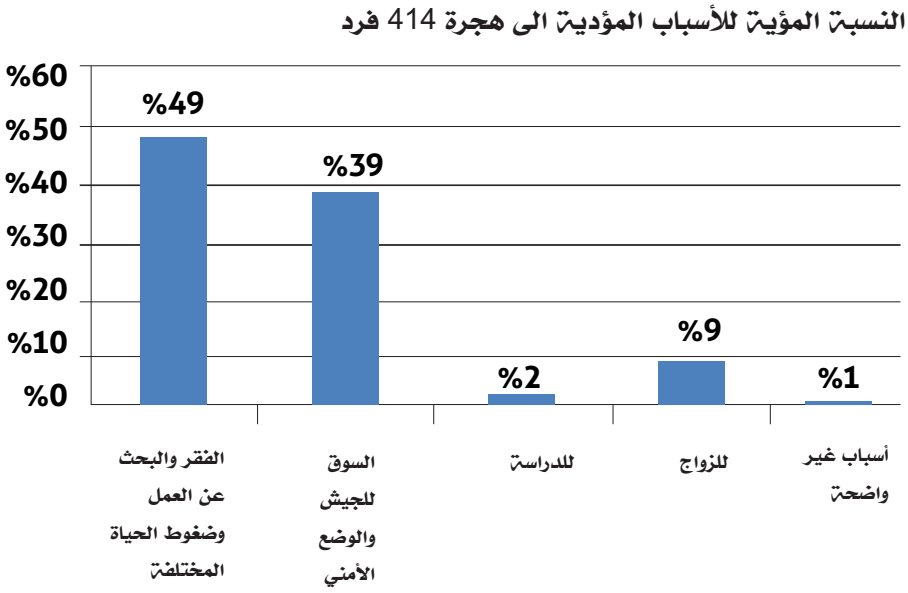

المخطط رقم (4) لأبرز مناطق اللجوء

تتصدر كوردستان كافة المناطق والدول التي يؤمها اللاجئ الكوردي من سوريا حيث لجأ إليها 246 مُهاجراً في مقابل 156 مُهاجراً إلى عموم الدول الأوروبية، وجاءت تركيا بـ12 شخصاً فقط في المرتبة الأخيرة.

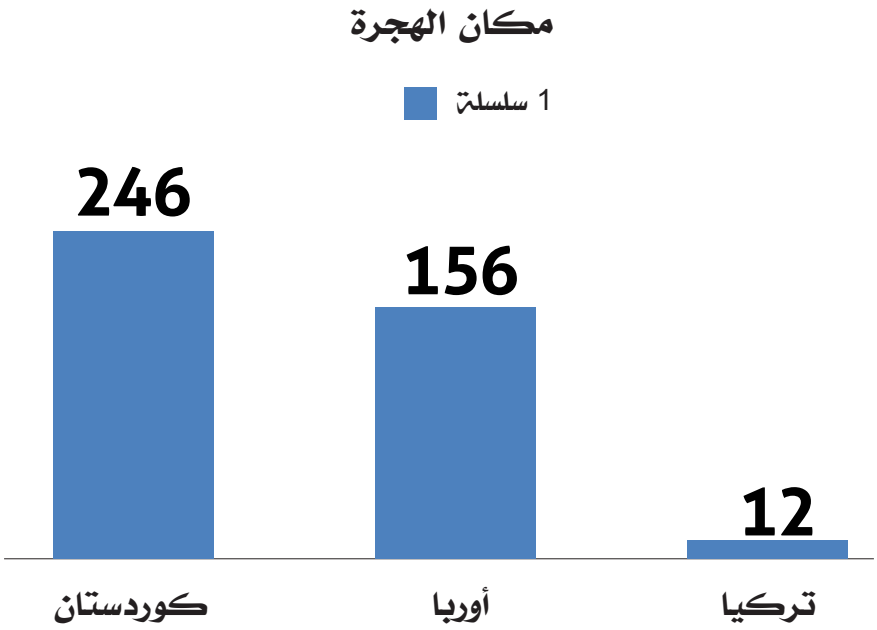

المخطط رقم (5) يبين الهرم العمري للمهاجرين

من خلال الاستبيان يتضح أن الغالبية العظمى من المهاجرين هم من شريحة الشباب، حيث بلغ عدد المهاجرين ممن تتراوح أعمارهم ما بين (20 إلى30) سنة 220 مُهاجراً. في حين بلغ عدد من هم دون سن العشرين 70 مُهاجراً، و70 مُهاجراً ممن جاوز عمرهم الثلاثين عاماً، وإذا ما تم احتساب العمر الشبابي حتى سن الأربعين فإن الغالبية المطلقة من المهاجرين هم ممن تتراوح أعمارهم ما بين العشرين إلى ما فوق الثلاثين عاماً، لذلك يمكن وصف هجرة الكورد الراهنة بأنها هجرة لجيل الشباب بامتياز.

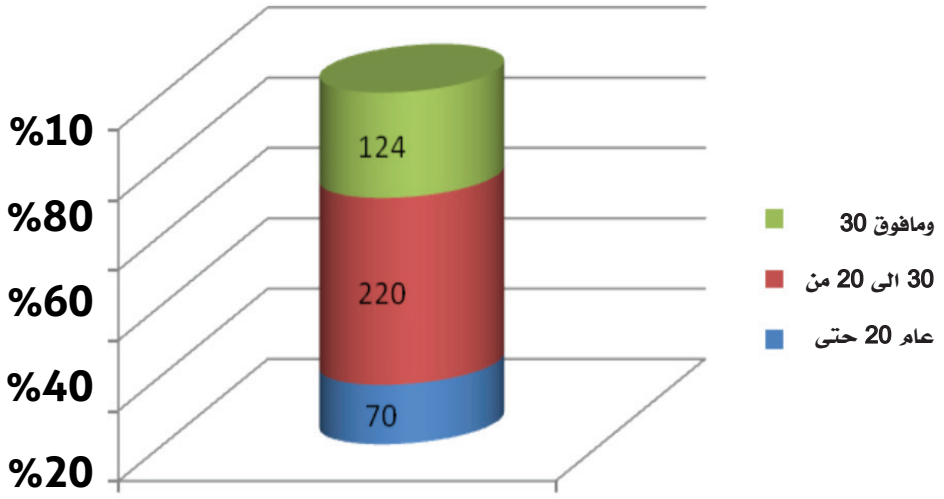

المخطط رقم (6) يبين التحصيل العلمي للمهاجرين

من أصل 414 شخصاً مهاجراً يمكن تصنيف 61 شخصاً ضمن خانة غير المتعلمين (الأميين)، 183 مهاجراً ممن يتراوح تحصيلهم العلمي ما بين شهادة الثانوية العامة ومن يُحتسبون ضمن صفوف المتعلمين قراءة وكتابة، في حين هاجر 170 شخصاً يحملون شهادات جامعية أو معاهد. ما يوضح حجم الفراغ الحاصل في الجانب المهني والتعليمي والثقافي. وحجم الاحتياج للشهادات الجامعية في المناطق الكوردية بعد موجة الهجرة.

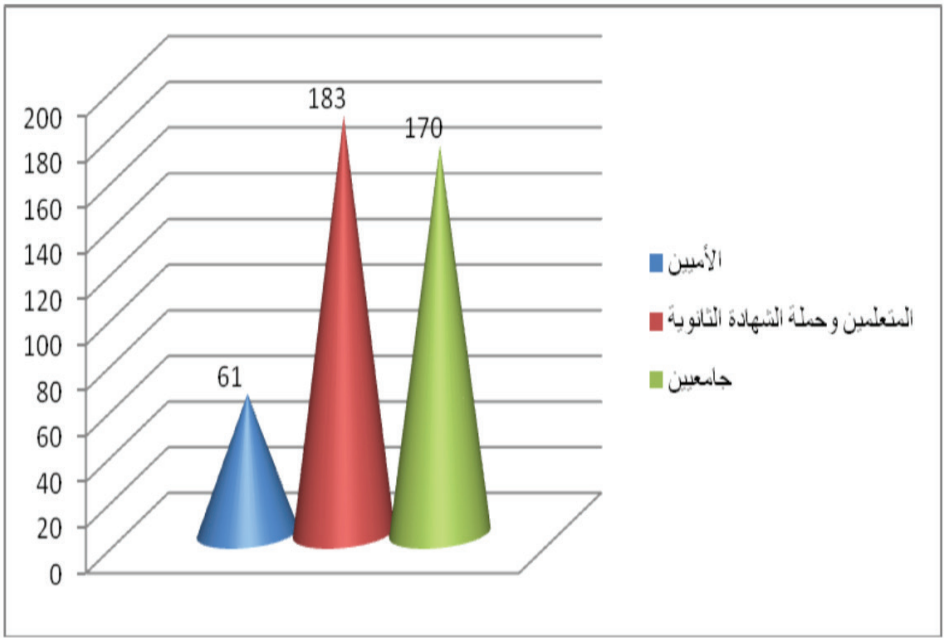

ثامناً: نتائج عامة على ضوء الاستبيان

• على الرغم من عدم تعرض المنطقة إلى أي قصف أو سقوط براميل متفجرة كما في معظم المناطق السورية الأخرى. لم تقلّ نسبة الهجرة في المناطق الكوردية عن أغلب المحافظات والمناطق السورية الأخرى، بل كانت في بعض المناطق وخلال بعض الفترات أكبر.

• تركزت موجات الهجرة الجماعية الكبيرة في الفترة الواقعة بين نهايات العام 2011م وحتى أواسط العام 2013م، حيث انعدمت السلع وافتقدت مقومات الحياة خلال هذه الفترة، كما انهار الوضع الأمني، وتكررت الهجمات الإرهابية وتصاعدت التفجيرات.

• ساهمت إطالة أمد النزاع والحرب في سوريا ومحاولات الجماعات المتطرفة دخول المنطقة الكوردية في خلق حالة خوف شديدة لدى الأهالي ما دفعهم إلى تبني خيار الهجرة.

• كان تشكيل جهاز قوات الاسايش وقوات حماية الشعب التابعة لحزب الاتحاد الديمقراطي ولاحقاً قوات سوريا الديمقراطية، بمثابة المخرج والمنقذ لمؤيديهم أو لكل من انتسب إليهم، أو للموظفين في الإدارة الذاتية. حيث ساعد الوارد المالي للمنتسبين لهذه الجهات في بقاء عائلاتهم داخل المناطق الكوردية، خاصة لشريحة الفقراء والأميين والمحتاجين.

• بدأت موجة الهجرة لشريحة الشباب تزداد وتتصاعد خلال فترة تطبيق قانون التجنيد الإلزامي الذي يُسمى لدى الإدارة الذاتية بواجب الحماية الذاتية.

• انعكست زيادة هجرة شريحة الشباب خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة، سلباً على الواقع الأسري في المنطقة، وازدادت رغبة الفتيات بالاقتران بالشباب المقيمين في الخارج، بنسبة أكبر من اللواتي يفضلن الزواج والبقاء في الداخل.

علماً أنه في السنوات التي سبقت الحرب في سوريا، كانت الغالبية العظمى من الفتيات ترغب بالبقاء إلى جوار الأهل والأصدقاء والزواج ضمن مناطقهن. لكن فقدان فرص عمل الشباب، وزيادة الضغوطات الأمنية والعسكرية والاقتصادية على مختلف قطاعات وشرائح المجتمع الكوردي، وفقدان فرص التعليم وصعوبة إتمام التحصيل العلمي في مرحلة التعليم العالي، وكذلك تأثر الفتيات اللواتي أتممن تحصيلهن الجامعي خلال السنوات السبع الماضية بواقع المجتمع الجديد، إذ أن أغلبهن كن ضمن أعمار (15/16) حين بدأت المظاهرات في عموم سوريا، أدى في المحصلة إلى تغيير جذري في نمطية التفكير بالمستقبل وكيفية الاقتران والزواج. فغالبية الفتيات ترغب الاقتران بشخص يقيم في الخارج، فهذا الزواج هو المخرج من حالات الفقر والكآبة، إضافة إلى احتمال مساعدة الأهل بعد الوصول إلى الخارج، عن طريق توفير مبلغ من المال وإرساله، حتى لو كان مبلغاً زهيداً.

- هاجرت الغالبية العظمى من الشباب قبل الزواج، لكنهم احتفظوا برغبتهم في الاقتران بالبنات المقيمات في الداخل.
- لم تقدم الأطراف السياسية للشباب ما يساهم في صمودهم للبقاء والثبات على أرض كوردستان سوريا، ولم تتمكن من وضع السياسة في خدمة المجتمع وخاصة متطلبات ثباته على الأرض.
- ساهم عدم قدرة المجلس الوطني الكوردي على تقديم المعونات والمساعدات للأهالي في تصاعد الهجرة، لكن المجلس كان يتهم طرفاً سياسياً حاكماً بعرقلة جهوده الإغاثية والاجتماعية (بحسب بيانات وتصاريح إعلامية متكررة).
- تطبيق الإدارة الذاتية لمناهج تربوية جديدة، تفتقد إلى أي اعتراف رسمي سواء من قبل الحكومة المركزية السورية، أو جهات دولية، فضلاً عن معارضة المجلس الكوردي تطبيقها على اعتبارها تؤثر سلباً على مستقبل الطلبة الكورد

(وفـق رؤيـة المجلـس الكـوردي)، ودفعـت زيـادة الخلافـات بـين الإدارة الذاتيـة ومؤسسـات التربيـة المحليـة العائـدة للحكومـة السـورية المزيـد مـن الأسر إلى الهجـرة لتأمـين مسـتقبل تعليمـي أفضـل لأبنائهـا.

• تصـدر عامـلا الفقـر والهـروب مـن الضغوطـات المعيشـية مـن جهـة، الخـوف مـن التجنيـد ومـن الوضـع الأمنـي مـن جهـة ثانيـة، 88% مـن الأسـباب المؤديـة للهجـرة، تلتهـا نسـبة 9% مـن المهاجريـن طلبـاً للـزواج من خارج كوردسـتان سـوريا، تـدني نسـبة الشـباب الراغـب بالهجـرة لإتمـام الدراسـة، حيـث لم تتعـد نسـبة هـؤلاء 2% فقـط، كـما بلغـت نسـبة الأسر التـي لم يهاجـر مـن أفرادهـا أحـد 6% فقـط. فمـن مجمـوع 100 أسرة ظلـت سـت أسر فقـط كاملـة العـدد في الداخـل ولم يهاجـر منهـا أحـد، في حـين أن 94 أسرة هاجـر عـدد مـن أفرادهـا بنسـب متفاوتـة، حسـب مـا هـو موضـح في الجـداول أعـلاه.

• كان كوردسـتان العـراق وجهـة الهجـرة الأولى والملـاذ الآمـن للغالبيـة العظمـى مـن المهاجريـن، ثـم في المرتبـة الثانيـة أوروبـا، فتركيـا بالمرتبـة الثالثـة. بحسـب مـؤشرات هـذه العينـة التـي تبـين الهجـرة الكورديـة مـن ريـف ومـدن محافظـة الحسـكة، في حـين تختلـف النسـب ووجهـة الهجـرة بدرجاتهـا وأولوياتهـا في مناطـق كوبـاني، البـاب، عفريـن.

• الشريحـة الأكـثر هجـرة كانـت شريحـة الشـباب بـين (20-30) سـنة حيـث شـكلت أكـثر مـن نصـف عـدد المهاجريـن.

• كان حوالي نصف المهاجرين من الجامعيين وحملة شهادات المعاهد.

تاسعاً: مقترحات على ضوء نتائج البحث

• لقـد بينـت الدراسـة أن سـبب الهجـرة الرئيـس كان ومـازال اقتصاديـاً – معاشـياً، بنسـبة تقـارب نصـف المهاجريـن (49%)، لذلـك مـن الحكمـة أن يتـم البحـث عـن حـل لوقـف الهجـرة في إطـار الحلـول الاقتصاديـة وتوفـير المشـاريع التنمويـة.

- ضرورة التأسيس لمشاريع تنموية - إنتاجية زراعية وتصنيعية لتوفير الغذاء وفرص العمل ولتحريك دورة الاقتصاد والاجتماع في المناطق الكوردية.
- تحسين الواقع الصحي وتوفير الدواء بالأسعار المناسبة والمتناسبة مع الدخل.
- ايلاء الاهتمام بالنظام التعليمي والاتفاق على مناهج تربوية بعيدة عن التدخلات والأجندات السياسية، وضرورة الحصول على الاعتراف بالمناهج التربوية في المناطق الكوردية، حتى يطمئن المقيمون في الداخل على مستقبل أبنائهم التعليمي.
- تأسيس جامعة، ضمن الاشتراطات الأكاديمية ومعاييرها المعروفة عالمياً. تأهيل جيل أكاديمي وتزويده بخبرات عالية للقيام بالعملية التدريسية باللغات الإنكليزية، العربية، الكوردية. طلب المساعدة من إقليم كوردستان العراق ودول التحالف لهذا الغرض.
- تفعيل دور منظمات المجتمع المدني لنشر الوعي، التحصين ضد الفكر المتطرف، تعلم الإدارة وممارسة الديمقراطية، لخدمة قضايا المجتمع.
- تشكيل قوة عسكرية مشتركة وكذلك بوليس من كافة الأطراف الكوردية تساهم في رفد المجتمع الكوردي بالطاقات الشبابية للمساهمة في مهام الدفاع وحفظ الأمن ضمن المجتمع.
- تمكين وترجيح دور حقيقي للمرأة الكوردية وتأمين فرص التعليم والعمل لها .
- إتفاق الأطراف الكوردية على مشروع كوردي جامع، يخدم تشكيل إقليم كوردستان سوريا، يشمل المناطق الكوردية جميعاً ويؤمن التكامل الاقتصادي والتواصل الاجتماعي بين مناطقه المتباعدة نسبياً.

هل ستفتح منبج الطريق إلى أربيل أم إلى دمشق؟[1]

الملخص:

ترافقت عملية تحرير منبج من سيطرة مسلحي داعش مع حدثين دبلوماسيين مهمين، ذوَي علاقة وثيقة بالمتغيرات الميدانية على الساحة السورية. فقد ظهر بعض جوانب التوافقات الروسية – التركية الجديدة إثر انتهاء اجتماع القمة بين الدولتين المنخرطتين بعمق في الحرب السورية، كما انطلقت تصريحات فاقعة من اجتماع وزيري خارجية إيران وتركيا، تفسر ستراتيجياً على أن الدول الثلاث تتجه نحو التوافق على إيجاد أكبر مساحة للمشتركات بخصوص الشأن السوري، ربما في مقدمتها نسف المنجزات الجيوسياسية والمعنوية التي تحققت لصالح الكورد وخاصة قوات سوريا الديمقراطية، كما أنها توافقت على توجيه رسالة مشتركة إلى واشنطن وربما باريس وبرلين، تتلخص في أنها لن تسمح للكورد بإحداث تغيرات سياسية جوهرية، تترجم سيادياً على الأرض، كثمن لتضحياتهم وحربهم الواسعة على الإرهاب وطليعتها المتوحشة (داعش). في الوقت الذي لا تبدي واشنطن اهتماماً بتحركات موسكو – تركيا – ايران، فقد ثمنت انجازات قوات سوريا الديمقراطية وطردها لداعش من منبج، واعتبرت أن أحد أهم نقاط الاتصال بين الرقة والحدود التركية قد انقطعت.

1. نشرت في موقع شبكة رووداو الاعلامية بتاريخ 14 /8/ 2016 على الرابط:
http://www.rudaw.net/arabic/opinion/studies/14082016

لا شك أن عملية تحرير منبج وضمها إلى مجموع المناطق التي تتم حمايتها من قبل قوات سوريا الديمقراطية، وبالتالي إدارتها من قبل سلطة الإدارة الذاتية بقيادة حزب الاتحاد الديمقراطي، شكلت منعطفاً في مسار المتغيرات السياسية والعسكرية على الساحة السورية، لدرجة أن قيادات كوردية تراهن على أنها ستعزز من مواقع ومنجزات الكورد، وستكون منبج ورقة تفاوضية قوية بيد مجلس سوريا الديمقراطي مستقبلاً، بل قد تزيد من رصيد حركة التحرر الكوردستانية. لقد ارتبطت منبج جغرافياً مع أربيل قبل أن يُفتح الطريق البري بينها وبين دمشق. كما أن قوات التحالف باتت قادرة على أن تستخدم طريق منبج – مناطق شمال الموصل – أربيل بأمان. فهل حقاً يمكن إدراج عملية تحرير منبج ضمن خانة (المنجزات الكوردستانية)، أو طموح تهيئة الأرضية لتأسيس سلطة فدرالية كوردية في شمال سوريا تدور في فلك أربيل؟ هذه الورقة تستشرف مجمل المتغيرات القادمة والتي ستتبع ثابت تحرير منبج وضمها إلى سلطة الإدارة الذاتية (الكوردية) في شمال سوريا. ويرجح في ظل المشهد الجيوسياسي المتشكل حديثاً، أن تأتي النتائج ليس لصالح الكورد والمعارضة السورية وإنما لصالح نظام الحكم في دمشق.

فليس المهم أن تكون الطريق البرية سالكة بين أربيل ومنبج، إنما الأهم من الربط الجغرافي هو أن معظم الروابط الإدارية والسياسية لم تنقطع بين دمشق ومنبج، فخلايا حزب البعث وما تبقى من عناصر استخبارات النظام مستيقظة وستنشط، وبالتالي سيترتب على عودة منبج إلى سيادة دمشق تحول جذري وكبير، يكمن في سهولة وإمكانية ارتباط معظم مناطق الإدارة الذاتية في شمال سوريا برياً مع دمشق، كما سيعد الربط الجغرافي الحالي بين منبج وأربيل مجرد طريق آمن لنقل إمدادات التحالف الدولي. فعلى ما يبدو أن بيضة منبج ستجر معها سلة الإدارة الذاتية إلى قن نظام الحكم في دمشق بصيغة أكثر شفافية، وبذلك ستتحول إلى إدارة ذاتية (افتراضية) تمهيداً لتسهيل

حل المسألة السورية في ظل تفاهم روسي – تركي – إيراني وتأمل أورو-أمريكي.

تنبأ السيد مراد قره يلان، القيادي في حزب العمال الكوردستاني PKK يوم 23 حزيران 2016، بأن تحرير منبج سيعزز تحرر واستقلال مناطق غربي كوردستان: "مشدداً على أهمية السيطرة على مدينة منبج التي ستكون من التطورات المهمة للغاية، فالكورد في سوريا لا يناضلون من أجل الكورد فقط بل من أجل ديمقراطية سوريا".

بعد طرد مسلحي داعش من مدينة منبج، وتطويق ما تبقى منهم في شمال شرق المدينة، وبعد تأمين طريق حلب - الموصل العام الدولي، المار جنوب المدينة، يمكن لأي مسافر أو مركبة مدنية أن تنطلق من الدوار الجنوبي للمدينة سواء باتجاه الجنوب نحو سد تشرين، فمناطق محافظة الرقة، أو شرقاً نحو قره قوزاق فقرية جلبي وصولاً إلى بلدة تل تمر والقامشلي في محافظة الحسكة، فالطريق الدولي بات آمناً من منبج إلى تل كوجر – ربيعة على حدود الموصل، ولنفترض أن الرحلة ستستمر داخل مناطق إقليم كوردستان العراق، مروراً بمناطق شمال الموصل أو جنوب دهوك، فالنتيجة هي كل الطريق البري المعبد القابل للاستخدام التجاري أو العسكري بات آمناً بين منبج وأربيل عاصمة إقليم كوردستان العراق، بطول يقارب خمسمائة وستين كيلومتراً. هذا الطريق مؤمن ومسيطر عليه من الناحيتين السياسية والأمنية من قبل القوات الكوردستانية على الأرض، سواء ضمن سوريا أو العراق، فضلاً عن أنه آمن تحت غطاء طائرات التحالف الدولي.

كيف سيتم توظيف هذا الواقع الجيوسياسي المستجد؟ وهل ثمة إمكانية لترجمته سياسياً وعسكرياً؟ وما النتيجة التي ستؤول إليه فعالية هذا الطريق، الذي تقارب أهميته اليوم أهمية قطار الشرق السريع بين استانبول وبغداد قبل مائة عام! ما هو مستوى الاستخدامات الرئيسة لهذا الطريق عدا عن مرور إمدادات قوات التحالف الدولي؟ هل أعطى موقع منبج الأهمية لهذا

الطريـق؟ أم الطريـق سـيمنح أهميتـه الجيوسياسـية لمنبـج نفسـها؟ لتطبـع في المحصلـة المرحلـة القادمـة باسـمه، أي (مرحلـة مـا بعـد منبـج).

نشـأت منبـج الحديثـة كبلـدة صغـيرة شـيدت عـلى أنقـاض آثـار مدينـة يونانيـة – رومانيـة منـدثـرة، تمـت إعـادة إعمارهـا مـن قبـل أوائـل المهاجريـن الشركـس والشيشـان نهايـة القـرن التاسـع عـشر. انتعشـت وتبلـورت نواتهـا الحضريـة مـع قـدوم الفرنسـيين، واتخـذت ملامحهـا العربيـة الراهنـة بعـد هجـرة أبنـاء القبائـل العربيـة مـن الجنـوب والتوطـين فيهـا، كـما نـزح إليهـا الكـورد مـن قراهـم الشـمالية القريبـة ولكـن بكثافـة أقـل، إذ لم تكـن منبـج يومـاً وجهـة أو حـاضرة جاذبـة للقرويـين الكـورد، كـما كانـت حلـب.

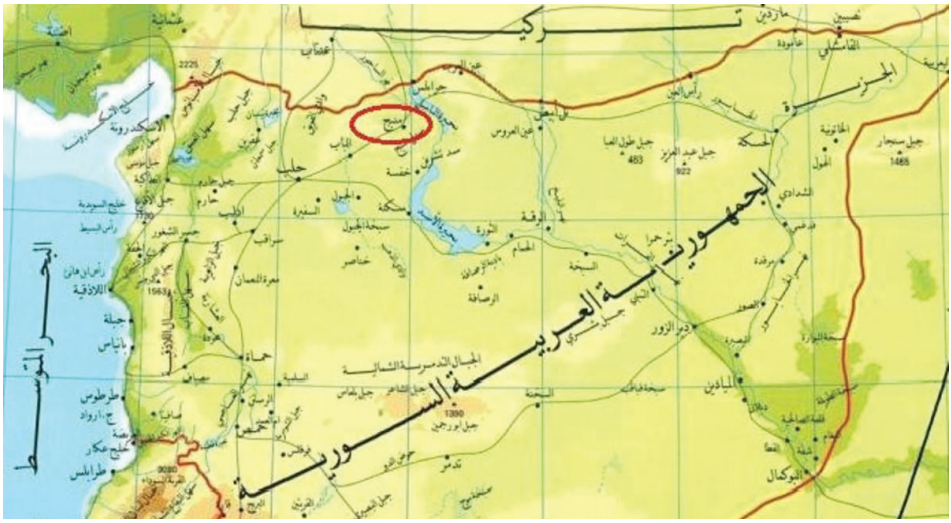

موقع منبج على خارطة سوريا

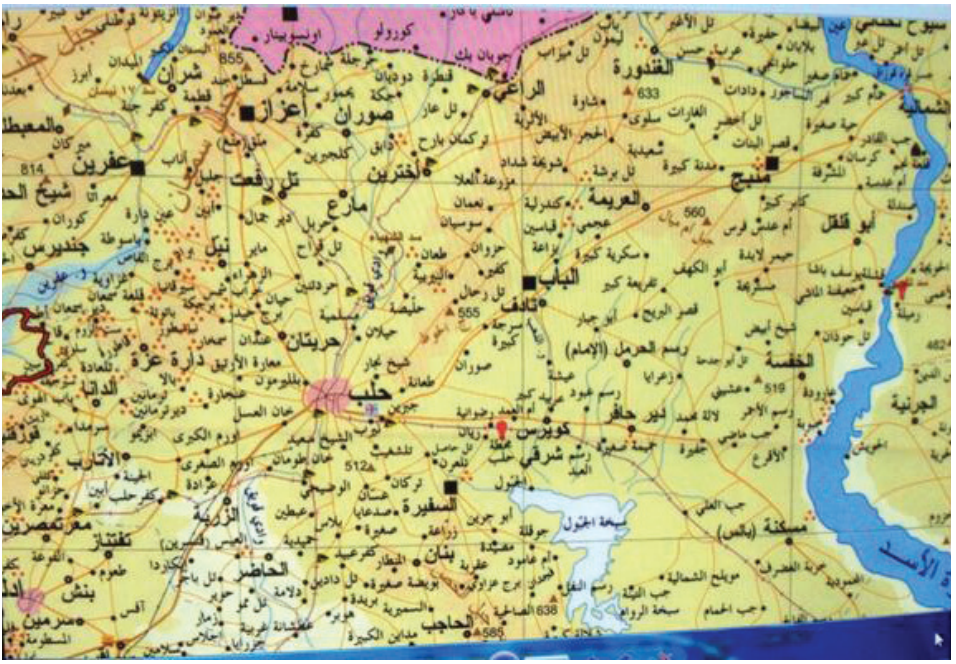

تبدلت ملامح البلدة الاجتماعية والسياسية بعد حكم حزب البعث، فاتسمت بطابع فلاحي، ثم سيطرت عليها البنى القبلية بعد حكم حافظ الأسد وتم تعويم الزعامات العشائرية على حساب الحضرية، هذا وقد ظهرت في منبج قيادات عربية شابة ذات نزوع يساري في سبعينات وثمانينات القرن الماضي، إلا أنها فرغت من شحناتها وطموحاتها بسبب استبداد السلطة، فتم إقصاؤهم حتى فقدت مرتكزاتها وحاضنتها الإجتماعية، لقد باتت المدينة كتلة سكانية تقاد من قبل القيادات العشائرية والبعثية التي تمت السيطرة عليهما من قبل دوائر الاستخبارات. بعد دخول قوات سوريا الديمقراطية اليها،

وتخليص الكثير من المدنيين من سطوة وظلم داعش. ثمة تساؤل يفرض نفسه، ما الذي ستقدمه وتؤسس له هذه القوات، خاصة بمساعدة طليعتها المحلية (مجلس منبج العسكري) وبدعم من قوات التحالف الدولي؟ أي تحول أو إعادة تأسيس سياسية ممكنة ومحتملة في هذا الظرف العصيب؟!

لا يمكن لأي مراقب أو مواطن سوري موضوعي إلا وأن يقدر إيجابياً عملية تخليص منبج من داعش، أما كيف ستدار المرحلة التالية؟ ومن أين تنبع المخاوف؟ فسيظل موضوعاً خلافياً. لا شك أن قوات سوريا الديمقراطية هي ذات غالبية كوردية، وأن مدينة منبج ذات غالبية عربية، وإن لم تعد لها هوية سياسية واضحة بعد كل الخراب والدمار الروحي والمادي الذي لحق بها طوال العقود المنصرمة، وآخرها سنوات حكم داعش الغاشم.

طوال العهد العثماني لم تكن مدينة منبج عامرة، ولم تكن ضمن الحواضر المحلية الكوردية ولا العربية، ولم تكن تالياً حاضرة ذات هوية مميزة بسبب تراجع عدد السكان المؤسسين لها من الشركس، لذلك لا يمكن تقييم مستقبلها السياسي ولا شرعنته على أساس قومي ولا قبلي، فالحاكم في سيناريو إدارته في المستقبل القريب هو المرجعية السياسية والتبعية السيادية، مع الأخذ بالاعتبار أجندات القوى الكبرى التي تحاول ترتيب ملامح سوريا القادمة.

إن مراكز القوى السياسية ذات المرجعية السيادية أو الثورية التي ستتنازع على إدارة منبج في الأيام والأشهر القادمة مرتبطة عضوياً بتطور سيناريوهات الهيمنة والفعاليات السياسية على أرض الواقع، هذا الواقع السوري – العراقي – التركي المضطرب وشديد التحول.

أولا: قوات سوريا الديمقراطية التي سيطرت عسكرياً على منبج ستكون المعنية بالإدارة، هي نفسها المتهمة بحملها لواء مشروع (قومي كوردي)، سواء تحت مسمى مناطق "الإدارة الذاتية"، أو مشروع فدرالية الشمال السوري الفضفاض. هذه القوات مرجعيتها الحالية والرئيسة تعود لقيادة يساروية

(ثورية) ذات ذهنية سياسية متحولة وطوباوية، تستقر في جبال قنديل وتدير المعارك على الأرض من خلف الستار، عبر قادة مقاتلين متطوعين ذوي خبرة قتالية عالية، ينسقون مع قوات التحالف الدولي بوضوح، ومع قوات السلطة في دمشق بوضوح أقل. وفي المحصلة لا يمتلكون رؤية سياسية ناضجة وواضحة المعالم والأبعاد لشكل سوريا المستقبل، سوى إطلاق جملة من المصطلحات العامة، كفدرالية الشرق الأوسط، كانتونات، كومينات للادارة المحلية، تآخي الشعوب... لكن لا يمكن لمنبج بأي شكل من الأشكال أن ترتبط بمرجعية جبل قنديل ومركز (قيادة ثورة الشرق الأوسط) الكائن في مثلث إلتقاء الحدود الدولية لتركيا وإيران وإقليم كوردستان العراق، بل من حق منبج أن تتبع في الفترة القريبة القادمة سيادياً وإدارياً (عاصمة) ما، فليس لقوات سوريا الديمقراطية عاصمة بالمعنى السياسي – السيادي، وبالتالي الحضري – الفيزيائي الملموس. وعلى مستوى أوسع لا يمكن لمشروع الإدارة الذاتية الديمقراطية ولا لمجلس سوريا الديمقراطية أن يستمرا كقوة سيادية وإدارية على الأرض بدون مرجعية كوردستانية أو إقليمية، كما ليس بمقدور هذا المشروع الجديد أن يعيد صياغة بنية متماسكة ومركزية لجغرافية سياسية وسيادية جديدة بدون مدينة تكون عاصمة لهذا المشروع، وهذا ما لم يتوفر بعد، خاصة أن مدينتي قامشلي والحسكة تداران فعلياً من قبل حكومة دمشق. وما سيزيد الوضع تعقيداً أن قوات سوريا الديمقراطية لن تتبرع بإدارة المناطق التي تحررها ميدانياً لأي جهة أخرى. كما يجب الأخذ بعين الاعتبار أن بعض المعلومات الميدانية والخبرية تؤكد مشاركة قوات أمريكية خاصة في العملية، وقيمت واشنطن عملية تحرير منبج بأنها مرحلة متقدمة للتحرك نحو تحرير الرقة وتثبيت التحالف مع قوات سوريا الديمقراطية. في حين نقلت مصادر تركية ما هو مخالف لذلك، ونسبت إلى البنتاغون أن واشنطن تؤكد على أن إدارة منبج ستعود للأهالي المدنيين، وتعدها مدينة عربية تاريخياً.

ثانيا: الطريق السالك بين أربيل ومنبج لن تكون له أي ترجمة ومعادل سياسي أو سيادي ملموس على الأرجح، حيث أن حكومة أربيل على خلاف أيديولوجي وسياسي عميق مع حزب العمال الكوردستاني وبالتالي المنظومات التي تهتدي بخطها الأيديولوجي - السياسي كمجلس سوريا الديمقراطي من جهة، كما يعاني المشروع القومي الكوردستاني بقيادة أربيل من ابتعاد واضح عن مستجدات الواقع السريعة من جهة أخرى، حتى باتت منظومة شبه رومانسية تعوم فوق معطيات الواقع السياسي والعسكري، فضلاً عن قراءتها المشهد بمنظور حزبي. فالعلاقات التجارية والاجتماعية شبه مقطوعة مع المناطق الكوردية في سوريا، ولم تتمكن أربيل من عقد مؤتمر قومي كوردستاني أو حتى تجميع الكورد في سوريا والعراق تحت خيمة واحدة، على أساس برنامج الحد الأدنى، حيث أن الكونفدرالية أو الاستقلال يتطلبان ترتيباً وتنسيقاً عالي المستوى ضمن البيت الداخلي الكوردي. من جهة أخرى نجد أن الدعم الأورو-أمريكي لأربيل لا يتجاوز سقف المعونات العسكرية لمواجهة داعش، ولا يترافق مع فلسفة سياسية جديدة تمهد لإعادة ترتيب أو صياغة الخارطة السياسية للمنطقة، بهدف تحقيق توازن بين دور أربيل العسكري الحالي ومكانتها السياسية والسيادية في المحصلة.

ثالثا: لم تتبلور قوى قبلية أو مجتمع مدنية سورية في منبج أو غيرها من المناطق التي تنظفها قوات سوريا الديمقراطية من داعش، كما هي الحال في المناطق العراقية، لتقوم ببناء علاقات سياسية مع أربيل أو أنقرة. وفي المحصلة غياب المشروع الوطني الديمقراطي السوري، وتوزعه على مرجعيات متعددة، لا يشجع على الافتراض بان أهالي منبج وفعالياتها سيتواصلون مع حكومة عنتاب (حكومة ائتلاف قوى المعارضة)، أو قوى المعارضة المحلية في حلب وإدلب، بل يستشف من الواقع وعلى وقع انهيار البنى والروابط الاجتماعية

والسياسية المحلية، أن منبج كرمز ومفتاح للمدن العربية الخارجة للتو من تحت سيطرة داعش ستعاني من حيرة وتردد في التبعية السياسية والإدارية، وأن إدارة قوات سوريا الديمقراطية لها ستكون مؤقتة، برسم الأمانة، مع عناد متوقع لتمسك القادة الميدانيين بها.

أخيراً: في ظل غياب المشروع الوطني السوري الموحد، وفي سياق انكماش المشروع القومي - الوطني الكوردستاني وتوزعه على مسارين مختلفين ومتناقضين تماماً، وعلى ضوء انحسار الدور التركي أيضاً في الشمال السوري، وتراجعه امام أجندات كل من إيران وروسيا، فإن مستقبل منبج الموضوعي هو الارتباط من جديد مع دمشق. صحيح أن الطريق البري غير سالك حالياً بين منبج ودمشق، ولكن الصحيح أيضاً أنه في حال تأمين شرق وجنوب شرق منطقة الباب، حسب التحركات العسكرية اللاحقة، فإن احتمال الربط البري بين منبج ودمشق عبر مناطق شرق وجنوب شرق حلب بات محتملاً وممكناً. إن المشهد الجيوسياسي عقب تحرير منبج يفصح عن أن الأهم من الربط الجغرافي في هذا السياق، هو الروابط الإدارية والسياسية التي لم تنقطع بين دمشق وسائر مناطق سوريا، فخلايا حزب البعث وما تبقى من عناصر استخبارات النظام مستيقظة وستنشط، بالتالي سيترتب على عودة منبج إلى سيادة دمشق تحول جذري وكبير، يكمن في ارتباط معظم مناطق الإدارة الذاتية (الكوردية) في شمال سوريا برياً مع دمشق، كما سيعد الربط الجغرافي الحالي بين منبج وأربيل مجرد طريق آمن لنقل إمدادات التحالف الدولي.

فثمة احتمال بأن تجر بيضة منبج معها كل سلة الإدارة الذاتية إلى قن نظام الحكم في دمشق بصيغة أكثر شفافية، وبذلك ستتحول إلى مجرد إدارة ذاتية (افتراضية) تمهيداً لتسهيل حل المسألة السورية ولرسم ملامحها الرئيسة في ظل تفاهم روسي - تركي - إيراني وما يشبه تأملاً فلسفياً وأيديولوجياً أورو-أمريكي.

لماذا يشتد الصراع الجيوبوليتيكي على شرق سوريا؟[1]

بعد حوالي عشرة أيام من قصف القوات الأمريكية لفصائل شيعية "عراقية ولبنانية" مساندة لنظام دمشق ومنعها من الوصول إلى مركز التنف في شرق البادية السورية، لربط دمشق مع بغداد عبر معبر الوليد – التنف، أعلن قائد قوات الحشد الشعبي، أبو مهدي المهندس، يوم الإثنين 29/5/2017، في مشهد مفارق تماماً، وصولَ قوات الحشد الشعبي إلى الحدود العراقية، ضمن أراضٍ تابعة لقضاء "البعاج" غربي محافظة نينوى، تبعَ هذا الإعلان خطاب تهنئة موجه من رئيس الوزراء العراقي، حيدر العبادي، للمقاتلين الذين حققوا هذا النصر.

لا الخبر ولا التهنئة يشكلان مفاجأة للمتابعين، فقوات الحشد الشعبي تركز على محور غربي الموصل وجنوبي سنجار منذ عدة أشهر. إن التحكم بطريق تلعفر المؤدي إلى سوريا، عبر طريقين ثانويين متفرعين، الأول عن طريق الهول فالحسكة، والثاني البعاج – الشدادي فالرقة، بدأ عملياً منذ عدة أسابيع، كل هذه المتغيرات العسكرية ترافقت، بل نتجت عن تنسيق وتفاهم سياسي بين مجموع القوات التابعة لمنظومة المجتمع الديمقراطي الكوردستاني، أو بتعبير آخرPKK بمختلف تلاوينه، بما فيها قوات حماية سنجار الإزيدية، وقيادات فاعلة في تحالف طهران - بغداد – دمشق.

بات بديهياً ومكرراً أن نقول إن الهدف الرئيس من هذا الزحف باتجاه الحدود السورية ليس طرد داعش أو إنهاء وجوده الضعيف، بقدر ما هو

1. نشرت في موقع شبكة روداو الاعلامية بتاريخ 31/5/2017 على الرابط:
http://www.rudaw.net/arabic/opinion/31052017

تأمين طريق برية بين سوريا والعراق لترسيخ النفوذ الإيراني في الدول الثلاث "العراق، سوريا، لبنان"، وصولاً إلى شواطئ البحر المتوسط، في سياق التأسيس للمرحلة الأولى من حلم إيران في توسيع مجال حوض نفوذها الستراتيجي الممتد من المحيط الهندي إلى البحر المتوسط.

يبدو أن هذا ما يتحقق على أرض الواقع، وإنْ في صيغته الأولية، لكن السؤال الذي يفرض حضوره بإلحاح، لماذا أمريكا صامتة تجاه الاتصال المباشر بين قوات سوريا الديمقراطية في محافظة الحسكة، وقوات الحشد الشعبي في العراق، عبر منطقة نفوذها وتحت أنظارها؟ هل الترابط الجغرافي العراقي – السوري مطلوب أمريكياً في هذه المرحلة؟ ويتم السعي الحثيث لتثبيته على محورين، شمالي عبر سنجار - الهول والبعاج – الشدادي، وقد أنجز تحت إشراف أمريكي غير مباشر، في حين أن الاتصال الجغرافي المنشود بين بغداد ودمشق على المحور الجنوبي، أي عن طريق البادية ومركز التنف فمعبر الوليد، تعترض عليه أمريكا، بل منعته عسكرياً، فلماذا؟!

ينبغي الإقرار بأن الحرب الجيوسياسية على سوريا ومستقبلها قد دخلت مرحلة تسخين جديدة، لترسيم أهم خطوط وملامح حقول النفوذ، فأمريكا مازالت تعتبر كلاً من الحشد الشعبي وقوات سوريا الديمقراطية حلفاء لها، وتواصلُهم وتعاونهم جغرافياً على الأرض، خاصة في المحور الشمالي (سنجار – الحسكة)، لا يثير حفيظتها، بل ربما ستستخدمه وتستثمره ضد جهة ثالثة، كما يُستنتج أن تناول الإدارة الأمريكية للملف السوري قد تفرع إلى ملفين متباينَين جغرافياً وسياسياً، نصف سوريا الشمالي يراعى في تناوله الحساسيات التركية والإيرانية ومصالحهما، في حين ملف جنوب سوريا تتم فيه مراعاة مصالح إسرائيل والأردن وأمنهما.

كما أن صيغ التعامل مع جنوب وشرق سوريا مازالت في مرحلة الحوار والتفاهم مع الأطراف المعنية، فالمفاوضات جارية حول مستقبلها، لذلك فإن

القـوات الأمريكيـة والأردنيـة والنرويجيـة تعـزز مواقعهـا في التنـف، وثمـة مصـادر تشـير إلى اسـتمرار المعـارك في الأيـام الثلاثـة الماضيـة لاسـتبعاد القـوات السـورية عـن التنـف، التـي تبتعـد عنهـا لمسـافة تـتراوح بـين (33 - 49) كيلومـتراً، حسـب تقدمهـا وتقهقرهـا، فضـلاً عـن أن طائـرات الأباتـشي لا تغـادر منطقـة الباديـة السـورية، التـي تشـهد أيضـاً تحليقـاً مكثفـاً للطـيران الحـربي التابـع للتحالـف الـدولي، إذ تقـوم بتمشـيط الحـدود السـورية - الأردنيـة وصـولاً إلى الحـدود العراقيـة.

في سـياق متصـل تشـير مصـادر إلى أن الولايـات المتحـدة وبريطانيـا أرسـلتا في 20 - 21 مـن أيـار الجـاري "150" عسـكرياً مـن قواتهـما الخاصـة، مجهزيـن بعتـاد متطـور، لدعـم فصائـل المعارضـة السـورية في هـذه المنطقـة.

المعركـة الجيوسياسـية عـلى شرق سـوريا لم تعـد تقتـصر عـلى ميادِيـن القتـال، لكنهـا تجـري عـلى طاولـة المفاوضـات أيضـاً، فقـد جـرت جولـة مـن المفاوضـات بـين الولايـات المتحـدة وروسـيا وأطـراف أخـرى في الأردن، لبحـث مسـتقبل المنطقـة الآمنـة في جنـوب سـوريا، وعلاقتهـا مـع منطقـة الـصراع في الباديـة، مـع احتـمال التركيـز في الجولـة الأولى عـلى اسـتبعاد الميليشـيات الداعمـة لحكومـة دمشـق مـن محـور التنـف، في ظـل تقديـم روسـيا مرونـة في تفهـم العمليـة العسـكرية الأمريكية يـوم 18 أيـار ضـد حلفـاء حكومـة دمشـق.

في الختـام يبـدو أنـه بـدون التفاهـم مـع روسـيا لـن تكـون المعـارك في البـوادي السـورية الخاليـة مـن السـكان سـهلة، حيـث السـيطرة للقـوة الجويـة، كـما أن ترسـيم مناطـق النفـوذ يتطلـب المزيـد مـن المفاوضـات، فضـلاً عـن المناوشـات العسـكرية، فقـوات حكومـة دمشـق وحلفاؤهـا يسـيطرون عـلى أهـم حقـول النفط والغـاز في محيـط تدمـر ومناطـق غـرب حمـص، حيـث توقفـت عـلى بعـد حـوالي 50 كيلومـتراً مـن التنـف.

المعارضـة تعـزز مواقعهـا في القلمـون الشرقـي والمنطقـة الجنوبيـة، إضافـة إلى شرق الباديـة في محاولـة لتأمـين أكـبر رقعـة جغرافيـة لحـدود المنطقـة الآمنـة في

الجنـوب، في حـين أن حزامـاً بريـاً لا يقـل عمقـه عـن 70 كيلومـتراً مـازال يفصـل قـوات حكومـة دمشـق عـن الحـدود العراقيـة.

كنتيجـة للخارطـة العسـكرية والسياسـية الجديـدة، نفـترض أن أمريـكا لم تقـرر بعـد معـاداة طهـران وتقويـض نفوذهـا تمامـاً، بـل تتناغـم معهـا عـبر وسـطاء كحكومـة بغـداد والحشـد الشـعبي مـن جهـة، وقـوات سـوريا الديمقراطيـة مـن جهـة أخـرى، ومـن الواضـح أن التواصـل الـبري بـين طهـران - بغـداد - حلـب - دمشـق بـات قائمـاً، لكـن تحـت المراقبـة والتحكـم الأمريكيَـين، فقـد يكـون هـذا الاتصـال الجغـرافي في شـمال سـوريا بـين "الحشـد وقسـد" ورقـة ضغـط جديـدة تمارسـها الإدارة الأمريكيـة عـلى تركيـا.

أمـا عـلى محـور جنـوب وشرق سـوريا، فيبـدو أن أمريـكا هـي وحدهـا التـي سـتقرر متـى يتـم فتـح معـبر الوليـد - التنـف، وبالتـالي سـيكون طريـق بغـداد دمشـق سـالكاً بأمرهـا فقـط، وعنـد الـضرورة، يُعـدّ التموضـع الأمريـكي معـززاً بقـوات الحلفـاء في شرق سـوريا، والتنـاول الجديـد للمسـتقبل السـياسي لهـذه المنطقـة الشاسـعة التـي تربـط شـمال الجزيـرة العربيـة مـع كل مـن سـوريا، العـراق، وبالتـالي تركيـا، مفتاحـاً لمعرفـة سـتراتيجية أمريـكا ليـس للتعامـل مـع الملـف السـوري فحسـب، بـل لفهـم مجمـل سـتراتيجيتها الـشرق أوسـطية.

القسم الثاني

لماذا تعادي بريطانيا "العظمى" كوردستان؟[1]

بدعوة من وزير الخارجية البريطاني، فيليب هاموند، عقد في لندن اجتماع لوزراء خارجية 21 دولة، إضافة إلى الاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة، وذلك لبحث تنسيق جهود التصدي لتنظيم الدولة الإسلامية "داعش"، حسب ما ورد على لسان المتحدثة باسم وزارة الخارجية البريطانية فرح دخل الله، التي أشارت إلى أن هذا اللقاء: "سيكون جزءاً مهمّاً من جهود التنسيق مع شركائنا في التحالف للعمل بأكثر السبل فعالية... وهي فرصة لاستعراض الجهود المبذولة للتصدي لداعش، وكذلك سبل مكافحة تمويله، والحد من تدفق المقاتلين الأجانب للانضمام لصفوف التنظيم"، إلى آخر بنود أجندة الاجتماع. جدير ذكره أن بريطانيا تعمل نظرياً مع التحالف الدولي الذي يضم أكثر من 60 بلداً في العالم، لتنظيم الجهود لتقويض الإرهاب، على الرغم من أن مشاركتها هي مجاراة للأحداث، وأكذوبة يفضحها عدد الطلعات الجوية لسلاح طيرانها، فعدد هذه الطلعات لا يعادل نصف طلعات سلاح الجو الإماراتي؟!

لقد تفاجأت القوى العراقية الرئيسة التي تقاتل داعش على الأرض من عدم دعوتها إلى هذا الاجتماع الذي يخص ما يجري في مناطقهم مباشرة، في الوقت الذي دعيت إليه دويلات مثل البحرين ذات الإمكانات المتواضعة، وقطر المشكوك في مصداقيتها في محاربة الإرهاب.

وكردّ فعل أولي على اجتماع لندن الكرنفالي، أبدى رئيس إقليم كوردستان

1. نشرت في موقع شبكة رووداو الاعلامية بتاريخ 26/1/ 2015 على الرابط:
http://www.rudaw.net/arabic/opinion/26012015

العـراق، مـن الجبهـات الأماميـة لقتـال داعـش، اسـتياءه وأسـفه لعـدم دعـوة ممثلين عـن إقليـم كوردسـتان إلى هـذا الاجتـماع، وذلـك في بيـان وزع يـوم الجمعـة 23 كانـون الثـاني 2015.

مـن جهتهـا أعلنـت القـوى العربيـة السـنية في العـراق عـن موقـف مشـابه، وأوضحـت لجهـات إعلاميـة متعـددة، بـأن الوفـد المشـارك في مؤتمـر لنـدن يفتقـر إلى أي مسـؤول مـن المكـون السـني. كـما بينـت الهيئـة السياسـية لتحالـف القـوى العراقيـة وائتـلاف الوطنيـة، أن تركيبـة الوفـد (السـيدين العبـادي والجعفـري) يعـد تهميشـاً جديـداً واسـتئثاراً غـير مـبرر لحضـور المؤتمـر.

وفي محاولـة لمعرفـة حقيقـة الموقـف الأمريـكي مـن هـذه الدعـوة الملتبسـة، والمتمثـل بإقصـاء ممثـلي إقليـم كوردسـتان العـراق، والقـوى العربيـة السـنية في العـراق، وبنـاء عـلى إصرار مراسـل شـبكة رووداو الإعلاميـة في واشـطن، نامـو عبداللـه، أجابـت المتحدثـة باسـم الخارجيـة الأمريكيـة، جـين سـاكيالتي، في مؤتمـر صحفـي عقـد يـوم 23 كانـون الثـاني في العاصمـة واشـنطن، عـن التسـاؤل بطريقـة اسـتفزازية: "نعـم، حيـدر العبـادي يمثـل جميـع العراقيـين".

وهـذا مـا يشـير إلى أن أمريـكا متفهمـة للعبـة بريطانيـا القديمـة – الجديـدة والسـخيفة في الوقـت نفسـه، فقـد جـرّت حكومـة كاميرون وراءهـا إدارة أوبامـا الهزيلـة في هـذا الموقـف عـلى أقـل تقديـر.

مـا حـدث لم يكـن مفاجئـاً للمراقـب المهتـم بالسياسـة البريطانيـة، فهـو تعبـير صـادق عـن الذهنيـة البريطانيـة الكولونياليـة في معالجـة شـؤون العـراق، لأنهـا حلقـة جديـدة في نفـس سياسـة إعـادة إنتـاج المشـاكل، وليـس حلهـا. وهـي نفـس السياسـة المتبعـة منـذ العهـد الملـكي، المتلخصـة في الميـل الواضـح والصريـح إلى جانـب السـلطة المركزيـة، أيـاً كانـت هـذه السـلطة، ملكيـة أو بعثيـة أو شـيعية، لأنهـا سياسـة مريبـة ورتيبـة تتغـاضى عـن عمـق وطبيعـة المتغـيرات الداخليـة والمحيطـة بالعـراق اليـوم.

أما بالنسبة للكورد وكوردستان فالموقف البريطاني، هو استمرار وترجمة جديدة لحقيقة معاداة حكوماتها المتعاقبة لطموحات الشعب الكوردي، طوال قرن كامل من الزمن. فمنذ أن تفوّه تشرشل بكلمات معادية للكورد وترجمها بتحطيم كوردستان على أرض الواقع بعد الحرب العالمية الأولى، وحتى يوم أمس، تنفَّذ نفس السياسات، عندما تعمدت حكومة ديفد كاميرون (اليمينية المحافظة) إلغاء دور الكورد والتعتيم على انتصاراتهم في ساحات محاربة الإرهاب. إن موقف حكومة كاميرون هذا ما هو إلا محاولة للاستدارة حول المنجز السياسي والعسكري والدبلوماسي الذي حققه إقليم كوردستان في الأشهر والسنوات الأخيرة، وهي محاولة يائسة لإعادة تحويل إقليم كوردستان إلى محافظة منسية في إحدى "مستعمراتها" حسب ذهنية حكومة كاميرون الزهايمرية.

أما ما هو مستغرب، فهو أن النخب الكوردية الثقافية والسياسية لم تتأكد حتى الآن من أن بريطانيا تعادي الكورد باستمرار وبشكل سافر، ويصعب عليها أن تجد كوردستان متقدمة ومنتصرة. فعلينا إعادة قراءة مواقف بريطانيا، وكذلك العديد من النصوص التي تثبت هذا العداء، بدءاً بمذكرات تشرشل وصولاً إلى الوثائق البريطانية المفرج عنها مؤخراً، مروراً بعدد كبير من المستشرقين والرحالة والصحفيين والباحثين الأكاديميين، فثمة اتفاق عام عندهم جميعاً، يتخلله بعض الاستثناءات، فهم يُسَفّهون الكورد ويُصورونهم كغزاة ومحتلين لأراضي الغير. "قبائل متشرذمة غير قادرة على بناء دولة عصرية"، ولذلك حَرَمهم العرش البريطاني من التمتع بحق تقرير المصير سابقاً. الموقف البريطاني هو أسوأ طريقة يمكن أن نتصورها للتكفير عن الذنب، لأن جريمتها الأولى لا تُغتَفر، وستظل ماثلة أمام أعين أجيال من أبناء ضحايا هذه السياسة.

ما يفرض نفسه إزاء السياسة البريطانية والسياسة الذيلية لإدارة أوباما في موضوع محاربة داعش، هو إعادة التأكيد على ضرورة التوجه نحو تحالفات

محلية في العراق وسوريا ودول الجوار، لإيجاد حل مستدام لمعضلات المنطقة، فبهكذا منطق وسياسة بريطانية ملتوية، لن تصل المنطقة إلى بر السلام والتنمية.

أخيراً، وبهذه المناسبة أجد من الضروري أن تفكر النخب الثقافية والمنظمات الحقوقية الكوردستانية في وضع تصور وترتيبات لرفع دعوى قضائية ضد الحكومة البريطانية، بصفتها وريثة بريطانيا الاستعمارية العظمى، وكونها تتحمل مسؤولية المشاركة في تقسيم كوردستان، وتقع على عاتقها أيضاً مسؤوليةُ الإبادات الجماعية والحروب السياسية ضد الكورد. فعلى أبناء الضحايا وذويهم، بدءاً من ضحايا قصف السليمانية وبارزان من قبل الطائرات البريطانية، وصولاً إلى مجزرة حلبجة، رفع دعوى قضائية في المحاكم الدولية المختصة ضد من يتحملون وزر ما تعرض له الكورد من مجازر وحرمان سياسي خلال مائة عام. فحكومة بريطانيا ومعظم رؤسائها السابقين مسؤولون عن مأساة الكورد، وهم شركاء في تقسيم وتحطيم كوردستان، وبالتالي متهمون بسفك وهدر الدم الكوردي طوال قرن من الزمان، فمشكلتنا مع بريطانيا أكبر من هذا المؤتمر.

لماذا سايكس - بيكو باقية وتترسخ؟ [1]

ملخص

على الرغم من التفاؤل وزخم الفعاليات التي أدانت اتفاقية سايكس – بيكو، بمناسبة مرور مائة عام على توقيعها، وبصرف النظر عن كل الدراسات الاستشرافية والتوقعات التي رجحت أن خارطة المنطقة مقبلة على التغيير الحتمي، فإن حقيقة ودرجة هذه المتغيرات مازالت موضوعاً خلافياً قابلاً للسجال وخاضعاً للتقييم. فالطبيعة المفتاحية والرمزية لاتفاقية سايكس – بيكو تكمن في أنها أسست للنظام الكولونيالي في الشرق الأوسط، وبالتالي مهدت لتشكيل دول جديدة، وهيأت الأرضية لتثبيت نظام إقليمي، سياسي واجتماعي مازال قائماً. ليس من السهل تغيير هذا النظام الإقليمي القائم منذ حوالي قرن، لأنه مرتبط جدلياً بالنظام العالمي، متأثراً برسوخه أو بمتطلبات تغييره. تحاول هذه الورقة استعراض جملة من الآراء التي تستشرف مستقبل المنطقة، وتحدد أهم الحوافز التي تفضي إلى احتمالات التغيير، وفي مقدمتها واقع العراق الذي يعد مفتاحاً لتغيير المنطقة، فكلما ازدادت درجة ضعف حكومتها المركزية، زادت معها احتمالات تفكك العراق وبالتالي انتقال هذا التغيير إلى دول الجوار، وصولاً إلى تصدع النظام الإقليمي. مع ذلك ترجح هذه الورقة استمرارية بقاء النظام الإقليمي على حاله في الأمد القريب لعدم توافر

1. نشرت في موقع شبكة رووداو الاعلامية بتاريخ 1/6/2016 على الرابط:
http://www.rudaw.net/arabic/opinion/studies/01062016

شروط ومقدمات التغيير الجذري، والتي تتلخص في: اضطراب شديد في النظام الإقليمي، رغبة وتوافق دوليَين على تغييره كمدخل لحل مجموعة من أزمات ومعضلات الشرق الأوسط السياسية والاقتصادية المتفاقمة، فضلاً عن توافر محركات التغيير الداخلية المزعزعة لخارطة المنطقة القديمة، ومن أهمها بروز قوة كوردستانية سياسية وعسكرية قادرة على تفعيل عملية التغيير وحمايته، وكذلك رغبة فعالة من العرب السنة، في كل من العراق وسوريا، للقبول والمساهمة في التغيير الجذري للخارطة السياسية، بدءاً بنواة الشرق الأوسط التي يسكنونها، ومازالت تحت سيطرة تنظيم الدولة الإسلامية (داعش). مقدمات التغيير الضرورية لم تتوافر بعد، كما أن أهم شروط الاستمرارية التي يستمد النظام الإقليمي منها عوامل البقاء والثبات مازالت قائمة. لكن من الصعوبة عودة الإقليم إلى ما كان عليه قبل انتفاضات الربيع العربي، وباتت الأفكار والحلول، من نوع الفيدرالية والكونفدرالية، مخرجاً من الأزمة ويتزايد درجة تفهمها وقبولها، فالسيناريو المتوقع أن السقف العالي للتغيير مازال ينحصر داخل الحدود القديمة لدول المنطقة، ومن المرجح أن يتركز التغيير السياسي القادم على طبيعة الأنظمة الحاكمة، لا على تغيير بنية الدول القائمة أو إزالتها تماماً.

- **العراق: البداية والنهاية**

بمناسبة مرور قرن كامل على توقيع اتفاقية سايكس- بيكو في 16 أيار 1916م، شهدت مناطق عديدة من كوردستان والمهجر نشاطات مكثفة للتذكير بهذه الاتفاقية والتنديد بها، كان أكثرها زخماً ما جرى يوم السبت 14 أيار 2016 في مدينة كولن الألمانية. أخذ التنديد بهذه الاتفاقية طابعاً رمزياً، إذ أن الاتفاقية مهدت لتقسيم منطقة الشرق الأوسط عموماً، وبلاد الكورد خصوصاً، بطريقة حادة لم تأخذ بعين الاعتبار أي محددات وضوابط قومية أو اجتماعية،

ولم تـراع التقسـيمات الإداريـة وعلاقـات الجـوار التـي كانـت تسـود المنطقـة منـذ حقـب طويلـة، كـما أسسـت للنظـام الكولونيـالي الـذي سـاد منطقـة الشرق الأوسـط مـا بـين الحربـين العالميتـين.

بالتـوازي مـع هـذه النشـاطات، تصاعـدت درجـات الحماسـة في رجـم الاتفاقيـة وتحميلهـا أكـثر مـما تتحمـل مـن مسـؤولية، حتـى باتـت أوسـاط سياسـية كورديـة عديـدة تعلـن أن نهايـة هـذه الاتفاقيـة حتميـة، قـد انتهـى مفعولهـا وسـقطت أخلاقيـاً عـلى أرض الواقـع، وبالتـالي اسـتبشروا خـيراً بتغيـير الخارطـة الكولونياليـة وما تحـت الكولونياليـة التـي أسسـت الاتفاقيـة لهـا، في ربـط ميكانيـكي بـين الخـلاص والتحـرر ومئويـة الاتفاقيـة.

في مقدمـة مـن أشـار إلى هـذه النهايـة المعنويـة والسياسـية للاتفاقيـة، وضرورة إعـادة رسـم حـدود دول المنطقـة بمـا يتطابـق مـع مصالـح وتطلعـات شـعوبها والبـدء بمرحلـة سياسـية جديـدة، السـيد رئيـس إقليـم كوردسـتان العـراق، مسـعود البـارزاني، وفي أكـثر مـن مناسـبة وموقـع. فلـماذا هـذا الإصرار مـن جهـة؟ ومـن أيـن تسـتمد هـذه الفعاليـات والجماهـير المنتفضـة قوتهـا وإيمانهـا بالتغيـير الحتمـي؟!

في الواقـع، ليـس الحديـث عـن التغيـير المرتقـب الـذي كان يُتوقـع أن يطـال البنيـة السياسـية للـشرق الأوسـط بجديـد، ولا هـو حلـم رومانـسي كـوردي فحسـب، فقـد ظهـر أول مـا ظهـر عـلى شـكل قـراءات علميـة نخبويـة، خاصـة في إطـار الدراسـات الاسـتشرافية لبعـض مراكـز الأبحـاث والجامعـات، إلا أنهـا تزايـدت، تكـررت وتعمقـت مضامينهـا مـع كل منعطـف جيوسـياسي وحـدث كبـير عـلى الصعيديـن الإقليمـي والعالمـي، خاصـة منـذ تفـكك الاتحـاد السـوفييتي السـابق، بعـد تغيـير خارطـة وحـدود الـدول في أوروبـا الشرقيـة، آسـيا الوسـطى والقوقـاز، فضـلاً عـن فعاليـة وقـوة إعـادة توحيـد ألمانيـا، وبالتـالي تصـدع النظـام العالمـي المنبثـق مـن مؤتمـر يالطـا (1945م)، بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة.

لا يمكـن الفصـل بـين مسـألتي التقسـيم والتكويـن الحـالي للـشرق الأوسـط وبـين

ظاهـرة تكـون الدولـة العراقيـة كمحـور وأسـاس لهـا، كانـت أرض العـراق ومازالـت رقعـة جيوسياسـية معقـدة، فقـد كانـت منطقـة صراع عثـماني – صفـوي طـوال عـدة قـرون، لدرجـة أن الحكـم العثـماني لم يسـتقر فيهـا إلا لسـنوات قليلـة.

إثـر التراكـم الرأسـمالي في أوروبـا الوسـطى، ومـع تنامـي القـدرات العسـكرية الألمانيـة، تحالفـت ألمانيـا مـع السـلطنة العثمانيـة لمواجهـة التوسـع الكولونيـالي البريطـاني – الفرنـسي، فبـدأت مشـاريع الهيمنـة العسـكرية والاقتصاديـة وانفتحـت بوابـات الـصراع عـلى الـشرق الأوسـط أمـام الـدول الأوروبيـة الرئيسـة، إلى أن شـكل مـد خـط سـكة الحديـد لقطـار الـشرق السريـع، الـذي ربـط برلـين مـع إسـتانبول، وصـولاً إلى بغـداد، إحـدى أبـرز النقـاط الجيوسـتراتيجية في السياسـات الأوروبيـة عهدئـذ، حيـث أفسـح الخـط المجـال لوصـول القـوات الألمانيـة إلى تركيـا ثـم العـراق بسـهولة، شـكل خـط الحديـد هـذا منعطفـاً خطـيراً في موقـع العـراق ضمـن السياسـات الدوليـة وقلـب الموازيـن الجيوسـتراتيجية، بحيـث أصبـح النفـوذ الألمـاني قابـلاً للوصـول إلى كوردسـتان فإيـران وحتـى منطقـة الخليـج، وهـذا مـا عملـت بريطانيـا عـلى مقاومتـه بقـوة، وثمـة مـن يفـترض أنّ قطـار الـشرق السريـع هـو أحد أهـم عوامـل وأسـباب اشـتعال الحـرب العالميـة الأولى وتسريعهـا. ومـا ان اشـتعلت الحـرب العالميـة حتـى قـررت بريطانيـا احتـلال العـراق والسـيطرة عـلى منطقـة الخليـج وعـلى نفطهـا، ومنـع وصـول الألمـان إلى العـراق بـأي ثمـن.

لذلـك جـاءت اتفاقيـة سـايكس – بيكـو في جوهرهـا لتـبرر الهجـوم البريطـاني عـلى العـراق، ولتؤسـس لبدايـة المرحلـة الكولونياليـة في الـشرق الأوسـط، حيـث انبثقـت عـن ذلـك النظـام الكولونيـالي الـدولُ القائمـة حاليـاً، وبالتـالي الخارطـة السياسـية لعمـوم منطقـة الـشرق الأوسـط.

إن إتفاقيـة سـايكس – بيكـو، وربمـا فكـرة تقسـيم منطقـة الـشرق الأوسـط، ولـدت مـن صلـب خطـة التحكـم بالعـراق واسـتثمار نفطـه، لدرجـة أن بعـض الآراء يحيـل رسـم الخطـوط المسـتقيمة في الاتفاقيـة المذكـورة إلى مسـارات نقـل النفـط

فقـط، إذ أن الخطـوط لم تأخـذ بعـين الاعتبـار أي تقسـيمات إداريـة أو تباينـات ثقافيـة: "هـو اتفـاق بـين الدبلوماسـيَين البريطـاني والفرنـسي لتقسـيم المنطقـة طبقـاً لخطـوط مسـتقيمة بالقلـم، لا تمـت للحقائـق الاجتماعيـة بصلـة. ومـا لا يعرفـه الكثـيرون هـو أن تخطيـط الحـدود هـذا كان قائمـاً عـلى تقسـيم المـوارد البترولية في هـذه المنطقـة الغنيـة بالذهـب الأسـود، وبالتـالي جـاء التقسـيم بنـاءً عـلى رغبـة كل مـن فرنسـا وبريطانيـا في تنظيـم أنابيـب البـترول لـكل منهـما، حيـث يبـدأ أحـد هـذه الأنابيـب مـن كركـوك وينتهـي طرفـه في حيفـا (بالنسـبة لبريطانيـا)، وطرفـه الثـاني في طرابلـس اللبنانيـة (بالنسـبة لفرنسـا)، أي ينتهـي في منطقـة نفـوذ كل منهـما".

بـدأت الخطـوات العمليـة لاحتـلال وتقسـيم المنطقـة في خريـف العـام 1914 عندمـا هاجمـت القـوات البريطانيـة بقوامها البـشري الهنـدي - الباكسـتاني والبلوشي بأعـداد غفـيرة البـصرة، وجـرت معـارك طاحنـة ذهـب نتيجتهـا عـشرات الآلاف مـن القتـلى، إلى أن اسـتولت القـوات البريطانيـة عـلى بغـداد: "دخلـت القـوات البريطانية بغـداد في 11 آذار 1917 وهـو حـدث مهـم بعـد أربعـة قـرون مـن الحكـم الـتركي. إنزعـج بعـض سـكان بغـداد وفـرح بعضهـم الآخـر لقدومـه. ألقـى القائـد البريطـاني سـتانلي مـود خطابـاً عـلى أهـالي بغـداد قـال فيـه: إن البريطانيـين جـاؤوا محرريـن لا فاتحـين".

كان العـراق محـوراً للاهتـمام الكولونيـالي البريطـاني – الفرنـسي وهاجسـاً رئيسـاً لـكي لا تصـل إليـه ألمانيـا، خاصـة بعـد إنجـاز خـط قطـار الـشرق السريـع الـذي يربـط برلـين بإسـتانبول وصـولاً إلى بغـداد! كـما سـبق ذكـره، وهـذا يـدل عـلى أن الحـرب والرغبـة بتقسـيم المنطقـة جاءتـا قبـل اتفـاق سـايكس- بيكـو بعـدة سـنوات. لكـن حـدود الـدول في الـشرق الأوسـط لم تسـتقر إلا بعـد سلسـلة مـن الاتفاقيـات، حيـث "أن سـايكس – بيكـو لا يُقـرأ منفصـلاَ عـن جملـة الاتفاقـات والمعاهـدات التـي أعقبتـه، مـن وعـد بلفـور إلى لـوزان مـروراً بسـيفر وسـان ريمـو،

وجملة الاتفاقات تلك هي من أعطى المشرق والإقليم شكله وخرائطه، أنشأ دولاً لشعوب غير قائمة أو غير مكتملة التشكل، وحرم شعوباً متأسسة من حقها في الدولة وتقرير المصير، مثل الفلسطينيين والكورد". لذلك من المنطقي الحديث اليوم عن نهاية محتملة لـ"سان ريمو" في المقام الأول: "في مؤتمر سان ريمو في العام 1920 أعطت اتفاقية سايكس – بيكو، على سبيل المثال، الأراضي التي تشكل اليوم شمال سوريا لفرنسا، وتوقعت نظاماً دولياً للأراضي المقدسة. ومنح مؤتمر سان ريمو عصبة الأمم موافقته على الحدود التي رسمتها فرنسا وبريطانيا في وقتٍ لاحق- تمّ تأسيس لبنان خلال فترة الانتداب الفرنسي على سوريا، وتمّ فصل شرق الأردن خلال فترة الانتداب البريطاني على فلسطين، ونشأ الانتداب البريطاني على العراق من ثلاث ولايات عثمانية وهي الموصل وبغداد والبصرة. قد تكون الإشارة إلى الانهيار المحتمل للنظام الإقليمي في الهلال الخصيب باسم نهاية سان ريمو أكثر دقة، إلا أنه لا جدوى من الدخول في جدلٍ دلالي".

منذ الحرب العراقية – الإيرانية واحتلال العراق للكويت وتداعياته، باتت كل الدراسات والتوقعات تشير إلى أن النظام الذي تأسس إثر احتلال بريطانيا لبغداد في العام 1917م، وصولاً إلى مؤتمر يالطا (1945)، سيتغير بدءاً من العراق وعبره، وهذه الفكرة ترسخت بعد سقوط بغداد المدوي بيد قوات التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية في العام 2003، ومع هذا الحدث بات الاستقرار الجيوسياسي في الشرق الأوسط يشهد متغيرات عميقة ويواجه مصاعب حقيقية، لذلك ليس من باب التنظير أن يعد العراق مفتاحاً لتغيير المنطقة، فكلما ازدادت درجة ضعف حكومته المركزية زادت معها احتمالات تفكك العراق وبالتالي انتقال هذا التغيير إلى دول الجوار، وصولاً إلى تصدع النظام الإقليمي، إلى أن تنتهي المنظومة السياسية والحدود التي أسست لها اتفاقيتا سايكس – بيكو وسان وريمو وغيرهما. يبدو أن العراق بهذا المعنى بات أحد أهم مفاتيح إلغاء النظامين ما قبل الكولونيالي، أي النظام الوريث

للإمبراطوريات، وكذلك النظام ما تحت الكولونيالي المرتسم والمطبق على الأرض حتى وقتنا الراهن. إضافة إلى أن الحرب الأهلية السورية تساهم في زيادة دور العراق المرجح لعملية التفكيك، ومع ذلك يبقى البحث عن محددات التغير في الشرق الأوسط، مساره والتحديات التي تواجهه غير سهل ولا بسيط.

- **النظام الإقليمي على المحك**

تعرض النظام الإقليمي في الشرق الأوسط منذ أمد طويل للاهتزاز، وتشكلت مقدمات لزعزعة بنيته الداخلية خلال عدة حروب، كما تم التنظير لإعادة تقسيمه على أسس سياسية وحسب تباينات محلية عديدة، فمنذ ثلاثة عقود وحتى في ظل ثبات وجمود نظام القطبين العالميين، تم الترويج لآراء وقراءات حول احتمالات تغيير خارطة الشرق الأوسط، من مدخل تفتتها: "وبات عنوان إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط أحد العناوين الرئيسة في الكثير من التقارير والمقالات الصحفية، والأبحاث العلمية، التي تنشرها كبريات الدوريات، ومراكز الأبحاث المعنية بشؤون العلاقات الدولية، ومستقبل السياسة العالمية".

من جانب آخر استخدمت مؤشرات التغيير وقابليتها لأغراض دعائية وسياسية، حيث كانت تربط غالباً بمفكرين وجهات بحثية إسرائيلية، ولم تكن تلك التهم متأتية من فراغ، فلقد نُشرت في هذا السياق عدة أبحاث متضمنة سيناريوهات تقسيمية، تم تهويل خطرها من جهة، وأسطرتها من جهة أخرى، بدءاً بخطة أودد ينون – 1982 أحد أبرز العاملين في القيادة الاسرائيلية. تلخصت خطة ينون بلبنَنة العالم الإسلامي كله. كما نشر برنار لويس لاحقاً خارطة وتصوراً لمنطقة الشرق الأوسط منبثقة سياسياً، ومترجِمةً التنوع الطائفي والقومي في المنطقة. استمرت السيناريوهات والتصورات في نفس الاتجاه وصولاً إلى رأي موشي يعلون، مدير المخابرات العسكرية الاسرائيلية وآخر وزير دفاع فيها، إذ أكد أن خطة بلْقَنة الشرق الأوسط ممنهجة وتسير عملياً نحو التطبيق. ما هو ملاحظ أن القراءات الاستشرافية والافتراضات قد

تكررت حول احتمالات التغيير المرتبطة ميكانيكياً مع آليات التقسيم للدول القائمة، لكنها في الغالب استندت بمنطقها الداخلي، على خطاب مختصره: أن التباين في ثقافات المنطقة وتركيبة شعوبها والتضاد في مصالحها ستؤدي إلى حتمية تحولها إلى دويلات صغيرة، دون تقديم مبررات، كما في حالة الدروز، والحكم مسبقاً على أن التباينات ما تحت القومية والطائفية ستولد ما يوازيها من دول مستقلة.

أحداث ما بعد سبتمبر 2001 وتراكم مجموع العوامل المحفزة للتغيير، شجعت من جديد على ترجيح كفة احتمالات تغيير خارطة المنطقة وإعادة تشكيل بعض دولها، وبات هذا الرأي يرد في سياق البديهيات بعد نمو وتمدد تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) واحتلاله لأجزاء واسعة من سوريا والعراق، وإعلانه بصورة دعائية ورمزية نهاية سايكس- بيكو في العام 2014.

بعد أن مرت الذكرى المئوية للاتفاقية، وبعد أن باتت حركة داعش في إلغاء الحدود ضمن أرشيف فيديوهات الترويج الاعلامي، واقتربت قوات الدولتين المركزيتين في بغداد ودمشق من أطراف حصون داعش، مع جملة من المعطيات الأخرى، ترافقت مع عجز في تقديم مشاريع سياسية جديدة، وخطط عملية لحل معضلات الدول القائمة، وجمود في المبادرات الدولية الفعالة، كل ذلك ساهم في إعادة صياغة وبلورة آراء مغايرة، لتعلن أن النظام الإقليمي ثقيل وراسخ، يحمي مصالح طبقات حاكمة متجذرة لدرجة أنه لن يتغير سريعاً وأن التغييرات كلها ستجري داخل الحدود القديمة، فضلاً عن أن الدولتين اللتين تشكلان ركيزة النظام الإقليمي تعملان بروية للمحافظة على حدودهما الخارجية وكيانهما المركزي.

حتى تركيا، المتضررة نظرياً من اتفاقية سايكس- بيكو، هي أول من يهدف ويؤكد المحافظة على الحدود الراهنة، وإن تعالت فيها آراء تريد أن تخفف من المعضلات التي أنتجتها الحدود القديمة: "هذا النظام الذي نشهد

اليوم انهياره ليس حصيلة اتفاقية واحدة، كما أن هذه الحدود لم تكن وليدة لحظة واحدة، لذا فإن انهياره بكل تأكيد لن يكون كذلك وليد لحظة ولن يكون دفعة واحدة... لهذا السبب لا بد من تخطي الحدود والتجاوز عن اصطلاحيتها وتجريدها من أي قيمة تحملها. بكلمات أخرى، بدلاً من رسم حدود جديدة مكان تلك الحدود القديمة، من الأولى أن نصب اهتمامنا على تطوير توجهات ورؤى جديدة تتجاوز الحدود واصطلاحيتها، هذه التوجهات قد تكون حدوداً أكثر مرونة أو مساعي نحو الاندماج والتكامل بين الدول أو تشجيع وتبني التعاون المشترك".

وعلى العكس من بعض الآراء السياسية التي تشير إلى أن إيران تسعى لتغيير خارطة المنطقة عبر تعويم صيغة الفيدراليات الطائفية، فإن هدفها الحقيقي يكمن في المحافظة على الشكل الخارجي للدول الحالية وزيادة نفوذها داخل منظوماتها القديمة، سعياً للتحكم عن بعد بحكوماتها: "هوية النظام الإيراني الإيديولوجية تستقيم مع أية حالة تفتيتية... فالفيدرالية الطائفية السياسية، تحدد المسار الإيراني الفعلي في تقسيم المنطقة كلها، ومنها الأمة العربية انطلاقاً من العراق".

لا شك أن الدور الحاسم للقوى الدولية بلغ ذروته قبل مائة عام في مرحلة صعود الكولونيالية وضمور إمبراطوريات المنطقة، أما الآن فالمعادلة معكوسة، فعلى ما يبدو ثمة شبه إجماع على أن الدور الرئيس سيكون في صياغة سمات المنطقة للقوى الإقليمية الفاعلة وخاصة إيران وتركيا والسعودية: "القوى الإقليمية تلعب دوراً متعاظماً في تقرير مستقبل المنطقة، واللاعبون "اللادول"، باتوا اليوم، قوى يُحسب حسابها... فلا مستقبل لأي اتفاق للتقسيم بدون موافقة الأمم المتحدة ومجلس الأمن، ناهيك عن تعاظم قدرات شعوب المنطقة ومجتمعاتها على المقاومة".

باختصار، وبدون الإسهاب في عرض الآراء، لا يمكن أن نتصور تغيراً جذرياً

في خارطة المنطقة بدون أن يواجه مقاومةً من قبل القوتين الرئيستين في الشرق الأوسط ودعامتي استقرارها، تركيا وإيران، حتى وإن اختلفت مصالحهما وتناقضت رؤيتهما للمشهد السياسي، ستظل كل من تركيا وإيران معترضتين من حيث المبدأ على أي تغيير يلامس الحدود الخارجية لدول المنطقة، لأنهما متفقتان على جزئية واحدة تكمن في التخوف من القوة الكوردستانية الصاعدة. وهما ليسا على استعداد للقبول بنظام إقليمي جديد على حساب دورهما المركزي، ونظراً لرغبتهما في تغيير بعض الأنظمة، كل حسب مصالحه، فانطلاقاً من هذا الموقف المتناقض تتم إعادة إنتاج معضلات سياسية أكثر تعقيداً.

- **نظام دولي محافظ**

في علاقة جدلية ومركبة بين المستويات الوطنية والاقليمية فالدولية، يبدو أن كلاً من العراق وسوريا كانا وسيظلان مفتاحَي التغيير للنظام الإقليمي والسياسي القائم في الشرق الأوسط، ومن هنا نجد أن التريث والترقب والتردد عنوان رئيس لهذه المرحلة، وخاصة في بند تغيير أنظمة الحكم، ودور القوى الدولية العظمى فيه، كمدخل للتأسيس للمرحلة الجديدة. إن تغيير النظام الإقليمي المترسخ بعد الحربين العالميتين ضمن المشهد الراهن، يتطلب تغيير نظامَي الحكم في دمشق وبغداد، كخطوة تمهيدية ستمهد بدورها لتغيير بنيتهما الداخلية، فتنتقل إلى الجوار.

لكن، تأكد أن النظام الدولي غير قادر على البت في هكذا عمليات تغيير كبرى، بسبب اضطراب العلاقة بين أطرافه، فضلاً عن أنهم غير متوافقين على فكرة التغيير نفسها. إذ يبدو أن النظام الاقليمي البديل لم يتبلور، وهو مترابط مع النظام الدولي الذي لم يترسخ ولم تتضح معالمه الأخيرة بعد، وما التقارب الأمريكي – الروسي إلا أحد مقدمات التفاهم على الإطار العام للنظام الدولي، أو هو في الواقع مسعى خجول لبناء ما يشبه نظاماً عالمياً متعدد الأقطاب

عـبر التوافـق الأولي عـلى شـكل ومسـتقبل الـشرق الأوسـط، وكذلـك الحـرب عـلى الإرهـاب.

ويفـترض أن تتـم إعـادة تشـكيل النظـام الاقليمـي الجديـد، عـبر احتمالـين، الأول أن تبقـى الحـدود الخارجيـة للعـراق ثابتـة مـع إعـادة رسـم حدودهـا الداخليـة، سـواء بصيغـة كونفدراليـة أم فدراليـة، والاحتـمال الآخـر أن تنضـم أجـزاء مـن خـارج العـراق إلى دولهـا الثـلاث المتشـكلة (الكورديـة، السـنية، الشـيعية) وهـذا مـا سـينهي عمليـاً شـكل الحـدود الخارجيـة لدولتـي العـراق وسـوريا في الخطـوة الأولى بعـد أكـثر مـن ثمانـين سـنة عـلى تثبيتهـا بالصيغـة الحاليـة. هـذا المدخـل إن تحقـق سـيلامس إيـران ويخصهـا قبـل الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، فإيـران قـد لا تكـون تاريخيـاً معنيـة جوهريـاً بالنظـام الـذي أسـس بعـد الحـرب العالميـة الأولى، لكنهـا تعـترض عـلى أن تـبرز دولـة كورديـة عـلى حدودهـا، وبـدأت تعمـل لوقـف مسـار تحررهـا وولادتهـا عـلى أرض الواقـع، لأن هـذه الدولـة سـتؤثر عـلى بنيتهـا الداخليـة بالـضرورة، عـلى الرغـم مـن أن الكثـير مـن الآراء يتهمهـا بالتعـاون مـع القـوى الدوليـة لإعـادة رسـم خارطـة المنطقـة لصالحهـا، خاصـة مـن منظـور قـراءة المشـهد السـوري: "وكأن سـيرغي لافـروف ومحمـد جـواد ظريـف مُنحـا الـدور الـذي لعبـه قبـل مئـة عـام الفرنـسي فرنسـوا جـورج بيكـو والبريطـاني مـارك سـايكس، بـين تشريـن الثـاني 1915 وأيـار 1916، عندمـا تقاسـم بلداهـما إرث الدولـة العثمانيـة المتهاويـة في المـشرق العـربي".

مـن جانـب آخـر، تركيـا منخرطـة عمليـاً في وقـف مسـار أي تغيـير يفسـح المجـال أمـام أي مكاسـب للكـورد، خاصـة عـلى طـول حدودهـا مـع سـوريا، ومـا يزيـد تعقيـد المشـهد الإقليمـي أن كلاً مـن تركيـا وإيـران تسـعيان وتلعبـان أدواراً رئيسـة لتغيـير أنظمـة المنطقـة وإعـادة ترتيـب بيئتهـا السياسـية لصالحهـما، دون أن يصـل هـذا التغيـير إلى كوردسـتان المقسـمة بينهـما، ومـن هـذا التناقـض تتوالـد العديـد مـن المشـكلات الإضافيـة، وبـصرف النظـر عـن هـذه النظـرة المتخوفـة لا يمكـن

الفصل بين مسألة التغيير في الشرق الأوسط والملف الكوردستاني بأي شكل من الأشكال. في حين يظل دور القوى الأقليمية الأخرى ذا تأثير أقل، ولكن لا يمكن إهماله خاصة الدور السعودي والإسرائيلي، بعد تراجع الدور المصري.

حسب قراءتنا الأولية الراهنة، فإن مصير الشرق الأوسط أحيل مرة أخرى وبقوة إلى النظام الدولي الذي لم يبت بأمره ولم يفصح عن نفسه بصيغة أكثر وضوحاً مما هو عليه من عجز وترهل. النظام الدولي القائم افتراضاً مازال جامداً ويفتقد إلى الروح والفكر، يعاني من الجمود والتلكؤ، لدرجة يمكن توصيفه بأنه بات نظاماً محافظاً سلبياً، آخر ما يطلبه أو يقدر على تحقيقه هو تغيير البنية السياسية والدولتية للشرق الأوسط.

يمكن الاعتماد بهذا الخصوص على عشرات الآراء التي تؤكد سلبية النظام الإقليمي إزاء سيرورة التغيير الإقليمية: "هذا هو الخطأ التحليلي النهائي لحجة "نهاية سايكس- بيكو". الغرباء هم من قاموا برسم تلك الحدود. يبدو أن لا مصلحة لأي غريب بإعادة رسمها، أو بالاعتراف بإعادة رسمها في الوقت الراهن. ولا شكّ أن الولايات المتحدة لا ترغب بذلك. قدمت الولايات المتحدة رعايتها لحكومة إقليم كوردستان منذ نحو 25 سنة، إلا أنها لم تشجع الكورد يوماً على إعلان استقلالهم. ولم يقترح أي زعيم روسي أو صيني أو أوروبي عقد مؤتمر دولي لإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط. قد تشهد الدول هذه تفككاً داخلياً، وقد تنشأ سلطات "أمر واقع" حاكمة. ولكن لا يبدو أن رياح التغيير ستطال الحدود الدولية بحدّ ذاتها. يشهد كل عمل في الشرق الأوسط تصاعداً هاماً، مع خوض مختلف الجماعات المحلية والإقليمية معارك من أجل السيطرة على هذه الدول، ومع تقديم القوى الإقليمية المساعدة لحلفائها في هذه المعارك. ولكن يبدو أن هذه المعارك ستستمر، على الأقل رسمياً ومن حيث القانون الدولي، ضمن الحدود التي رسمها الفرنسيون والبريطانيون منذ نحو مئة عام. في الواقع، تعيش اتفاقية "سايكس – بيكو" طالما أن السلطة ضمن حدودها تتسم بالضعف".

لا تتوقف الآراء عند هذا الحد، بل ثمة من يرى، من أبناء الشرق الأوسط نفسه، أن عملية التغيير ستهدد الأمن الشرق أوسطي والأوروبي معاً، والتغيير هو مصدر الإرهاب الرئيس: "لذا فقد برز مؤخراً تفاهم كيري – لافروف، لرسم وإدارة الصراع وتحديد طبيعته ومستقبله في هذه المنطقة... لأن هذا المشهد الأمني والسياسي لم يكن، ولم يعد مقبولاً من قبل الدول الغربية وروسيا... وبما أن إعادة صياغة المنطقة جغرافياً يرتب مسؤوليات بالغة الصعوبة والتعقيد... كان لا بد من العمل على ضبط وتيرة الإيقاع الأمني ولجم انتشار الصراع المسلح أو على الأقل احتوائه والحد من تفاقمه".

بل أن بعض الأصوات بات ينتقد أوروبا لأنها تهمل وتستخف بالتفكك الحاصل في الشرق الأوسط، ويدعوها لممارسة المزيد من التحفظ إزاء المتغيرات، لأنها لا تنقذ تركتها ونظامها الذي خطته بدءاً بسايكس – بيكو، فهذا النظام يحمي أوروبا من مخاطر تفكك الشرق الأوسط.

إن ما أكد ويؤكد الطابع المحافظ للنظام العالمي، يتضح من عدم رغبته الصريحة في تغيير خريطة المنطقة، كما برزت وتمظهرت في عدم استعجال القوى العظمى وقلة حماستها لتغيير الأنظمة السياسية إبان مد الربيع العربي، وقد تلخصت عملية التحفظ في الموقف من بقاء نظام الحكم في دمشق، حيث كان سيشكل تغييره أحد أهم مفاتيح رسم مستقبل الشرق الأوسط، فالإصرار على بقاء النظام وتوافق القوى العظمى من أمريكا وروسيا إلى دول الاتحاد الأوروبي فالصين، هو مؤشر على الرغبة في البقاء والمحافظة على مجمل النظام الاقليمي العجوز والمترهل، وعدم المساس بمرتكزات بقائه واستمراريته.

• النتائج

في ظل هذا المشهد، وفي استشراف بسيط لمشهد السنوات القليلة القادمة، من غير المتوقع أن تشهد خارطة المنطقة، وبالتالي النظام الإقليمي الشرق أوسطي، تغيراً جذرياً، للاعتبارات الأساسية التالية:

1. لم يتبلور النظام العالمي الجديد ولم يترسخ بعد، وهو في حالة من الاضطراب يصعب معها الاتفاق على تغيير خارطة الشرق الأوسط الأكثر حساسية في العالم، فضلاً عن عدم وجود حماسة ورغبة لإجراء تغييرات جذرية، بل أن النظام الدولي الراهن متحفظ حتى على تغيير الأنظمة الاستبدادية، وما التجربة السورية إلا تأكيد وتصديق لذلك.

2. الدول العظمى: أمريكا، روسيا والاتحاد الأوروبي والصين غير متطلعة ولا مقتنعة بالتغيير، وإلا لحسمت أمر تغيير نظام الحكم في دمشق منذ العام 2012، حيث كان يعد تغييره مفتاحاً لمجمل المتغيرات وإعداد الخارطة الجديدة للمنطقة.

3. أي تغيير جذري في الخارطة يقتضي بالضرورة التأسيس لنظام إقليمي جديد، مترافق على الأرجح مع ولادة دولة كوردستان، وستكون هذه الولادة على حساب كل من أنقرة، طهران، بغداد، ودمشق، وهذا ما لم ترجحه ولم تقرره القوى العظمى بعد. فمصلحة الدول الأربع مجتمعة أهم من التمسك بحق الكورد في الاستقلال.

4. إن النظام الإقليمي الذي أسست له إتفاقية سايكس – بيكو، ضرب مصالح تركيا وألمانيا في حينه، ولكن تركيا الراهنة تدافع عن الاتفاقية بهدف الحفاظ على مصالحها المستجدة والمتمثلة بالحفاظ على آخر الأقاليم غير التركية وهو كوردستان، في الوقت نفسه مصلحة إيران تقتضي أن لا تتزعزع الحدود الحالية.

5. ألمانيا، المتضررة من النظامين الإقليمي والدولي طوال القرن الماضي، لا

تبدي طموحات سياسية واضحة في الشرق الأوسط، وهي ليست بصدد استرجاع نفوذها، ولا تفصح عن مستقبل علاقتها مع المنطقة عموماً وكوردستان خصوصاً. فبدون سياسة ألمانية جديدة وطموحة تصعب صياغة نظام دولي وإقليمي جديد.

6. سيظل قرار التغيير الرئيس للفترة القادمة بيد واشنطن التي لا تفصح عن جوهر سياساتها تجاه المنطقة، أو لم تتبلور بعد أهدافها الستراتيجية، وربما تعاني من خلافات داخل أطراف الإدارة الأمريكية. كما أن روسيا مازالت مترددة في مساندة الكورد، ولم تقرر تماماً أنها سترسخ موقع قدمها في كوردستان.

في الجانب الآخر، ثمة عوامل مؤثرة يجب أن تتوافر لترجيح عملية التغيير في المنطقة، وبالتالي تنهي النظام الإقليمي الكولونيالي وما تحت الكولونيالي اللذين تشكل اتفاقية سايكس – بيكو مفصلاً وعنواناً لهما، وهي:

1. توافق دولي على تغيير النظام الإقليمي الحالي، واقتراح الإطار العام البديل في إقليم الشرق الأوسط على أقل تقدير. لأن مشكلات الإقليم بما فيها الحرب على الإرهاب تتطلب ذلك.

2. إنهاك قوة اللاعبَين الرئيسين التقليديين الضابطين للنظام الإقليمي، تركيا وإيران، وبلوغهما درجة من الضعف لن يتمكنا معها من مقاومة عملية التغيير على الأرض، ولن يخوضا حروباً من أجل وقف سيل التغيير. وبالتالي ينبغي التخلص من متراحجة التوازن الإقليمي المزمنة: إيران – تركيا.

3. الشرط الرئيس الذي قد يهيء لتغيير الخارطة، ويشكل المسار الرئيس له يكمن في عملية استقلال كوردستان العراق أولاً، وهذا يتطلب ويستلزم موقفاً سياسياً كوردستانياً موحداً ومتحمساً لهكذا مسيرة استقلالية، فضلاً عن صعود استثنائي للقوة السياسية والعسكرية في عموم كوردستان. بمعنى ضرورة تحقق وحدة قومية شبه شاملة تحت قيادة موحدة، وتوحيد الجيوش الحالية وخاصة في إقليم كوردستان العراق ومناطق غرب كوردستان وسوريا، وزيادة

مطـردة في عددهـا وأسـلحتها بحيـث تكـون قـادرة عـلى المسـاهمة في تغيـير الحدود الحاليـة والمحافظـة عـلى الحـدود الجديـدة. هـذا مـا لا نتوقعـه في المنظـور القريـب بسـبب الخلافـات الجوهريـة بـين القـوى السياسـية الكوردسـتانية، ونتيجـة تـردد، بـل عـدم وجـود هكـذا هـدف لـدى عـدد مـن القـوى الكوردسـتانية الرئيسـة.

4. رغبـة العـرب السـنة في تغيـير النظـام الإقليمـي وأشـكال الـدول القائمـة خاصة العـراق وسـوريا، والتمهيـد لـه بتشـكيل أقليمَـين أو إقليـم موحـد في كل مـن سـوريا والعـراق (فـدرالي، كونفـدرالي) عـلى أنقـاض (الدولـة الإسـلامية في العـراق والشـام)، ويكـون محـرك هـذا المـشروع البيئـة الاجتماعيـة لسـكان محافظتـي الأنبـار وديـر الـزور، والتوافـق بـين نخبهـا السياسـية والقبائليـة، حتـى تعلـن رغبتهـا الصريحـة في إنهـاء أو تحديـد علاقاتهـا مـع مركـزي الحكـم في بغـداد ودمشـق، وذلـك بمباركـة خليجيـة – أردنيـة لأنهـما المعنيـان جيوسياسـياً بذلـك.

5. توحـد القيـادة الفلسـطينية وتنامـي فعاليتهـا بحيـث تدفـع باتجـاه حـل الدولتـين، أو الكونفدراليـة مـع الأردن.

6. اتفـاق القـوى العظمـى والـشركات الكـبرى المنتجـة للنفـط والغـاز حـول آليـات اسـتثمار الطاقـة وخاصـة الغـاز، والتوافـق عـلى طرائـق نقلهـا، بحيـث تؤمـن الخارطـة الجديـدة حسـن تسـويق النفط والغـاز وتلبيـة متطلبات إيصالهما بسـهولة إلى الاتحـاد الأوروبي بأرخـص الأثمـان، دون المسـاس بمصالـح روسـيا الاتحاديـة.

الحمولة السياسية والبعد التغييري لاستفتاء إقليم كوردستان العراق على الاستقلال[1]

مجموع التصريحات الأخيرة للعديد من القادة والدبلوماسيين في حكومات الغرب الرأسمالي والحكومات الأربع للدول (ما تحت الكولونيالية) التي تقتسم كوردستان وتنشر منذ أمد بعيد الإرهاب والفوضى والفساد في الشرق الأوسط، تذكّر وتستعيد أجواء معاهدة لوزان، التي تصادف هذه الأيام مرور 94 عاماً على توقيعها في (24 تموز 1923)، المعاهدة - الصفقة التي تم التنكر بموجبها لحقوق الشعب الكوردي، خاصة حقه في تقرير مصيره السياسي، لتطوى بالتالي صفحة استقلال كوردستان منذ ذلك الحين. يتم حالياً استرجاع مناخات صفقة لوزان التي رسمت عملياً حدود سوريا والعراق، وشرعنت ورسخت حكم الجمهورية الأتاتوركية على معظم مناطق كوردستان. التجربة الكوردية المريرة مع الغرب توحي بأن القوى الرأسمالية قد تعيد تكرار نفس الصفقات، فسلوك الدول العظمى في السنوات الأخيرة يؤكد بأنها غير جادة في تغيير أنظمة الحكم المستبدة ولا تسعى لعمليات تغيير جوهرية لبنى الدول التي ترسخت بعد الحرب العالمية الأولى، على الرغم من ارتجالية القرارات التي أوجدتها والمظالم التي نتجت عن تشكيلها، بل باتت حامية هياكل الدول وأنظمة الحكم اللاديمقراطية القائمة.

فحزمة خطابات دبلوماسية الدول العظمى وجملة كتابات أزلامها ومؤسساتها بخصوص عملية الاستفتاء المزمع إجراؤها يوم 25 أيلول القادم على استقلال إقليم كوردستان عن حكومة بغداد وفك الارتباط معها، أو إعادة

1. نشرت في موقع شبكة رووداو الاعلامية بتاريخ 27/7/2017 على الرابط:
http://www.rudaw.net/arabic/opinion/270720172

ترتيب الشراكة، كل هذا الكم من المواقف والتصريحات فضلاً عن التحليلات لا يثير التفاؤل، ولا يشجع القوى المطالبة بالتغيير والديمقراطية على المضي في مشروعها حتى النهايات القصوى.

التوجه العام للقوى الفاعلة دولياً أو للقوى الإقليمية في هذه المرحلة يميل وينحدر، من منظور عقلاني، نحو تثبيت الواقع السياسي والاجتماعي الراهن لعموم الشرق الأوسط، بمعنى أنها تهدف بصيغة ما لإعادة الأوضاع السياسية إلى ما قبل فعاليات الربيع العربي (2011) وكذلك إلى ما قبل ظهور (داعش) وما نجم عن ظهوره من خراب سياسي واقتصادي، فضلاً عن الخسائر البشرية والتضحيات الجسام التي قدمتها شعوب المنطقة وخاصة شعوب سوريا والعراق.

السمة العامة لهذه المرحلة تتمثل في عدم تقبل مراكز القرار الدولي والإقليمي متغيرات جذرية على الساحة الشرق أوسطية. بناء على هذا الافتراض تطرح جملة من الأسئلة المصيرية نفسها، لماذا إذن أعلنت هذه المراكز الحرب على الإرهاب؟ لماذا تم تخريب الكثير مما هو قائم في أغلب دول المنطقة خاصة سوريا والعراق؟! إن لم تكن الظروف الراهنة مواتية لإجراء عملية تغيير سياسي وبالتالي اقتصادي - اجتماعي في الشرق الأوسط عموماً، العراق وسوريا خصوصاً، فمتى ستتوفر تلك الظروف وتتهيأ شروط التغيير إذن؟! تساؤلات تنبغي الإجابة عليها أولاً من قبل النخب الثورية وناشطي حقوق الإنسان، كما أن أبناء الشعوب التي عانت من ويلات هذه الحرب معنيون بالإجابة وعدم انتظار مواقف الآخرين.

يبدو أن أحد أهم الإجابات على هذه التساؤلات، بل أحد أبرز الردود على مساعي تثبيت الواقع السياسي لما قبل انتفاضات التغيير التي انطلقت مطلع العام 2011 تمظهرت في أكثر من شكل ومسار، وأحد أهم المسارات المؤدية للتغيير يكمن في دعم النهج السياسي الذي حملت لواءه القوى الكوردستانية، العراقية والسورية، الهادفة إلى تغيير بنية نظامَي الحكم في

سـوريا والعـراق، عـبر التأسـيس لـشراكات سياسـية جديـدة، تغيـير الدسـتور وبالتـالي بنيـة الدولتـين الاسـتبداديتين.

لكـن الدعـوات التـي تتحجـج بـأن الوقـت لم يحـن بعـد، أو أن الاسـتفتاء سـيؤدي إلى الاسـتقلال فتفتيـت العـراق وباقـي دول المنطقـة، مبالـغ فيهـا وتهـدف أساسـاً إلى المحافظـة عـلى الوضـع الراهـن، بـل تخـدم بقـاء وتغـول أنظمـة الحكـم المسـتبدة في الـدول الأربـع المعنيـة بالملـف الكـوردي، نحـن نفـترض أن دعـوات المحافظـة عـلى الوضـع القائـم تلتقـي مـع دعـوات تجميـد الصراعـات وترحيلهـا للمرحلـة القادمـة وهـي تهـدف إلى الاسـتثمار مـن جديـد في حالـة عـدم الاسـتقرار والصراعـات القادمـة، بـل توفـر المنـاخ لهـا. فـلا يمكـن لـكل هـذه التضحيـات أن تذهـب سـدى، لا يمكـن أن تحافـظ هـذه الحـرب عـلى مرتكبيهـا ويتـم ترسـخيهم في السـلطة، ونفـترض أن عـدم تقبـل التغيـير الحقيقـي يفسـح الطريـق للانتقـال إلى المرحلـة الثانيـة مـن الصراعـات القوميـة والطائفيـة المركبـة والمعقـدة. لذلـك نجـد أن عـلى كل القـوى المحبـة للسـلم والداعيـة للديمقراطيـة والمسـاواة أن تؤيـد عمليـة الاسـتفتاء عـلى حـق تقريـر المصـير السـياسي لشـعب كوردسـتان العـراق، الـذي هـو في الوقـت نفسـه ممارسـة بالوكالـة لحـق كل شـعوب ومواطنـي المنطقـة في تقريـر مسـتقبلهم السـياسي وخطـوة عمليـة لرفـض الواقـع السـياسي المفـروض قـسراً عليهـم جميعـاً.

في الواقـع، لم يبـق مـن هـذا الحـراك الفاعـل سـوى جهـود القيـادة الكوردسـتانية في أربيـل السـاعية إلى إجـراء اسـتفتاء عـلى اسـتقلال إقليـم كوردسـتان العـراق، وهو تعبـير عـن الرفـض التـام للنظـام السـياسي القائـم في بغـداد مـن جهـة، وبالتـالي مقاومـة لعمليـة تجميـد سـيرورة التغيـير الـشرق أوسـطية مـن جهـة أخـرى.

ليسـت المنظـمات المتطرفـة ولا الخطـاب المنتـج لهـا أخطـر مـا تواجهـه شـعوب المنطقـة في المرحلـة القادمـة، بقـدر مـا تمثلـه المحافظـة عـلى الوضـع السـابق لـبروز هـذه المنظـمات. الكارثـة تكمـن في الإعـلان عـن أن الـشرق الأوسـط غـير قابـل للتغيـير وأن سرديـات حكومتـي بغـداد ودمشـق صحيحـة في مواجهتهـا للإرهـاب.

كـما يكمـن الخطـر في اختـزال أمـاني شـعوب المنطقـة بالعـودة إلى العهـد (الآمن) تحـت حكـم نفـس العقليـات، نفـس الحكومـات، نفـس المؤسسـات الاسـتخباراتية التـي تضافـرت جهودهـا لإنتـاج وتسـويق وتوجيـه القـوى المتطرفـة ودفعهـا نحـو ممارسـة المزيـد مـن الإرهـاب.

إن مـا يمكـن أن يفهمـه المراقـب مـن سـعي إقليـم كوردسـتان العـراق نحـو الاسـتفتاء عـلى الاسـتقلال، هـو الإعـلان عـن أن عمليـة التغيـير لا بـد أن تسـتمر وأن الحكومـات القائمـة لا تلبـي طموحـات شـعوب المنطقـة، فعمليـة التغيـير مرهونـة بنشـاط جماهـيري كبـير لإعـادة التأسـيس لشـكل وحـدود، فضـلاً عـن بنيـة ووظيفة، الـدول القائمـة. لأن مـن الخطـأ الاستسـلام للخطـاب الـذي يـروج لكـون الوقـت لم يحـن للتغيـير، وكـون الظـروف غـير ملائمـة لتغيـير جـذري في البنـى السـلطوية القائمـة. فالاستسـلام لهـذه الفرضيـة يشـجع هـذه الحكومـات مسـتقبلاً عـلى التآمـر مـن جديـد عـلى مصـير هـذا الجيـل الـذي طالـب بالتغيـير والعدالـة، هـذا الجيـل الـذي ناضـل وضحـى مـن أجـل بنـاء شرق أوسـط جديـد، مـدني وديمقراطـي. حيـث أنّ الديمقراطيـة وليـدة الاسـتقلال، سـواء عـلى المسـتوى الاجتماعـي- الفـردي أم المسـتوى القومـي.

باختصـار، لم يبـق أمـام الطلائـع الثوريـة والقـوى السـاعية لتحقيـق التغيـير الاجتماعـي والاقتصـادي في دول المنطقـة، إلا التركيـز عـلى الاسـتمرار في المطالبـة بالتغيـير وإن تنوعـت الطـرق والأسـاليب، ودعـم الجهـود الكوردسـتانية لترجمـة هـذا الحـراك الشـعبي إلى واقـع دسـتوري وعمليـة تغيـير كـبرى عـلى أرض الواقـع. فبـدون تغيـير هيكليـة دولـة العـراق والتأسـيس لـشراكات جديـدة، سـتذهب كل هـذه التضحيـات وتتناثـر بـدون ترجمتهـا إلى حقـوق وإنجـازات سياسـية.

بهـذا المعنـى يعـد الاسـتفتاء في جوهـره حـراكاً سياسـياً يختـزل جهـود القـوى المطالبـة بالتغيـير، يسـتجيب لطموحـات كل المكونـات التـي ظلمـت مـن سياسـات الحكـم السـابق سـواء في العـراق أم في سـوريا. لذلـك، إن لم يحصـل كوردسـتان

العـراق عـلى المزيـد مـن الحقـوق السياسـية بمـا فيهـا الاسـتقلال، فـإن الشـعوب والمكونـات الأخـرى في سـوريا والعـراق سـتحصل عـلى الخيبـة وسـيتراجع موقعهـا السـياسي إلى مرحلـة مـا قبـل 2011 وخاصـة العـرب السـنة الذيـن دفعـوا ضريبـة ثقيلـة عـن مجمـل الحـراك الشـعبي الـذي حصـل وكذلـك الحـرب القائمـة عـلى الإرهـاب.

ينبغـي لـكل القـوى السياسـية والفعاليـات الداعمـة لعمليـة التغيـير السـياسي في الـشرق الأوسـط أن تدعـم بقـوة عمليـة الاسـتفتاء عـلى اسـتقلال إقليـم كوردسـتان العـراق، ليـس لأنـه هـدف مبـاشر مـن أهدافهـا ومـدرج في برامجهـا، بـل لأن تجربـة إقليـم كوردسـتان العـراق هـي التجربـة – المـشروع الوحيـد الـذي يمكـن أن تقدمـه شـعوب المنطقـة كنمـوذج ودليـل عـلى قدرتهـا عـلى تقديـم مـا هـو أفضـل مـن أنظمـة الحكـم القائمـة، ولأنهـا العمليـة التغييريـة الوحيـدة الممكـن أن تسـتمر ومعهـا يتـم تأمـين بيئـة التغيـير الديمقراطـي في دولنـا التـي بـدأ يخطـط لهـا لتتحمـل مـا هـو أسـوأ، أي أن: "مجتمعاتهـا عاجـزة في السـنوات القليلـة القادمـة أن تقـدم أكـثر مـما قدمتـه، وأن الفـوضى والإرهـاب مرافقـان لمطالـب تغيـير نظـم الحكـم المسـتبدة القائمـة".

خلاصـة القـول هـي أن الحمولـة السياسـية التـي تحملهـا عمليـة الاسـتفتاء في إقليـم كوردسـتان العـراق متنوعـة وكبـيرة، فهـي أكـبر بكثـير مـن المسـتقبل السـياسي لكوردسـتان العـراق وطبيعـة العلاقـة مـع بغـداد، لأنهـا مـشروع يتـوج مسـار العمليـة السياسـية للسـنوات العـشر الماضيـة، ومسـعى يختـزل ويكثـف نضـال وتضحيـات أبنـاء شـعوب المنطقـة جميعـاً في سـبيل التعدديـة والديمقراطيـة والإصـلاح، إنهـا آخـر الخطـوات المهمـة والفعالـة في مقاومـة اسـتبداد وكولونياليـة أنظمـة الحكـم في الـدول الأربـع المعنيـة بالملـف الكـوردي، حيـث بـات الاسـتفتاءُ السـبيلَ الوحيـد والفعاليـة الممكنـة للتأسـيس لـشرق أوسـط جديـد وعـادل، يؤمـن الديمقراطيـة، المسـاواة والرفـاه لـكل مكوناتـه ومواطنيـه. يشـكل الاسـتفتاء ضمـن

الظـروف المشـخصة لطبيعـة المرحلـة، آخـر محـاولات تغيـير الواقـع السـياسي الظـالم والفاسـد، آخـر خنـادق مقاومـة جـور الحـكام، وإلا مـا معنـى أن يعـادي ويقـف في وجـه الاسـتفتاء عـدد مـن العواصـم الشرق-أوسـطية والغربيـة، وخاصـة طهـران وأنقـرة ودمشـق قبـل بغـداد؟!

كوردستان وكتالونيا أول ضحايا الرأسمال المقوى

خلال أسبوع واحد جرت عمليتا استفتاء على استقلال إقليمي كوردستان العراق وكتالونيا يومي (25 أيلول-1 تشرين الأول) من العام 2017، بعدها بشهر واحد تحولت الكرنفالات الديمقراطية في البلدين إلى مأساة سياسية واجتماعية، بل شكل الاستفتاء بحد ذاته عبئاً ثقيلاً على مشروع وطموح الشعبين في التحرر وحق مجتمعاتهما في تقرير مصيرهم السياسي. فكانتا المحاولة الأخيرة لإنشاء دول قومية جديدة على خارطة العالم.

على العكس من السردية المكررة ذات العلاقة بالحالة الكوردية، المتلخصة في أن استقلال كوردستان شبه مستحيل في ظل الظروف الجيوسياسية المعقدة ومواقف الدول ما تحت الكولونيالية التي تطوق كوردستان جغرافياً وتتشارك في استغلال ثرواتها منذ أمد بعيد، كان من المرجح، بناء على هذا الافتراض، أن تكون عملية استقلال كتالونيا حالة أوروبية سلسة، تنقصها حفلة كوكتيل، أو كتحصيل حاصل لنقل السيادة من مدريد إلى برشلونة، أي مجرد إجراءات ديمقراطية ودستورية. لكن ما حدث لكتالونيا شكل مفاجأة وصدمة للمراقبين، أكثر مما أحدثته عملية الغزو العسكري لإقليم كوردستان العراق ولاحقاً فرض الحصار عليه.

على العكس من كوردستان، لا يوجد في جوار كتالونيا حكم ولاية الفقيه ولا سلطة مطلقة لحزب أردوغان، كما أن جند المرجعية وفيلق القدس بعيدون تماماً عن برشلونة. فضلاً عن أنه لا توجد حقول نفط ولا اتفاقات سرية، ولا حتى عرف يثبت حق بريطانيا في استثمار نفط كركوك بهذه الطريقة أو تلك. لم يسقط مشروع استقلال كتالونيا بسبب غزو حشد

المرجعيات الدينية المسلح ولم يشرف على معاقبة برشلونة الجنرال قاسم سليماني. فأين تكمن إذن مشكلتا كتالونيا وكوردستان؟!

لقد نُشر العديد من التحليلات والسرديات حول النكسة السياسية التي حلت بمشروع استقلال كوردستان العراق، تعاطفَ العديد من الكتاب والساسة العرب وتفهموا سياق الحدث، حيث كان لمواقفهم النبيلة وقعها الطيب على نفوس الكورد المصدومين بلؤم الساسة الغربيين وفي مقدمتهم الثنائي تيلرسون-ماكغورك، في حين لم تتأثر الأوساط الكوردية كثيراً بالمواقف والدعوات الخافتة التي تتصاعد من بعض الأوساط الغربية لدعم وحماية إقليم كوردستان وعدم خسارة الكورد كقوة ديموغرافية وحليف للغرب في نواة الشرق الأوسط، بمن فيهم أعضاء في الكونغرس الأميركي، أو قيادات بارزة في الحكومات الأوروبية. في المحصلة يبدو أن الغشاوة المصاحبة لسذاجة ورومانسية الرهان على الغرب قد تبددت، وباتت تتحول إلى مرارة بالنسبة للنخب الكوردستانية، من الصعب إصلاحها بمواقف شخصية لأعضاء متعاطفين في مؤسسات أوروبية وأمريكية.

من جانب آخر عبرت الآراء الكوردية المستاءة عن نفسها بشكل تراجيدي، وتجسد أغلبها على شكل نقد سهل للذات الكوردية وإحالة موضوع فشل الاستفتاء وعدم مقاومة القوات الغازية إلى الفساد وانقسام الصف الكوردستاني، فضلاً عن التوقيت غير المناسب للاستفتاء وغدر الحلفاء والشركاء. بصرف النظر عن درجة صدقية هذه الآراء المتعاطفة، المتهكمة والمنتقدة، من زوايا محددة ومتباينة، مازال هنالك من يعتقد بصحة إجراء الاستفتاء وتوقيته السليم مع حدوث بعض التأخير، إذ لم يكن أمام المجتمعات الكوردستانية سبيل آخر سوى التعبير عن رأيها في تقرير المصير والمستقبل السياسي غير التأكيد من جديد على حقها في الاستقلال وبناء دولة كوردستان، فبدون السيادة الكاملة لن تتحقق التنمية، كما لن تكون هنالك جدوى من محاربة الفساد، فضلاً عن صعوبة تطبيق الديمقراطية، وصولاً للحكم الرشيد.

لـن نبالـغ إن وصفنـا عمليـة الاسـتفتاء بأنهـا كانـت قوميـة كورديـة شـاملة لـكل أجـزاء كوردسـتان، بـل أرجـح الـرأي الـذي عـد عمليـة الاسـتفتاء كأهـم مـشروع تغيـيري وآخـر حجـر تـم إلقـاؤه في بركـة الـشرق الأوسـط الآسـنة سياسـياً وفكريـاً.

لـكي نـدرك تمامـاً مـا حصـل في كوردسـتان بعـد سـقوط كركـوك، ونتعـرف عـلى حقيقـة إصرار قـوات حكومـة بغـداد وحلفائهـا عـلى الزحـف نحـو أعـالي إقليـم كوردسـتان العـراق، يجـب أن ندقـق في مـا حـل بمـشروع اسـتقلال كتالونيـا. مـن المفيـد أن نفـسر كارثـة كوردسـتان بدلالـة نكسـة كتالونيـا. فـأول النتائـج البسـيطة في هـذه المقارنـة تشـير إلى أنـه لم تعـد هنالـك قيمـة حتى لـرأي الشـعوب الأوروبية. مـا قامـت بـه القـوى السياسـية في كتالونيـا كان حدثـاً ديمقراطيـاً، جماهيريـاً واعيـاً وشـفافاً إلى أقـصى حـدود ودرجـات مصداقيـة التعبـير عـن الـرأي، بالتـالي عـن المصـير السـياسي. بـل كان مـن أهـم الأحـداث الجماهيريـة الواعيـة لخصوصيـة الهويـات المحليـة الأوروبيـة بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة وبعـد عهـد دكتاتوريـة فرانكـو في إسـبانيا. مـع ذلـك، تعـرض رأي هـذا الشـعب الحضـاري الأنيـق للسـخرية والاسـتهتار، وتـم ترجيـح سياسـات مـا فـوق شـعبية ومـا فـوق قوميـة، تلخصـت بالحفـاظ عـلى صلابـة ودكتاتوريـة الدولـة الأسـبانية الصلبـة.

كـما تـم إقـرار سياسـة منـع تشـكيل وإعـلان دول مسـتقلة جديـدة في ظـل حكـم الأحـزاب السياسـية الكبـيرة المهيمنـة عـلى الغـرب الأورو-أمريـكي وترجمتهـا عمليـاً، كيـف؟ ولمـاذا؟!

ينبغـي أن نتنبـه إلى أنـه في الأعـوام الثلاثـين الماضيـة تشـكلت حـوالي ثلاثـين دولة جديـدة وانضمـت إلى أسرة الـدول المسـتقلة. لكـن مـن الملاحـظ أن غالبيـة هـذه الـدول تأسسـت عـلى أنقـاض الاتحـاد السـوفييتي السـابق (خمـس عـشرة دولـة)، وعـن تفتـت يوغسـلافيا (سـبع دول)، كـما انقسـمت تشيكوسـلوفاكيا إلى دولتـين. الـدول التـي نشـأت خـارج إرث المنظومـة الاشـتراكية، كإريتريـا وتيمـور الشرقيـة وآخرهـا جنـوب السـودان (2011) اسـتثناءات قليلـة تثبـت القاعـدة، أمـا كوسـوفو

فمازالت أبرز دليل على ما نذهب إليه من تناقض شديد في مواقف الدول الغربية وتعدد المعايير، أي ثبات قاعدة عدم السماح بولادة دول جديدة إلا في سياق خدمة وصراع الغرب مع الجهات المعادية (كالمعسكر الاشتراكي السابق). هذا يعني أن الغرب وافق بعد الحرب العالمية الثانية على تفكيك الاتحاد السوفييتي ويوغسلافيا فقط، ولم يساعد الشعوب في تقرير مصيرها السياسي، فالليبرالية التي روج لها حلف الأطلسي بقيادة كل من (تاتشر، ريغان وهلمت كول) إبان تفكك الاتحاد السوفييتي، كانت ليبرالية مخادعة ومؤقتة، شكلت غطاء لفتح السبل أمام سهولة توحيد ألمانيا، تدفق الرأسمال وتسهيل حركة التجارة العالمية والسلع والبضائع شرقاً، لأن كتلة الدول الشرقية تحت غطاء حلف وارسو شكلت الحاجز أمام قفزة الرأسمال في مستواه المعلوم أواخر القرن العشرين. لقد كانت المنافسة الرأسمالية أكثر صعوبة بوجود معسكر شرقي ونموذج اشتراكي، نموذج الدول الاشتراكية، وإن لم يكن مشروعاً واعداً، لكنه كان مشروعاً رافضاً ومعرقلاً لتعميم النموذج الرأسمالي.

في المحصلة، تطلب تنامي الرأسمال عهدئذ مرونة ليبرالية في حقل الحريات وحقوق الإنسان وبالتالي حق الشعوب في تقرير مصيرها السياسي، خاصة في ترجمة ميلها الفطري لبناء دول قومية ذات سيادة. حيث تلاقت هذه الطموحات الاستقلالية مع أزمة المعسكر الاشتراكي، فتم استهداف الاتحاد السوفييتي وتفكيكه، وضم شرق أوروبا إلى نظام السوق الرأسمالي لغرب أوروبا.

لذلك فأول دلالات رفض استقلال كتالونيا وسجن دعاتها يعد وأداً للديمقراطية الليبرالية الغربية وانكشاف وجهها المخادع، فقد تم إسقاط إرادة الشعب الكتالوني الديمقراطية، ليس بواسطة البوليس الاسباني فحسب وإنما عن طريق البوليس والهيمنة السياسية لبروكسل أيضاً، التي اعتقلت فيها رئيسة البرلمان الكتالوني بطريقة مهينة.

لقد أثبتت تجربة كتالونيا أن الغرب الأورو-أمريكي ذو بنية اجتماعية وسياسية هشة، يشعر بالذعر من أي ممارسة ديمقراطية تحررية جذرية

لشعوبه ومكوناته المجتمعية. فهو من الضعف لدرجة أنه غير قادر حتى على تطبيق مواثيق الأمم المتحدة في حقل حقوق الإنسان والشعوب في تقرير مصيرها السياسي داخل الفضاء الأوروبي. هذا وقد تجددت المخاوف الأوروبية بعد فوز الأحزاب الداعمة لاستقلال كتالونيا نهاية العام 2017، مع احتمال توظيفها لنتائج الاستفتاء مستقبلاً، لدرجة قد تشكل كتالونيا حالة مشجعة لشعوب وأثنيات أخرى داخل إسبانيا ودول أوروبية أخرى.

يُعدّ الموقف الأورو-أمريكي من استقلال كتالونيا وقمع هذا التطلع بطريقة بوليسية بداية لمرحلة جديدة، وبداية لمرحلة أخرى، هي انتهاء الليبرالية المرافقة لزمن احترام الخصوصيات الثقافية والحريات بعد الحرب العالمية الثانية مرحلةً جديدة بدأت معها عمليةُ التهرب من استحقاقات العولمة وخاصة حرية الشعوب والجماعات في اختيار مستقبلها السياسي. إنها بداية مرحلة الهيمنة الشاملة للرأسمال الاحتكاري المتمظهر في صيغته العسكرية المسلحة.

- **الرأسمال المقوى (Reinforced Capitalism)**

منذ مطلع القرن الحادي والعشرين، تضافرت مجموعة عوامل على الانتقال بالمنظومة الرأسمالية العالمية نحو عهدها الجديد، وأبرز ملامح هذا العهد هو تفاقم التوترات الأمنية، تسارع صناعة وبيع الأسلحة، تراكم كبير للرأسمال النفطي والعقاري، تعويم آيديولوجيات دينية متطرفة، سيادة العسكرة وتراجع مسار التطور المدني للمجتمعات المعاصرة، ما يشجعنا على إضفاء طابع يمكن وصفه بالعسكري أو (المقوى) على المرحلة الرأسمالية الراهنة. كما أن هذا الرأسمال الذي نعرفه ونتلمس اتضاح ملامحه في سياق تفاعله ومواكبته لمرحلة تتعمق فيها المتغيرات، بدءاً بسياسات الحزب الجمهوري، تركيبة قيادته القادرة على التجريب والمجازفة في السياسات الأمريكية الخارجية. فالسنة الأولى من حكم ترامب تزامنت مع فراغ واضح للقيادات الحكيمة والكارزمية في أوروبا،

مـع تراجـع ملمـوس لـدور بريطانيـا، كذلـك فرنسـا وألمانيـا. لقـد توجـت قيـادة أمريـكا انعطافـة حـادة لترسـم للغـرب مسـار سياسـات مرحلـة الرأسـمال المقـوى التـي تحـددت وترافقـت بشـكل أوضـح مـع بـروز الخطـوط العامـة للسـتراتيجية الأمريكيـة، هـذه السـتراتيجية التـي تسـتند عـلى أمـوال وعقـول عسـكرية في المقـام الأول، ثـم عـلى احتـكارات الرأسـمال النفطـي والعقـاري في الدرجـة الثانيـة، بصفتهما مـن أركان الرأسـمال المقـوى المعـاصر. كـما أن طبيعـة مرحلـة الرأسـمال المقـوى تقتـضي أن يقـود الجـنرالات الساسـة في واشـنطن، بـل بـات القـادة العسـكريون يصنعـون الإطـار العـام للسياسـة العالميـة. يبـدو أن الإدارة الأمريكيـة الجديـدة تتجـه لتكـون عمليـة تـزاوج تطبيقيـة بـين المؤسسـتين العسـكرية – الأمنيـة والماليـة الرأسـمالية. لـكي تكـون الإدارة الجديـدة في واشـنطن خاصـة بـإدارة مرحلـة مـا بعـد ليبراليـة الرأسـمال العالمـي، تخطيـاً لمـا أسسـت ومهـدت لـه العولمـةُ معرفيـاً وتقنيـاً. ينبغـي بالـضرورة أن تكـون إدارة تعمـل عـلى ترسـيخ مرحلـة هيمنـة الرأسـمال المقـوى عـلى العـالم، التـي هـي في المحصلـة حلقـة ومرحلـة ناتجـة في أحـد أوجههـا عـن إخفاقـات الرأسـمالية التقليديـة، وتـأتي أيضـاً كـردّ فعـل سـلبي عـلى عـدم قـدرة الأحـزاب البورجوازيـة التقليديـة عـلى لبرلـة العـالم، في تعبـير متأخـر عـن فشـلها في حـل المشـاكل الرئيسـة للمجتمعـات المعـاصرة سـلمياً، كـما أنـه تلكـؤ صريـح في الإجابـة المعرفيـة والسياسـية عـن تسـاؤلات العـصر الكـبرى.

هـذه الخلاصـة تنبثـق وتسـتنتج أيضـاً مـن ملاحظـة عمليـة الاتحـاد الواسـعة بـين ممثـلي الرأسـمال النفطـي والعقـاري ومجمـوع الصناعـات العسـكرية، التـي تترجـم عمليـاً وتتجسـد في طبيعـة ونوعيـة طاقـم الجمهوريـين الحاكـم ضمـن إدارة ترامـب، حيـث يتحقـق عمـق وفعاليـة طاقـم الجمهوريـين حسـب قـوة شـبكة علاقاتهـم داخـل الحلـف الأطلـسي ومجموعـة العشريـن الأقـوى اقتصاديـاً في العـالم. تضافـر مجمـوع هـذه العوامـل مـع تضخـم عـدد الـشركات وتزايـد دورهـا عـلى حسـاب دور الدولـة القوميـة، أدى إلى تـآكل وتراجـع دور الـدول لصالـح تفاقـم دور

الـشركات، بخصـوص إدارة المـوارد الاقتصاديـة وحمايـة الملكيـة، فضـلاً عـن توقيـع العقـود وإتمـام الصفقـات. كـما أن حسـن تعامـل الـشركات الرأسـمالية مـع الـدول المركزيـة الصلبـة في أطـراف العـالم الرأسـمالي أفضـل لهـا بكثـير مـن التعامـل مع دول صغـيرة ناشـئة مـن هـذه الـدول، فتعامـل شركات النفـط مـع بغـداد أسـهل عليهـا مـن التعامـل مـع بغـداد وأربيـل معـاً.

لذلـك مـن المتوقـع أن يكـون للـشركات العملاقـة تأثيرهـا البالـغ عـلى توجيـه السياسـات الدوليـة نحـو العسـكرة، هـذا إن لم تكـن هـي التـي مهـدت أصـلاً لذلـك. لقـد بلـغ حجـم مبيعـات شركـة (لوكهيـد مارتـن) للصناعـات الحربيـة في أمريـكا، عـلى سـبيل المثـال لا الحـصر، للعـام 2009 فقـط 45 مليـار دولار، وبنـاء عـلى مثـل هـذه المعطيـات والمسـتجدات ينبغـي تصـور حجـم وفعاليـة باقـي شركات الصناعـات الحربيـة والنفطيـة عـلى الصعيـد العالمـي؟!

كـما قـد يمهـد حجـم الميزانيـة الأمريكيـة العسـكرية للعـام 2018 البالـغ سـبعمائة مليـار دولار لهـذا التحالـف الرأسـمالي المعـولم ويؤمّـن شروط حمايتـه، انتعاشـه وتفعيلـه. في ظـل هـذا المنـاخ الـذي تـم التأسـيس لـه منـذ مطلـع القـرن الحـادي والعشريـن، تزايـدت النفقـات العسـكرية لأغلـب الـدول الشرق-أوسـطية والآسـيوية، وكان آخرهـا تركيـا التـي رفعـت ميزانيتهـا العسـكرية لمسـتوى غـير مسـبوق، إذ رفعـت مصاريـف الدفـاع والأمـن المعلنـة للعـام 2018 إلى نحـو 31% عـلى مـما كانـت عليـه في العـام 2017، بمبلـغ يقـدر بخمسـة مليـارات دولار. في حـين تبـدو إيـران مسـتمرة في زيـادة مخصصـات الميزانيـة العسـكرية، وإن كانـت أرقامهـا الحقيقيـة سريـة، حيـث وافـق البرلمـان سـابقاً عـلى تخصيـص 520 مليـون دولار لتطويـر البرنامـج البالسـتي الإيـراني وتعزيـز النشـاطات الإقليميـة للحـرس الثـوري، بحيـث وصلـت الزيـادة السـنوية للعـام 2018 إلى حـوالي 40% ليتجـاوز الرقـم المعلـن 11 مليـار دولار.

يبـدو أن ظاهـرة تزايـد الإنفـاق العسـكري سـمة عالميـة مرافقـة، كـما أشرنـا

سابقاً، لمرحلة التحول البنيوي في طبيعة الرأسمال الاحتكاري، فقد ارتفع حجم صادرات السلاح على الصعيد العالمي خلال الخمس سنوات الأخيرة بنسبة 16% حتى بلغ مجموع الإنفاق العالمي على الأسلحة قرابة 1676 مليار دولار. مؤشرات الإنفاق العسكري في السنوات العشر المنصرمة (2007-2016) تبين تصاعد بيع الأسلحة وتضاعف الرأسمال المرتبط بالصناعات العسكرية. فبحسب معهد السلام في السويد – ستوكهولم، تشير إحصائيات مبيعات الأسلحة حول العالم إلى أن واردات الأسلحة لدول الشرق الأوسط قد ارتفعت بنسبة 86% ما بين الأعوام (2007 و2011 و2012 و2016).

وعلى نطاق إقليمي عربي، وخاصة منطقة الخليج، تبين المؤشرات أن صفقات شراء السلاح تأخذ منحى تصاعدياً متسارعاً بالمقارنة مع صفقات التسلح الإيرانية. فتشير الإحصائيات إلى أن استيراد السعودية للسلاح خلال السنوات الخمس الماضية ازداد بنسبة 212%، لدرجة باتت معها الميزانية العسكرية السعودية المرتبة الرابعة عالمياً ويتم تقديرها بحوالي ستين مليار دولار.

هذا وازداد تسلح الكويت بنسبة 175% وتسلح الإمارات العربية بنسبة 75% عما كان عليه سابقاً، فضلاً عن شراء قطر المزيد من الأسلحة بأرقام فلكية. علماً أن أمريكا حصلت على 50% من صفقات تسليح البلدان العربية، وجاءت بريطانيا، فرنسا وألمانيا في المراكز التالية في قائمة مصدري الأسلحة إلى البلدان العربية.

- **ضبط فوضى الإقليم**

كل هذا الإنفاق يمهد الطريق لحقيقة عسكرة المنطقة تماماً ودفعها نحو مزيد من الحروب، بالتالي هيمنة مشاريع الرأسمال المقوى على سياسات المنطقة، ودمج الرأسمال النفطي والعقاري الخليجي في سياسات الرأسمال العسكري العالمي.

في منحى موازٍ ومسبق التخطيط على الأرجح، استكمل مشروع هيمنة الرأسمال المقوى خارج الفضاء الأورو-أمريكي بسياقات عسكرة المرجعيات والأحزاب الدينية في العالم الإسلامي، إضافة إلى توظيف النزعة العسكرية لدى كوريا الشمالية، ليخضع العالم إلى ما يشبه حكومة عسكرية تفرض حالة الطوارئ، تشعل الحروب وتغذي الأزمات إعلامياً.

إن الانعطافة الجديدة في تحول طبيعة الرأسمال العالمي، وصيغ تراكمه في مراكز محددة من العالم، وجدت معادلها السياسي وتطبيقاتها السياسية المبسطة في محطتي منع تحرر كوردستان وكتالونيا، هذا ما يشجعنا على اعتبار مخاض تحرر كتالونيا حدثاً مفصلياً في تاريخ تطور الفكر السياسي الأوروبي وتطبيقاته على أرض الواقع. سنعده محطة جديدة، بحيث تتصف مرحلة ما بعد كتالونيا أساساً بهيمنة الحكومات المركزية الصلبة على الشعوب الضعيفة، للمحافظة ليس على قوة وتماسك الدول القائمة وإنما وبنفس المستوى على قوة ووحدة الرأسمال العالمي وحسن سير أعمال الشركات وتراكم أرباحها، فاستيلاء حكومة بغداد على حقول النفط في كركوك لها علاقة مباشرة مع توجهات شركات النفط وسياساتها، التي تظل ذات علاقة وثيقة ببريطانيا والخارجية الأمريكية. كما نشرت مدريد من جهة أخرى إحصائية ذات دلالة واضحة تبين أن خسائر الاقتصاد الإسباني من جراء الاستفتاء في كتالونيا حتى نهاية العام 2017 بلغت مليار دولار. ما حصل لكتالونيا على خارطة أوروبا هو أقسى بكثير مما حدث لإقليم كوردستان العراق - وهما باختصار ضحية لتغيير عميق في توجهات وسياسات مراكز القرار الأورو-أمريكي. علماً أن كوردستان ليس لديها لا ثقافة ولا تقدم ولا اقتصاد كتالونيا السياحي المتطور، كما ليس لها بحر ولا هي في قلب أوروبا الغربية، وليست مجاورة لفرنسا وسويسرا. كتالونيا أكبر بكثير من لختشتاين (مساحتها 160 كيلومتراً مربعاً ويبلغ عدد سكانها 35 ألفاً) وكذلك لوكسمبورغ (مساحتها تساوي حوالي ألفين وخمسمائة كيلومتر مربع بإجمالي عدد سكان يقارب نصف مليون بما فيهم الأجانب)، وهما من أصغر

دول أوروبا والعالم التي لا تقع على سواحل البحار. لكن العديد من الدول المكروسكوبية قد استقل سابقاً وحافظ على خياراته السياسية والسيادية بفضل مناخات احترام ثقافات الشعوب في المرحلة الليبرالية من جهة، وعدم تعارض استقلال هذه الدويلات مع مسارات تطور وحركة الرأسمال من جهة أخرى. لكن ما حدث راهناً، إلى جانب عدم احترام إرداة شعب كتالونيا الأوروبي، كان ترجيح المصالح السياسية والمالية العليا لحكومات الغرب، وتم غزو كوردستان وهدر حق شعبها في التعبير عن طموحاته الديمقراطية تحت إشراف أمريكي مباشر وبواسطة دبابات أبرامز.

ليس بالضرورة، ضمن معادلات القوة الراهنة، أن تتم مواجهة جحافل الحكام الطغاة وقواتها الغازية لكوردستان عسكرياً. فمن الخطأ هدر دماء أبناء العراق واستنزاف قوى المجتمعات الإسلامية في مناخ هيمنة منظومة الغرب غير الديمقراطية على العالم. فالتجارب تثبت أن السيادة لا يمكن استجداؤها ولا استيرادها من الغرب الرأسمالي الذي تبين أنه غير مهيأ لمنحها حتى لشعوبه، إنما تأتي السيادة وتنبثق بالضرورة من احترام حقوق الآخر، سيادة ثقافة القانون والوعي بحقوق جميع الشعوب والمكونات. ينبغي أيضاً في هذه المستجدات تلمس خطورة توجه الشرق الأوسط إلى العسكرة ومزيد من الصراعات.

كوردستان ما بعد كتالونيا لم تعد بحاجة للكرنفالات الديمقراطية ولا للحشود الجماهيرية، لم تعد بحاجة إلى جيوش جرارة ولا إلى مشروع لشق قناة الى البحر، فكل هذه العوامل لن يشكل رافعة للاستقلال. إن التمسك بحق السيادة والوعي به، ينبثق أولاً عن مفهوم الكرامة والمواطنة والابتعاد عن الصفقات السياسية المريبة، وسينبثق عن وحدة صف القوى الكوردستانية وحلفائهم في الجوار القريب، كما سيؤسَّس بالضرورة على احترام إرادة الجوار، وتلمس أفق التحرر العام من هيمنة الرأسمال المقوى والتخفيف من أضراره.

حجر الزاوية في مشروع استقلال شعوب كوردستان يكمن في إعادة جدولة التحالفات، التأسيس لشراكات مع العرب في الجوار بشكل خاص، فالمجتمعات العربية المجاورة لكوردستان هي أيضاً لم تقرر مصيرها السياسي، فهم مازالوا مسلوبي الإرادة الحقيقية، لذلك ينبغي التأني في محاربة جيش ولاية الفقيه وكذلك ميليشيات السلطان فهي مفروضة على العرب قبل الكورد، وهي تكمل مسار مشروع عسكرة الشرق الأوسط، تتكامل وتتفاعل مع ظاهرة تعميم وترسخ دكتاتورية الرأسمال المقوى.

ثمة حقيقة مرة تكشف عنها أحداث العام 2017، وتكمن بشكل فاقع في أن السيادة العربية، خاصة في سوريا والعراق قد استلبت لصالح هيمنة إيران وتركيا على الشرق الأوسط، وأن كلاً من تركيا وإيران تقومان بتطويق أكبر قوتين عربيتين، هما السعودية ومصر، فقد زرعت كل من تركيا وإيران قواعدها العسكرية على محيط الجزيرة العربية وبالقرب من أكبر دولتين عربيتين، نشرتا جنودهما وكأنهما ستبدآن قريباً بغزو السعودية، الإمارات أو مصر.

بناء على هذا المشهد العام المتوتر وتأثيره العميق على المسارات السياسية، باتت المعركة إقليمية عامة، معركة الشعوب المغلوبة على أمرها ضد هيمنة النظام الرأسمالي العالمي المسلح ووكلائه في المنطقة. لذلك فالوعي بتحالف واسع بات ضرورياً، بل واجباً ومهماً للكورد قبل غيرهم، فالتحالف مع عرب الجوار هو أكثر الأهم بالنسبة لمستقبل شعوب كوردستان، هذا لا يعني معاداة الغرب، إنما تقديم الأولويات وتغليب الرئيس على الفرعي، خاصة في بعده الستراتيجي الإقليمي. فالغرب بمنظومته الرأسمالية الجديدة قام بفعلته الأخيرة، مستهتراً بحق الشعوب المتطلعة للتحرر، متمسكاً بنظام الهيمنة الشامل الذي لا يحترم طموحات الشعوب الصغيرة، خاصة في الأطراف.

المسألة الجوهرية بالنسبة لكوردستان ما بعد كتالونيا هو العمل على ترسيخ

الوعـي بفقـه الجـوار، تضافـر الجهـود لوضـع حـد لهيمنـة (الكولونياليـة الإقليميـة) الجديـدة، التـي تترسـخ بقيـادة إيرانيـة – تركيـة مشـتركة، هـذه الكولونياليـة التـي تحـاول السـيطرة عـلى الخليـج، فالبحريـن الأبيـض المتوسـط والأحمـر، إن لم يكونـا متوافقـين مـع الغـرب الرأسـمالي، فهـما في علاقـة عضويـة معهـا. لأن مـا حـدث لكتالونيـا ولكوردسـتان هـو نتيجـة موضوعيـة لعطـب وجـور النظامـين العالمـي والإقليمـي، نظـام بـدأ يتخـلى عـن أبسـط أسسـه الأخلاقيـة والثقافيـة السـابقة، التـي كانـت تسـتند عـلى حقـوق الإنسـان وحـق الشـعوب في تقريـر مصيرهـا السـياسي. لذلـك يبـدو مـن المتعـذر درء مخاطـر هـذا النظـام الجائـر، الفاقـد للحـد الأدنى مـن القيـم الإنسـانية، إلا بإعـادة قـراءة كل الأساسـيات والمسـلمات التـي سـيطرت عـلى المخيلـة الجمعيـة لنخـب وطلائـع أبنـاء المنطقـة، بمـا فيـه قضايـا الدولـة الوطنيـة والقوميـة، أفـق التحالفـات، بنـاء جبهـات واسـعة لـدرء المخاطـر والسـيول السياسـية الجارفـة. فـإذا كان اسـتقلال كوردسـتان غـير مرحـب بـه دوليـاً وإقليميـاً فينبغـي لـه أن يكـون متوافقـاً مـع مـشروع وحـدة وتضامـن الشـعوب العربيـة في مواجهـة الهيمنـة الإيرانيـة – التركيـة تحـت غطـاء الرأسـمال المقـوى الـذي يبسـط خيمتـه عالميـاً. كذلـك لتجنـب مـا يمكـن مـن الاضطرابـات السـلبية وضبـط الفـوضى الإقليميـة القادمـة.

القسم الثالث

معرفة الكورد عربياً [1]

إثـر التحـولات السياسـية والثـورة التكنولوجيـة في مجـال الاتصـالات والإعـلام في السـنوات الأخـيرة بـرزت عـلى السـاحة الدوليـة قضايـا سياسـية عديـدة، وخاصـة قضايـا الشـعوب والأقليـات القوميـة والدينيـة التـي تتعـرض للاضطهـاد والاضمحلال. وتـأتي قضيـة الشـعب الكـوردي في منطقـة الـشرق الأدنى في صـدارة هـذه القضايـا.

طغـت المسـألة الكورديـة في العـراق عـلى مجمـوع القضايـا التـي تشـغل المثقفين العـرب بعـد حـرب الخليـج الثانيـة. ثـم تراجعـت المسـألة الكورديـة بشـكل مفاجـئ عـلى جـدول أعـمال المثقـف العـربي المهتـم والمختص.

ويمكـن الافـتراض بدايـة أن الموضـوع الكـوردي لم يؤسَّـس لـه عربيـاً، وظـل بعيـداً عـن التنـاول العلمـي والمعرفـة الموضوعيـة بجـذوره، وأقصـد هنـا تحديـداً معرفـة الكـورد في سـياق التاريـخ، وكذلـك معطيـات الواقـع المعـاصر. فلجـأ البعـض إلى الكتـب والموسـوعات المتوافـرة في السـوق أو في المكتبـات، وأغلبهـا لمسـتشرقين ومترجمـين عـرب، بهـدف الاطـلاع السريـع عـلى جوانـب هـذا الملـف السـاخن، ولسـد الثغـرة المعرفيـة الموجـودة أصـلاً في الثقافـة العربيـة السياسـية المعـاصرة بخصـوص الموضـوع الكـوردي. ولهـذا سـأحاول التطـرق لجانـب مـن آليـات تشـكل المعرفـة العربيـة الراهنـة بالمسـألة الكورديـة، وبالتـالي محاولـة رصـد صـورة الكـورد المرتسـمة في الذهنيـة العربيـة المعـاصرة. وبالقـدر نفسـه أود التنبيـه لـضرورة أن تكـون هنالـك قـراءة عربيـة متعمقـة للمسـألة الكورديـة. ويقتـضي ذلـك تملـك مفاتيـح عربيـة خاصـة لمعرفـة وتفهـم وحـل هـذه القضيـة.

1. نشرت في موقع شبكة رووادو الاعلامية بتاريخ 31/8/2014 على الرابط:
http://www.rudaw.net/arabic/opinion/01092014

ولا يتحقق ذلك إلا بعد أن يتم تصحيح الصورة والمشهد من الناحية المعرفية العامة، ثم معالجة نتائجها سياسياً.

في منتصف عقد التسعينات من القرن الماضي ورد في النشرة الرئيسة لأخبار تلفزيون دمشق الحكومي الخبر التالي: "انسحب أربعة من نواب المعارضة العراقية من البرلمان التركي..." كل من سمع الخبر يومئذ اعتقد أن خطأ مطبعياً قد حدث في إعداد أو قراءة الخبر، وإلا كيف ينسحب أعضاء من المعارضة العراقية من برلمان تركيا؟! وبعد عدة سنوات من إذاعة هذا الخبر عرفت مصادفة أنه كان هنالك تعميم رسمي يومها: "إذ عممت وزارة الإعلام في دمشق بضرورة الالتزام باستبدال اسم "الكوردي" بـ"المعارضة العراقية" أينما ورد في الصحف والنشرات الإخبارية في الإعلام الرسمي السوري، أي بضرورة استبدال كلمة كوردي أو كوردستاني بالمعارضة العراقية أينما وردت. وبذلك نكتشف أن أصل الخبر كان: "انسحب أربعة من النواب الكورد من البرلمان التركي".

مثلت هذه الحادثة ذروة النهج الفضائحي للإعلام العربي "البعثي" الذي عمل على تزييف الواقع وتشويهه. لأنه قبل إذاعة هذا الخبر بأكثر من نصف قرن، نجد في مستهل كتاب "دروس تاريخ الشرق والغرب، محمد نجيب الجزار، طبع ونشر مكتبة طباخ إخوان حلب، 1946" الذي كان يدرس لطلاب شهادة الكفاءة (الإعدادية) في مدارس سوريا، فقرة مطولة تشرح طبيعة حكم المماليك في سوريا: "المماليك هم فئة من الرقيق، أتى بهم النخاسون من نواحي تركستان وقفقاسيا، فكان هؤلاء يشترون أجمل وأذكى أبناء القفقاسيين والقزوينين من جركس وكرج وأرمن وأتراك، فيبيعونهم لملوك وأمراء مصر وسوريا الكورد، الذين ورثوا ملك صلاح الدين الأيوبي. وهؤلاء كانوا يربون المماليك في قصورهم تربية حسنة، ويدربونهم على الحرب والفروسية، ويعلمونهم اللغة العربية والفقه والحساب وسائر العلوم التي تؤهلهم للاستخدام في مناصب

الدولـة. وكان الأمـراء الكـورد يقربـون النابغـين مـن مماليكهـم ويعتمـدون عليهـم في تأمـين الأمـن وقيـادة الجيـوش، وإدارة المـدن، وتدبـير الملـك، وكثـيراً مـا طمـع هـؤلاء المماليـك بالإمـارة بـل بالملـك ذاتـه، حتـى ارتقـى بعضهـم إلى منصـة الملـك والسـلطنة. وهكـذا نشـأ عـلى أنقـاض الدولـة الأيوبيـة دول طوائـف حديثـة مـن هـذا النـوع عرفـت فيـما بعـد بـدول (المماليـك)" ص1.

إذاً في أواسـط القـرن العشريـن، وفي سـياق تعليـم تاريـخ سـوريا تـم التأكيـد عـلى أن الأمـراء والفرسـان الكـورد كانـوا حكامـاً لبـلاد الشـام، وولاة عـلى مناطـق عديـدة مـن المـشرق منـذ مطلـع الألـف الأول الميـلادي، وبالتـالي لم تكـن سياسـة التشـويه التاريخـي وتزييـف الوعـي قـد بـدأت حتـى تلـك المرحلـة، عنـد سرد تاريخ المنطقـة. لكـن وخـلال نصـف قـرن بـين التاريخـين المذكوريـن أعـلاه، شـنت عـلى أوسـع نطـاق حملـةٌ مـن التشـويه المعـرفي والعلمـي، تهـدف إلى إلغـاء كل مـا هـو متعلـق بالكـورد وتاريخهـم وحاضرهـم، وتوظيـف مخرجـات ونتائج عمليـة التزييف تلـك في السياسـة والحكـم. الحملـة كانـت منظمـة ومؤدلجـة، انتـشرت عـلى نطـاق جغـرافي واسـع، تجـاوزت حـدود سـوريا وبـلاد الشـام والعـراق. كان التوجـه فرديـاً عنـد البعـض وحزبيـاً عنـد البعـض الآخـر، لكنـه في المحصلـة وصـل إلى صعيـد المؤسسـات ضمـن حكـم حـزب البعـث في كل مـن سـوريا والعـراق، وباتـت سياسـة ومنهجـاً لهـا. جـاء ذلـك في إطـار سلسـلة مـن الإجـراءات والسياسـات الثقافيـة والخطـط التعليميـة للتعتيـم عـلى الموضـوع الكـوردي معرفيـاً، أولاً: (تاريخيـاً، جغرافيـاً، ثقافيـاً)، ثـم سياسـياً وإعلاميـاً في المقـام الثـاني. هـذه السياسـات المنهجيـة بـدأت بالمـدارس والجامعـات، ولا داعـي لذكـر التفاصيـل وعـشرات الأمثلـة عـن تغيـير الخرائـط ومنـع تـداول الكتـب وإعارتهـا في المكتبـات العامـة، وصـولاً إلى إعـادة كتابـة التاريـخ، بهـدف التعتيـم عـلى حقيقـة الوجـود الكـوردي وفعاليتـه، ثـم تشـويهه، فنسـيانه.

كانـت النكتـة الإعلاميـة السـابقة الذكـر الـذروة والمنعطف في سياسـات التشـويه

وتغيير الحقائق كلياً، وصولاً إلى الكذب على الواقع وخداع المتلقي والقارئ العربي. وبالتالي لم يعد من الممكن لفرد أو جهة ذات إمكانات متواضعة الرد على هذا السيل من المعلومات المعكوسة والتشويهات والأكاذيب، إبان فترة تاريخية طويلة نسبياً. فتأثر عموم الثقافة العربية المعاصرة، أفراداً ومؤسسات، بدرجة أو بأخرى بهذه الحملة التضليلية، إلى أن وصلنا إلى ما يمكن أن نسميه سياسة التجهيل والجهل بالموضوع الكوردي جملة وتفصيلاً.

وهكذا، ليس مستغرباً أن لا يعرف المواطن، بل المثقف، العربي شيئاً ذا قيمة جوهرية وموضوعية عن واقع الكورد وتاريخهم. لأن الموضوع تمت صياغته وإخراجه من جديد خلال حقبة تاريخية معاصرة طويلة، تأسس فيها بطريقة أو بأخرى الوعي المعرفي العربي المعاصر. فقد تشكل هذا الوعي في خطه العام تحت تأثير عاملَي التعليم المدرسي والإعلام المعاصر.

بين هاتين المحطتين الأولى "التوصيف المدرسي للكورد كفرسان نبلاء وحكام للمشرق" والشطب الأخير لمفردتي "الكورد وكوردستان" في إعلام نظام البعث، مر نصف قرن من التشويه المقصود لتاريخ المنطقة، وحجبت المعلومات والمعارف عن طلبة المدارس والجامعات وجمهور العامة. بل تم تغيير كل المعلومات والإشارات الصحيحة الدالة على أصل الكورد وتاريخهم ودورهم المميز في دول وحضارات المنطقة وبخاصة الحضارة العربية الإسلامية. وبالتالي تراجعت معرفة العربي لتاريخه وواقعه بدلالة معرفة تاريخ الكورد وغيرهم من الشعوب المجاورة. إذاً ليس من دواعي الاستغراب أن يتجاهل الجيل العربي الجديد المسألة الكوردية، بل أن تكون معرفته بالكورد قليلة، مشوهة أو مفبركة في أفضل الحالات.

ما استوقفني في هذا الموضوع هو كثافة تناول التراث المعرفي العربي للكورد كمجموعة إثنية وأمة، فقد أخذ حقه الكامل في أمهات كتب التاريخ والأنساب والجغرافيا والفقه، مقابل فقر معرفي معاصر.

فقلـما يخلـو مرجـع أو مصـدر مـن المصـادر التاريخيـة العربيـة مـن توصيـف الكـورد، كـما تتضمـن كثافـة في المعلومـات المتعلقـة بهـم، جغرافيـاً وعمرانيـاً واجتماعيـاً. حيـث نـال الموضـوع الكـوردي اهتمامـاً كبـيراً مـن الأعـلام المسـلمين، فتمـت معالجتـه علميـاً، وذلـك ضمـن شرطـه وسـياقه التاريخـي. في حـين لم يأخـذ الموضـوع الكـوردي الحـد الأدنى مـن اهتـمام المثقفـين العـرب وكذلـك المؤرخـين المعاصريـن. لقـد أهملـت المسـألة الكورديـة معرفيـاً عـلى الرغـم مـن أن الكـورد هـم أقـرب الشـعوب جغرافيـاً واجتماعيـاً إلى العـرب. وهـذه الحقيقـة البسـيطة لم تحـرض ذهـن الدارسـين والباحثـين العـرب المعاصريـن، بقـدر مـا أثـارت اهتـمام وفضـول البلدانيـين العـرب الأوائـل، فعـلى سـبيل المثـال، أسـس مفتـي دمشـق المـؤرخ ابـن فضـل اللـه العمـري (تـوفي في حـوالي العـام 1300م) لأهميـة موضوعـة الجـوار الجغـرافي العـربي - الكـوردي، فحـدد جغرافيـة تواجـد الكـورد قبـل القـرن الثالـث عـشر الميـلادي في كتابـه الموسـوعي مسـالك الأبصـار في ممالـك الأمصـار بدقـة، في الوقـت الـذي مـال في توصيفـه إلى ربـط الجغرافيـة السـكانية للكـورد مـع البـلاد العربيـة أكـثر مـن ربطهـا بالجبـال في شـمال بـلاد الرافديـن وسـوريا، فبـين عصرئـذ: ""الفصـل الأول في الكـورد. الـذي نقـول وباللـه التوفيـق إن الكـورد وإن دخـل في نوعهـم كل جنـس يـأتي ذكـره في هـذه الفصـول، فإنهـم جنـس خـاص مـن نـوع عـام، وهـم مَـن قـاربَ العـراقَ وديـار العـرب دون توغـل في بـلاد العجـم. ومنهـم طوائـف بالشـام واليمـن، ومنهـم فـرق متفرقـة في الأقطـار، وحـول العـراقِ وديـار العـرب جمهرتُهـم. وغلـب في زماننـا بمـا يقـارب ماردِيـن... ولم أذكـر مـن عشـائرها إلا مـن كنـت بـه خبـيراً أو لم اسـم فيهـا إلا بيـت ملـك أو إمـارة تبـدأ بجبـال همـذان وشـهرزور وأربـل وتنتهـي إلى دجلـة الجزيـرة مـن كـوار إلى الموصـل ونـترك مـا وراء دجلـة إلى نهـر الفـرات لقلـة الاحتفـال بـه. عـلى أن مـا ذكرتـه هـو خلاصـة المقصـود. إذ لم يبـق إلا كـورد الجزيـرة وقـرى ماردِيـن وهـم لـكل مـن جاورهـم مـن الأعـداء الماردِيـن، مـع أن أماكنهـم ليسـت منيعـة ومسـاكنهم

للعصيان غير مستطيعة"، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجلد الرابع.

فإذا كان المثقف والباحث العربي لم يتنبه إلى حقيقة مقاربة المصادر العربية لتاريخ الكورد وعلاقتهم الوطيدة بالعرب في إطار الدولة العربية الإسلامية، فإن كل من كان على علم بهذه المعارف يتحمل جزءاً من هذه المسؤولية، أي مسؤولية عدم الكشف عن هذا الغنى المعرفي في مصادر التاريخ العربي وكتب التراجم والأعلام العربية، التي شكلت أهم مصدر لمعرفة الكورد منذ أكثر من ألف وثلاثمائة عام، وحتى العقود القليلة الماضية. إننا جميعاً نتحمل مسؤولية حجب هذه المعلومات وطريقة توظيف الجهل بها لأغراض سياسية وحزبية و"قومية" ضيقة. وعلى الرغم من سخونة المسألة الكوردية إلا أن الإعلام الرسمي العربي ومناهج التعليم لم تولِ أية أهمية لمعرفة هذا الشعب "الجار" الذي يشكل حلقة وصل مع الجوار الأبعد، وثمة توافق "ثقافي" عربي على إهمال كل ما هو متعلق بالكورد بطريقة ما، تناسي تاريخهم وبلادهم، كونها من الألغام التي لا يحبذ الاقتراب منها. فقد يكون لهذا التهرب من الموضوع الكوردي واستحقاقاته ارتباط مع طبيعة الثقافة العربية المعاصرة وتكشف عن بعض عيوبها. والأغرب من كل ذلك أن مجال البحث العلمي العربي، خاصة في الدراسات السوسيولوجية والسياسية وحتى الجغرافية منها لم تقارب الموضوع الكوردي الغني بمخزونه لكل باحث.

إن عدم التنبه إلى أهمية الجوار العربي- الكوردي، أولاً من الناحية المعرفية - التاريخية ثم الجيوسياسية، يشكل نقطة ضعف كبيرة للثقافة والمعارف العربية المعاصرة. كما أن هذه المعرفة المفترضة لم تعطِ أي أهمية لاحتمالات تحولات مستقبلية ذات صلة ومتفاعلة مع هذا القرب الجغرافي، وإنما اتخذت سياسة التجاهل والتهرب من الموضوع ذاته أساساً للتناول. حدث ذلك على الأرجح كاستعارة من سياسة القوميين العرب في بلاد الشام والعراق، وعمم عربياً، حيث كان أحد أهم أسس عملها ومعالجتها للموضوع الكوردي هو

إخفاء وإلغاء الحقائق، وشطب كل ما هو متعلق بالكورد، بدءاً بالتاريخ وصولاً إلى الجغرافيا مروراً بالسكان، واندرجت ضمن الفئة الأخيرة النخب العلمية والعسكرية والإدارية التي كانت فاعلة في بلاد العرب نفسها، ومازال أحفادهم من مواطنيها. وكانت الحصيلة أن جهات إعلامية وثقافية عربية عديدة عملت على ترسيخ حالة الجهل بالمشترك الكوردي- العربي بكل أبعاده وتنوعه.

لقد توجت سياسة التجهيل والتزييف المعرفي هذه وترافقت مع ممارسات عملية بدأت بإقصاء الكورد عن المناصب العسكرية الذين كانوا يشغلونها منذ أواخر العهد الأموي، وكذلك إبعادهم عن الإدارات، وبعض مفاصل الحكم التي اكتسبوها عبر التاريخ في بلاد الشام والعراق ومصر.

فإذا كان هذا هو الخط العام لعمل قنوات الإعلام وسياسيات بعض المؤسسات الإعلامية والثقافية العربية، فليس مستغرباً أن لا يعرف العامة، بل حتى المثقف العربي، شيئاً ذا قيمة عن واقع الكورد الراهن وتاريخهم.

وما زاد الموضوع تشويشاً وتعقيداً أن أغلب المثقفين العرب من إعلاميين وكتاب بل وباحثين لم يتعرفوا على الكورد عن طريق المصادر العربية الأم، لتكوين تصور تاريخي أكثر موضوعية ودقة، وللتعرف على جوانب مختلفة من حياتهم الاجتماعية والسياسية، وإنما اعتمدوا عند الحاجة على مصادر استشراقية وغربية متواضعة وغير موضوعية في الغالب. وإذا استثنينا بعض الإشارات القديمة لأصل الكورد، وما ورد عند اليونان، تظل المصادر العربية هي الأساس والأصل في معرفة الكورد في القرون الوسطى. فالعرب هم أول من ذكر الكورد كشعب وأمة ودرسوا حياتهم وحددوا جغرافية بلادهم. لذلك لابد للمعرفة التاريخية الموضوعية بالكورد أن تبدأ بالمصادر العربية الأم، هذه المصادر التي لم تتأثر بأيديولوجيا محددة ولم تخضع لضغوطات سياسية أو تعاميم لوزارات الإعلام المعاصرة. كما أن معظم المعلومات الواردة في المصادر

العربيـة منقولـة مـن مصـادر أقـدم، أو متأتيـة مـن مشـاهدات المؤلفـين العـرب الأوائـل أنفسـهم. وهـي في غايـة الإسـهاب والتفصيـل، وسـأذكر البعـض منهـا عـلى سـبيل التذكـير فحسـب: تاريـخ اليعقـوبي- البـلاذري في "فتـوح البلـدان"- المسـعودي في "التنبـه والإشراف، ومـروج الذهـب"- الدينـوري في كتـاب "الأخبـار الطـوال"- الطـبري في "تاريـخ الرسـل"- إبـن الأثـير الجـزري في "الكامـل في التاريـخ"- إبـن فضـل اللـه العمـري القـرشي في "مسـالك الأبصـار في ممالـك الأمطـار"- إبـن حوقـل في "صـورة الأرض"- ياقـوت الحمـوي في "معجـم البلـدان"- أحمـد القلقشـندي في "صبـح الأعـشى"- إبـن خلـدون في "كتـاب العـبر".

ومـن المفيـد للدارسـين، ولمـن يبحـث عـن تفاصيـل تاريخيـة دقيقـة، ومعرفـة واسـعة بالسـلالات الحاكمـة في كوردسـتان أن يقـرأ كتـاب "شرفنامـه" للمؤلـف الكـوردي شرفخـان بدليـسي مـن أوائـل القـرن السـادس عـشر الميـلادي، وكذلـك كتـاب خلاصـة تاريـخ الكـورد وكوردسـتان لمحمـد أمـين زكي، والـذي كتبـه مطلـع القـرن العشريـن.

كان أخطـر جانـب في خطـة عـدم المعرفـة بالكـورد، هـو تجاهـل دورهـم المميـز في الحيـاة السياسـية العربيـة الإسـلامية منـذ مطلـع عهـد الخلافـة وحتـى نهايـة العهـد العثـماني بعـد دخـول الملـك فيصـل دمشـق. فلـم نصـادف دراسـة أو بحثـاً ذا قيمـة حـول الفعاليـة السياسـية الكورديـة وعلاقتهـا التفاعليـة بالحكـم العـربي الإسـلامي، لأن كل المصـادر التاريخيـة العربيـة المذكـورة أعـلاه، إضافـة إلى العديـد مـن تلـك التـي لم نذكرهـا، تكشـف بـل تؤكـد دور الكـورد المميـز اجتماعيـاً وسياسـياً وعسـكرياً في مقاومـة الاسـتبداد، وعـدم الرضـوخ لظلـم الحـكام والـولاة.

هـذه الفعاليـة السياسـية تسـتحق التوقـف عندهـا، والتذكـير بهـا، ففـي بدايـة دخـول الكـورد المشـهد السـياسي العـربي، شـكلوا مخزونـاً بشريـاً لدعـم وتوجيـه الفتوحـات الإسـلامية. لذلـك كانـت مناطـق شرق بغـداد التـي تقـع حاليـاً في غـرب إيـران، وبخاصـة مدينتـي حـلاوان (حلـوان) وهمـدان الكورديتـين مفتاحـاً لدخـول

عمـوم إيـران وآسـيا الوسـطى. كـما تبـين لاحقـاً أن الكـورد شـكلوا بيئـة اجتماعيـة لأغلـب الصراعـات السياسـية التـي جـرت في الدولـة العربيـة الإسـلامية، والمتمثلـة ظاهريـاً بالـصراع عـلى الحكـم، لكنهـا في العمـق كانـت مسـتندة عـلى خلفيـات فكريـة وإثنيـة ومحليـة. لقـد تأثـر الكـورد وأثـروا في هـذه الصراعـات، وذلـك منـذ لجـوء مـروان بـن محمـد آخـر خلفـاء بنـي أميـة (744–750م) إلى الشـمال، ونقـل العاصمـة مـن دمشـق إلى بلـدة حـران قـرب دياربكـر، في محاولـة للاسـتقواء بأهـل أمـه الكـورد (أم مـروان كانـت كورديـة الأصـل بحسـب أنسـاب الأشراف للبـلاذري).

لكـن وكـما يسـتنتج لاحقـاً فقـد مـال أغلبيـة الكـورد، خاصـة كـورد الـشرق في حلـوان وقرميـز (كرمـان شـاه) إلى أبي مسـلم الخراسـاني (الكـوردي الأصـل حسـب ابـن قتيبـة) حـوالي العـام 754م، وشـكل الكـورد بذلـك رافعـة ودعـماً لصعـود الحكـم العبـاسي الجديـد بدعمهـم هـذا لأبي مسـلم.

وفي عهـد المنصـور (754-775م) تعاظـم نشـاط الحركـة الخرميـة، وهـي عقيـدة قريبـة مـن المانويـة والمزدكيـة، وعـرف الخرميـون باسـم (الحمـر). فقـد التقـت حركتهـم مـع الحركـة الشـيعية بقيـادة أبي مسـلم الخراسـاني. قـاد الخرميـين بابـك الخرمـي ويعتقـد أنـه كـوردي أيضـاً. وكان إقليـم الجبـال أحـد البـؤر الرئيسـة للحركـة الخرميـة والـذي كان أغلـب سـكانها كـوراً. إذ يـورد الطـبري وابـن الأثـير معلومـات مفصلـة عـن بابـك وعصمـت الكـوردي اللذيـن سـاهما منـذ البدايـة في الانتفاضـة الخرميـة. الطـبري ج9/ ص11.

وبنفـس القـدر كان للكـورد لاحقـاً دور فاعـل في حركـة الزنـج، حيـث يشـير الطـبري إلى أن والي خوزسـتان كان إقطاعيـاً كورديـاً يدعـى محمـد عبيداللـه بـن آزاد مـرد، وبالاسـتناد إلى أخبـار غـيره مـن المؤرخـين فـإن حاكـم خوزسـتان الكـوردي هـذا كانـت لـه علاقـة سريـة بثـورة الزنـج (868–883م) منـذ بداياتهـا وكان حليفـاً لقائـد ثـورة الزنـج عـلي بـن محمـد. وتنـازل لـه عـن ولايـة خوزسـتان (عربسـتان الإيرانيـة الحاليـة). هـذا وكان للكـورد لاحقـاً مسـاهمة واسـعة في حركـة القرامطـة.

يمكن الاستنتاج بأن الكورد كانوا يشكلون أغلبية السكان لإقليم خوزستان شمال الخليج، وكذلك لمعظم مناطق شرق العراق الحالي - غرب إيران، ويبدو أن حلوان وهمذان وتوشتا كانت مدناً ذات غالبية كوردية تشيعت مبكراً إبان العهد العباسي، وساندت أولى تحركات القرامطة خلال العامين (891-890م) في الكوفة، وفي العام (900م) بدأت حركة ضخمة للقرامطة في سوريا، خاصة بعد موت يحيى بن زكرويه، فتزعم الحركة أخوه الحسين الذي كان يلقب (بصاحب الشامة)، وقد تركت لنا المصادر التاريخية من العصور الوسطى رسالة هامة تلقي الضوء على تعاون جعفر بن حميد الكوردي حاكم إحدى مقاطعات سوريا الغربية مع ابن زكرويه، وهذه الرسالة عبارة عن دعوة أرسلها في العام (901م) صاحب الشامة لحليفه الكوردي، لكن لم يتضح تماماً من مضمون الرسالة ماهية المنطقة التي يحكمها جعفر بن حميد الكوردي. لكن الافتراض بموجب مضمون الرسالة يشجع على الاعتقاد أن المكان كان في منطقة حمص الواقعة غرب سوريا. (الطبري ج10 / ص105).

وهكذا يمكن الاستمرار في السرد التاريخي لبيان الترابط العضوي المجتمعي والسياسي الكوردي- العربي خلال قرون عديدة من تاريخ المنطقة، لكن البحث سيطول ويتشعب ويخرج عن هدفه المعرفي المحدد، والمتمثل في التذكير بأهمية وسعة المشترك التاريخي والروحي بين العرب والكورد، وقابلية توظيف وتوسيع هذه المساحة من أجل علاقات حسن الجوار، إضافة إلى تصحيح وتجاوز كل التشوهات الأيديولوجية والحزبية التي لحقت بصورة الكورد، وبالتالي بحقيقة بَنَت تاريخنا المشترك.

أخيراً، لا أجد قولاً مناسباً لأختم به ما سبق، أكثر مما ذكره الراحل إدوارد سعيد: "إن المعرفة بمعانيها السياسية والإنسانية ينبغي كسبها لمصلحة العيش المشترك وخير المجتمع، أي مجتمع كان، وليس أعراقاً أو قوميات أو طبقات أو أديان بعينها".

حدود بلاد الكورد
حسب رواية ابن فضل الله العمري (1301-1349)م[1]

• أهمية إبن فضل الله كمؤرخ وبلداني

يعد ابن فضل الله العمري أحد أهم الشخصيات الاستثنائية التي ظهرت في بلاد الشام، فقد اجتهد للتأسيس لعلم التاريخ، وعمل على تصحيح الروايات التاريخية وترجيحها بميزان العقل، هذا وقد سبق ابنُ فضل الله ابنَ خلدون في تدقيق الأخبار التاريخية وتفحص مفاهيم العمران الحضري والمناخ وعلاقتهما بالسكان، وبالتالي قارب المنهج العلمي، واستخلص مبدأ "أخذ العبر" قبل ابن خلدون بحوالي مائة عام: "وإن في الأرض العبر ولقد طالعت الكتب الموضوعة في أحوال الأقاليم وما فيها، فلم أجد من بين أحوالها وفي الإفهام صورها لأن غالب تلك الكتب لا يتضمن سوى الأخبار القديمة وأحوال الملوك السالفة والأمم البائدة وبعض مصطلحات ذهبت بذهاب أهلها ولم يبق في مجرد ذكرها عظيم فائدة ولا كبير أمر وخير قول أصدق، والناس زمانهم أشبه منهم بآبائهم فاستخرت الله تعالى في إثبات نبذة دالة على المقصود في ذكر كل مملكة وما هي عليه هي وأهلها في وقتنا هذا مما ضمن نطاق تلك المملكة واجتمع عليه طرفا تلك الدائرة لأقرّب إلى الإفهام غالب ما بني عليه أم كل مملكة من مصطلح ومعاملات وما يوجد فيها غالباً ليبصرا بكل قطر القطر الآخر وبينته بالتصوير ليعرف كيف هو، كأنه قدام

1. نشرت في موقع شبكة روداو الاعلامية بتاريخ 13/7/ 2015 على الرابط
http://www.rudaw.net/NewsDetails.aspx?PageID=143661

عيونهم بالمشاهدة والعيان، مما اعتمدت في ذلك على تحقيق معرفتي له في ما رأيته بالمشاهدة...". ص3 /ج1 من مخطوطة كتاب مسالك الأبصار، النسخة ذات الرقم 2797/1أ أحمد الثالث، طوبقابو سراي _إستانبول.

هو أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، شهاب الدين. ولد في دمشق سنة 700هـ/ 1301م، مفتي دمشق الشام. تولى مناصب كبيرة، إذ عمل قاضياً، ثم ترأس ديوان الإنشاء في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، في ولايته الثالثة (709ـ741 هـ). ينتهي نسبه إلى عمر بن الخطاب، لذلك لقب بالعمري، وقد تلقى تربيته الأولى في دمشق ثم قدم إلى القاهرة ودرس فيها واتخذها موطناً له، ومال إلى التخصص في علوم الفقه واللغة وبرع في الكتابة والإنشاء، وقد استمر في العمل في البلاط السلطاني أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون، إلى أن تقلد ديوان الإنشاء والرسائل. قام بالتجول في الممالك الإسلامية، كالشام والأناضول والحجاز وغيرها، وكانت وفاته في دمشق سنة 749هـ/ 1349م عن عمر قصير نسبياً.

من مؤلفاته كتاب "الدعوة المستجابة" و"صبابة المشتاق" في المدح النبوي، و"سفر السفرة" و"فواضل السمر في فضائل آل عمر" و"النبذة الكافية في معرفة الكتابة والقافية" و"التعريف بالمصطلح الشريف" وكتاب لمعرفة اتجاه القبلة لعدد من المدن الإسلامية، وغيرها من المؤلفات العلمية.

وينسب إلى العمري أحد عشر مصنفاً، لكنه أبدع كجغرافي وبلداني، ووصل إلى ذروة العطاء العلمي في موسوعته (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار). هذا وقد صدر في المغرب تحقيق لكتاب "المفاضلة بين المشرق والمغرب" ولعله جزء من كتاب مسالك الأبصار. لهذه الأسباب الموضوعية العلمية، إضافة إلى كتابته ما مجموعه مائتي صفحة عن الكورد وبلادهم، مدنهم وتاريخهم، عشائرهم وطوائفهم، وكذلك بعض الجوانب من حياة الكورد الاجتماعية، إضافة إلى الحديث عن الأمراء والملوك الكورد، بناء على هذا الزخم من

المعلومات المفصلة، فضلت اعتماده كمصدر رئيس لتوضيح وتثبيت المعلومات الجغرافية والتاريخية الرئيسة حول التواجد التاريخي للكورد عموماً، وحالة تجاورهم مع العرب على وجه الخصوص، التي أكدها وفصلها ابن فضل الله في ترجيح ذي معاني ودلالات متعددة.

- **مبررات وضرورة الاستشهاد به اليوم**

تتصاعد النقاشات اليوم حول المسألة الكوردية في سوريا، وتنزع غالباً نحو تجريدها من صفتها التاريخية، واختزالها في إطار صراع سياسي راهن، صراع حاد وغير عقلاني، إذ يشطح البعض بإطلاق أحكام متسرعة، كاعتبارها مسألة غير عادلة تفتقر إلى أسسها الموضوعية وشرعيتها التاريخية، بل تتصاعد وتيرة الاتهام لجهات كوردية بالقيام بعمليات تغيير ديمغرافي، وكأن الكورد غرباء عن هذه الأرض، بل يعدهم بعض البعض أنهم من مفرزات الصراعات السياسية الراهنة، يقومون بإزاحة سكان الأرض الأصليين عن مواطنهم. أفترض أن هذا الخطاب يتصاعد نتيجة لغلبة التفكير المدرسي ورسوخه في أذهان النخبة العربية عموماً والسورية خصوصاً، وكذلك المبالغة في الاستناد على أفكار قومية عروبية عنصرية فعلت فعلها المعرفي والآيديولوجي طوال سنوات وعقود من الزمن في الوعي السياسي العربي عموماً والسوري خصوصاً، فأبعدته عن الموضوعية في مقاربة المسألة الكوردية، وكذلك في تناولها ومعالجتها.

لقد نشرت قبل خمسة عشر عاماً في جريدة الحياة مقالاً تعريفياً بابن فضل الله بمناسبة مرور سبعمائة عام على ولادته، لكنني تشجعت أكثر في هذا الظرف العصيب للاعتماد عليه كأكثر المصادر العربية الإسلامية مصداقية ودقة في المعلومة الجغرافية، والتحكيم إليه، كونه عالج المواضيع السكانية والجغرافية بموضوعية قبل سبعة قرون، والاستشهاد بمفردات واضحة ضمن كتابيه "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، تحقيق كامل سلمان الجبوري

ومهدي النجم، 27 جزءاً، بيروت 2010، و"التعريف بالمصطلح الشريف"، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت 1988.

منهجياً، سأحاول الاختصار والإشارة إلى النقاط التي تحدد تماماً التواجد الجغرافي للكورد في الجوار العربي، بهدف المساهمة في توضيح اللوحة الجغرافية التاريخية السكانية عهدئذ، فقد يساهم في تخفيف التوترات والإشكالات السياسية، التي تعتمد غالباً على معلومات جغرافية وتاريخية غير صحيحة، تم تسويقها آيديولوجياً، فزادت الوضع تعقيداً، وقللت من فرص التفاهم والتعايش.

• أولا: في تعريف الكورد وتوصيفهم حسب ابن فضل الله العمري

يبين ابن فضل الله أن الكورد قوم خاص وجنس مستقل قائم بذاته، إذ كتب: "والذي نقول -وبالله التوفيق- إن الكورد وإن دخل في نوعهم كل جنس أتى ذكره في هذه الفصول فإنهم جنس خاص من نوع عام، وهم ما قارب العراق وديار العرب دون من توغل في بلاد العجم، ومنهم طوائف بالشام واليمن. ومنهم فرق مفترقة في الأقطار وما حول العراق وديار العرب جمهرتهم". مسالك الأبصار، ص197/ المجلدان 3-2.

ويؤكد على هذه المعلومة السكانية - الأقوامية في كتابه "التعريف بالمصطلح الشريف" فقد كتب عصرئذ: "الكورد وهم خلائق لا تحصى، وأمم لا تحصر، ولولا أنّ سيف الفتنة بينهم يستحصد قائمهم وينبه نائمهم، لفاضوا على البلاد، واستضافوا إليهم الطارف والتلاد، لكنهم رُموا بشتات الرأي وتفرق الكلمة، لا يزال بينهم سيف مسلول، ودم مطلول، وعقد نظام محلول، وطرْف باكية بالدماء مبلول، ولهم رأسان كل منهما جليل، ولكل منهما عدد غير قليل، وهما صاحب جولمرك، وصاحب عقرشوش". ص57، التعريف بالمصطلح الشريف.

وهنا لابد من الإشارة إلى أنّ جولمرك هي مركز ولاية هكاري في أقصى جنوب شرق تركيا الحالية، أما عقرشوش فهي في الجزيرة الفراتية، وعلى الأرجح كان مركز الإمارة الكوردية هذه مدينة في موقع قلعة الشوش، بحسب ياقوت الحموي في معجم البلدان: "والشوش: قلعة عظيمة عالية جدّاً قرب عقر الحميدية من أعمال الموصل"، أو قد تكون بلدة مندثرة في سهول الجزيرة الفراتية، جنوب جزيرة ابن عمر، حسب روايات أخرى.

من قراءة النصين السابقين وتحليلهما نستنتج بأن كثافة التواجد الكوردي في عهد ابن فضل الله وما قبله كانت متركزة في السهول وليس في الجبال، وكانت جمهرة الكورد تستقر بجوار العرب تماماً، ويتضح ذلك أكثر بحسب السرد التالي لجغرافية التواجد الكوردي.

- **ثانياً: في الجغرافية السكانية للكورد**

يحدد ابن فضل الله الخط الفاصل العام بين العرب والكورد كما يلي: "أما الفصل الجامع لأحوال سكان الجبال هؤلاء وغيرهم، فإنما نقول -وبالله التوفيق- إنما المراد بالجبال على المصطلح، الجبال الحاجزة بين ديار العرب وديار العجم وابتداؤها جبال همدان وشهرزور وانتهاؤها صياصي الكفرة، بلاد التكفور، وهي مملكة سيس وما هو مضاف اليها بأيدي بيت لارن، ولم أذكر من عشائرهم إلاّ من كنت بهم خبيراً، ولم أسمّ فيها منهم إلاّ بيت ملك أو إمارة تبدأ بجبال همدان وشهروزر وأربل وتنتهي إلى دجلة الجزيرة من كوار الموصل. نترك ما وراء نهر دجلة إلى نهر الفرات لقلة الاحتفال به على أن الذي ذكرته هو خلاصة المقصود إذ لم يبق إلاّ كورد الجزيرة وقرى ماردين، وهم لكل من جاورهم من الأعداء الماردين مع أن مساكنهم ليست منيعة، ومساكنهم للعصيان غير مستعصية..." كتاب مسالك الأبصار، ص198.

هنا ينقطع النص في الكتاب، ربما هكذا ورد في نسخة المخطوطة التي

اعتمدها المحققان، لكن النص يتواصل في نسخ أخرى، وكذلك عند أحمد القلقشندي يتم استكمال معنى ومضمون هذا النص، بحيث يتم البيان بأن الكورد متواجدون في قرى عديدة بسهول الجزيرة ومنطقة ماردين، وهي قرى غير منيعة، وتقع في السهول، وليست في مناطق جبلية، لكنها مسورة ومحمية برجالها الشجعان.

للتوضيح والتذكير لا بد من الإشارة بأن همدان تقع غرب إيران الحالية، وأن شهرزور هي مدينة تاريخية تقع بالقرب من مدينة كركوك، وأن صياصي الكفرة ومملكة سيس تقعان في أواسط الأناضول وشمال البحر الأبيض المتوسط.

في موقع ونص آخر يشرح ابن فضل الله بطريقة أوضح جغرافياً التواجد الكوردي الملاصق للعرب، خاصة للذين يتبعون حكام عقرسوسن أو عقرشوش، في الجزيرة: "وموقع بلادهم من بلادنا قريب، والمدعو منهم من الرحبة وما جاورها يكاد يجيب. وملوكنا تشكر لهم إخلاص نصيحة، وصفاء سريرة صحيحة، والقائم فيهم الآن شجاع الدين بن الأمير نجم الدين خضر بن مبارز كك". ص59، التعريف بالمصطلح الشريف.

- **النتائج**

نستنتج من مؤلفات وآثار ابن فضل الله مع الاعتماد على نصوص من جاء قبله بعدة قرون كالمسعودي، ومن بعده القلقشندي، أن جغرافيا التواجد والتوزع السكاني الكوردي كان يتركز في السهول أوائل العهد العباسي، ثم بدأ بالانكماش نحو سفوح الجبال خلال المرحلة الأيوبية وحتى نهاية المملوكية، على الرغم من استمرار التركيز الرئيس في المناطق السهلية المجاورة للبلاد العربية، بدءاً بشرق العراق الحالي، وصولاً إلى سهول شمال سوريا فالأناضول، مروراً بالجزيرة الفراتية. إن تأكيد ابن فضل الله على قرب سكن الكورد من ديار العرب، وما كان يعنيه ابن فضل الله من (بلادنا) هو بلاد الشام، من

جهة أخرى، وكذلك فإن تدقيقه للمسافة التي تفصل الكورد عن العرب، جعلته يشرحها ويصورها حسياً، لدرجة توصيفه حالة التجاور بإمكانية المناداة على الكورد، وسماع أصواتهم لقربهم من قلعة الرحبة التي تقع على الضفة اليمنى (الشامية) لنهر الفرات في بلدة الميادين السورية شرق دير الزور، ما يفسر سكن الكورد على الضفة اليسرى، أي الشرقية لنهر الفرات، في جهة الجزيرة الحالية وبواديها. كما أن الظاهر في النص أعلاه حسن علاقات الجوار بين الكورد ممثلين بأمراء عقرشوش والعرب وحكامهم في كل من العراق وبلاد الشام.

من خلال متابعة التحولات والمتغيرات السكانية التي حدثت لاحقاً في الجزيرة الفراتية، ودراستها بحسب مصادر متأخرة ومن خلال وصف ومشاهدات العديد من الرحالة، يظهر أن التصحر والتدهور البيئي والسياسي دفعا بالعديد من القبائل العربية لعبور نهر الفرات والتوجه شمالاً نحو مناطق أكثر خصباً، وربما أماناً ووفرة في المياه والمراعي. وهذا ما هيأ المناخ لتحولات ديمغرافية واجتماعية جديدة، إذ تشجع قسم من السكان الكورد في الجزيرة الفراتية للتعايش والاندماج مع القادمين العرب، خاصة في البلدات والمدن، إضافة إلى إزاحة وتراجع القسم الأعظم من القبائل الكوردية الرحل نحو المناطق السهلية في أعالي الجزيرة الفراتية، للاستقرار على سفوحها. كانت بداية هذه التحولات الديمغرافية – الاجتماعية بعد غزوة تيمورلنك، التي دمرت معظم عمران الجزيرة الفراتية في حوالي العام 1401م، وتراجع في ربوعها الأمان، وانهارت تدريجياً النظم الاجتماعية والسياسية والهياكل العمرانية المحلية في الجزيرة الفراتية عاماً بعد آخر، لتتحول إلى منطقة شبه خالية من السكان خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، إذ اقتصرت حياتها الاجتماعية على الرعي والبداوة، بحسب العديد من الوثائق ومشاهدات الرحالة. وتمت إعادة التوطين والأعمار في الجزيرة السورية نهاية العهد العثماني ومطلع عهد الانتداب البريطاني والفرنسي، لدرجة أنه يمكن القول بدون تحفظ أن التوزيع

والتواجد الحالي للسكان، وبالتالي الخارطة الديموغرافية – الاجتماعية الراهنة في سهول وبوادي الجزيرة السورية، هي عائدة في أساسها إلى سياسات الإعمار والتوطين في الثلث الأول من القرن العشرين.

• المراجع

1. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. ابن فضل الله العمري القرشي، شهاب الدين أحمد بن يحيى. تحقيق كامل سلمان الجبوري ومهدي النجم، 27 جزءاً، بيروت 2010.

2 . مخطوطة: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. ابن فضل الله العمري القرشي، شهاب الدين أحمد بن يحيى، النسخة ذات الرقم 2797/1 أحمد الثالث، طوبقابو سراي-إستانبول، أشرف على نسخها وتوزيعها، فؤاد سزكين، ألمانيا 1988.

3 . التعريف بالمصطلح الشريف. القاضي ابن فضل الله العمري القرشي، شهاب الدين أحمد بن يحيى، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت 1988.

4 . المسعودي. التنبه والإشراف- طبعة القاهرة، 1938.

5 . أبي العباس، أحمد القلقشندي. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء. المجلد الرابع، طبعة القاهرة، 1914م.

6 . ابن جبير. رحلة ابن جبير، تحقيق: حسين نصار، دار مصر ـ 1959.

7 . تافيرنييه. العراق في القرن السابع عشر كما رآه الرحالة الفرنسي تافيرنييه، ترجمة: بشير فرنسيس، وكوركيس عواد، بغداد – 1944.

8 . بكنغهام، جيمس. رحلتي إلى العراق، ترجمة: سليم طه التكريتي، بغداد- 1968.

9 . أحمد وصفي زكريا. ذكريات عن وادي الفرات، دير الزور- 1968.

10 . عبدالقادر عياش. حضارة وادي الفرات، مدن فراتية، دمشق – 1989.

11 . جريدة البعث، العدد الأول - 1950.

المرفقات

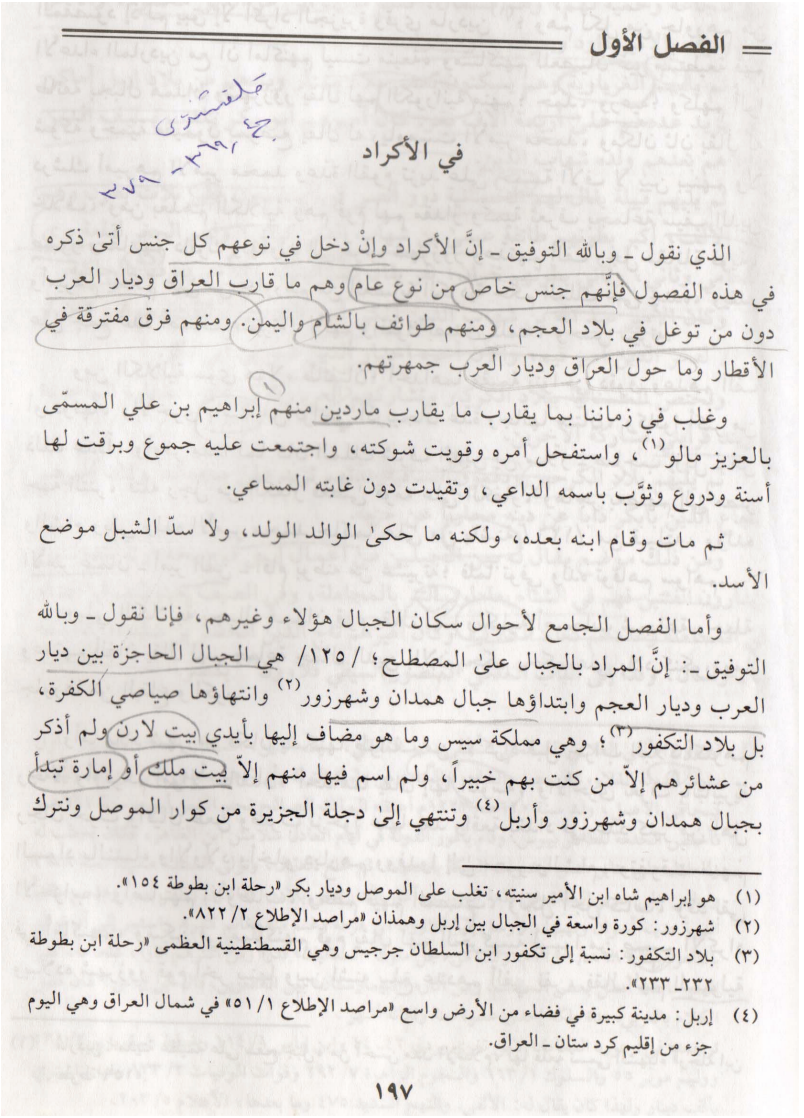

الفصل الأول

في الأكراد

الذي نقول ـ وبالله التوفيق ـ إنَّ الأكراد وإنْ دخل في نوعهم كل جنس أتىٰ ذكره في هذه الفصول فإنَّهم جنس خاص من نوع عام وهم ما قارب العراق وديار العرب دون من توغل في بلاد العجم، ومنهم طوائف بالشام واليمن. ومنهم فرق مفترقة في الأقطار وما حول العراق وديار العرب جمهرتهم.

وغلب في زماننا بما يقارب ما ماردين منهم إبراهيم بن علي المسمّى بالعزيز مالو[1]، واستفحل أمره وقويت شوكته، واجتمعت عليه جموع وبرقت لها أسنة ودروع وثوَّب باسمه الداعي، وتقيدت دون غابته المساعي.

ثم مات وقام ابنه بعده، ولكنه ما حكىٰ الوالد الولد، ولا سدّ الشبل موضع الأسد.

وأما الفصل الجامع لأحوال سكان الجبال هؤلاء وغيرهم، فإنا نقول ـ وبالله التوفيق ـ: إنَّ المراد بالجبال علىٰ المصطلح؛ /١٢٥/ هي الجبال الحاجزة بين ديار العرب وديار العجم وابتداؤها جبال همدان وشهرزور[2] وانتهاؤها صياصي الكفرة، بل بلاد التكفور[3]؛ وهي مملكة سيس وما هو مضاف إليها بأيدي بيت لارن ولم أذكر من عشائرهم إلاّ من كنت بهم خبيراً، ولم اسم فيها منهم إلاّ بيت ملك أو إمارة تبدأ بجبال همدان وشهرزور وأربل[4] وتنتهي إلىٰ دجلة الجزيرة من كوار الموصل ونترك

(١) هو إبراهيم شاه ابن الأمير سنيته، تغلب على الموصل وديار بكر «رحلة ابن بطوطة ١٥٤».
(٢) شهرزور: كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان «مراصد الإطلاع ٢/ ٨٢٢».
(٣) بلاد التكفور: نسبة إلى تكفور ابن السلطان جرجيس وهي القسطنطينية العظمى «رحلة ابن بطوطة ٢٣٢ـ ٢٣٣».
(٤) إربل: مدينة كبيرة في فضاء من الأرض واسع «مراصد الإطلاع ١/ ٥١» في شمال العراق وهي اليوم جزء من إقليم كرد ستان ـ العراق.

١٩٧

الصفحة 197 من كتاب مسالك الأبصار

الأكـــراد[1]

[وهم] خـــلائقُ لا تُحصىٰ[2] وأُمم لا تُحْصَـر؛ ولـــولا أنَّ سيفَ الفتنـــة بينهم يَسْتَحصِـدُ قائمهم، وينبِّـه نائمهم، لفَـاضُوا على البـلاد، وآستضافـوا إليهم الطَّارِفَ والتِّلاد؛ ولكنَّهم رُمُوا بشَتات الرأْي وتفرُّق الكلمة، لا يزال بينهم سيفٌ مسلول، ودمٌ مطلول، وعَقْدُ نظام محلول، وطَرْفُ بـاكية بـالدّمـاء مبلول؛ ولهم رأْسان كـل منهما جليل، ولكل منهما عددٌ غيرُ قليل؛ وهما صاحِبُ جُولْمَرك، وصاحِبُ عَقْرَشُوش.

والكبيرُ منهما الذي تتَّفق طوائفُ الأكراد ـ مع آختلافها ـ على تعظيمه والإشارة بأنه فيهم الملكُ المُطَاعُ والقائد المتَّبع، هو صاحبُ جُولْمَرْك؛ وهـو صاحب مملكـة متَّسعة ومُدُن وقلاع وحصون، وله قبائلُ وعشائرُ وأنفار. وهم يُنسبون إلى عُتْبَة بن أبي سُفيانَ بن حرب بن أميَّة بن عبد شَمْس بن عبد مَنَاف؛ وكانت قد آنتهت الإمرةُ فيهم إلى الملك أَسَد الدين موسىٰ بـن مُجَلِّي بن موسىٰ بن منكـلان. وكان رجـلاً كريمـاً عظيماً نَهّاباً وهّاباً، تجلُّه ملوكُ الممالك الجليلة وتعظِّمه حُكَّام الأردو وصاحبُ مصر. وإشارتُه مقبولةٌ عند الجميع. وإذا آقتتلت طـائفتان من الأكـراد فتقدم إليهمـا بالكفِّ كَفُّوا، وسمعوا له سَمْعَ مُرَاعٍ لا سَمْعَ مُطيع. والقائمُ الآن من بنيه الملكُ عمادُ الدين مُجَلِّي؛ وهو رجلٌ يحب أهلَ العلم والفضل، ويُجِلُّ منهم عندَه من أتاه أعظَمَ مَحَلّ. كَتَبَ لي قاضِيه أنَّ إخوتَه من ظَهْر أبيه هم: عِزُّ الدين؛ وزَيْنُ الـدين؛ وأعمامُـه: عِزُّ الدين شِير، وشَمْسُ الدين شيخ أمير، والأمير داود، وحسام الدين. وما منهم إلا مَنْ له حُكْمٌ وتصرُّفٌ؛ ومرجِعُهم كلُّهم إلى الملكِ عمادِ الدين صاحبِ جُولْمَرك.

وأما الثاني فهو صاحبُ عَقْرَشُوش؛ وملوكُها الآن من أولاد المبارِزكَـكْ؛ وكان مبارِزُ الدين كَكْ رجلاً شجاعاً كريماً تَغْلِبُ عليه غرائبُ من الهَوَس فيدَّعي أنه وليٌّ من

(١) قـال في الصبح: ومنـازلهم من بلاد الجبـال من عراق العجم. وحـول أماكنهم بـالتفصيل انـظر صبح الأعشى: ٤/٣٧٣ وما بعدها..

(٢) في الصبح «لا يحصون».

الأولياءِ يقبل النُّذُر؛ وكانت تُنْذَرُ له النُّذور تقرُّباً إليه بما تنفق عليه لا آعتقاداً فيه فيُسَرُّ بذلك؛ فإذا أتاه النَّذْرُ أضاف إليه مِثْلَه من ماله وتصدَّقَ بهما جميعاً. وأهلُ هذا البيت يدَّعُون عَرَاقةَ الأصل في الإمرة، وقَدَمَ السُّؤدد في الحِشْمة، ويقولون إنهم عُقِدتْ لهم أَلْوِيةُ الإمارة وتسلَّموا أزِمَّةَ هذه البلاد، وتسنَّموا صَهَواتِ هذه الصَّياصي بمناشير الخلفاء، وأنهم كانوا لهم أهْلَ وفاء؛ ولهم في هذا حكاياتٌ كثيرةٌ وأخبار مأثورة؛ وهم أهلُ تَنَعُّم ورفاهِيَة ونِعْمة ظاهرة، وبزَّة فاخرة، وآدُرٍ مُزَخْرفة، ورياض مُفَوَّفة، وخُيول مُسَوَّمة، وجَوارِحَ مُعَلَّمة، وخَدَمٍ وغِلْمان، وجَوَارٍ حِسَان، ومَعَازِفَ وقِيان، وسِماطٍ مَمْدُود وخِوَان، وأهل عِشْرَةٍ وإخوان. ومَوْقعُ بلادهم من أطراف بلادنا قريب، والمدعو منهم من الرَّحْبَة وما جاوَرَها يكاد يُجيب. وملوكُنا تشكر لهم إخلاصَ نصيحة، وصَفاءَ سَرِيرةٍ صحيحة. والقائمُ [فيهم] الآن شُجَاعُ الدين آبن الأمير نجم الدين خَضِر ابن المبارِز كَكْ؛ ولم يبلغ الآن مبلَغَ أبيه، ولا أظُنُّه يُقَارِبُه ولا يُدَانيه؛ على أنه قد مَلَكَ مُلْكَه، ونَظَم سِلْكَه.

ورَسْمُ المكاتبة إلى كل منهما: «أدامَ اللَّهُ نِعمَةَ المجلس العالي، الأميريّ، (والألقاب التّامة الكاملة).

وأما بقيَّةُ أمرائهم فجلَّتُهم الأكابر: «صَدَرَتْ هذه المُكاتَبة إلى المجلس الساميّ الأميريّ» بالياء. والألقاب من الطبقة الثانية، وما دونَها لمن دونهم.

ومما يُنبَّه عليه أنَّ في طُرُق المارِّين ومسالكِ المسافرين من بلادنا إلى خُراسانَ، ومنها إلينا، ينجم[1] في بعض الأحيان أهلُ فَسَاد يَعْمِدون إلى عَميد يقدِّمونه عليهم فيقطعون السُّبُلَ ويُخيفون الطُّرُق؛ وتطير سِمْعةُ عميدهم، وتنتَشِر في قريبهم وبعيدهم، فيُكاتَبُ ذلك العميدُ من أبواب الملوك، ويُضطرُّ إليه لفتح الطريق للسلوك[2]؛ ويكونُ من غير بيت الإمْرَة، ولا أهل القديم. وربَّما هوَى نَجْمُه، فآنقطع

(١) في الصبح: «يظهر».
(٢) في الصبح: «بالسّلوك».

القسم الرابع

إيران بين الدور والانتصار [1]

تصاعدت في الأيام الأخيرة وتيرة السجالات، كما نشرت عشرات المقالات حول انتصار إيران، ونجاح مشروعها في المنطقة. إلى آخر هذا النسق من الخطاب التهويلي السياسي، وامتلأت صفحات العديد من الجرائد العربية بمقالات مكررة، لكتاب معروفين ومحترمين تصر على موضوعي خطورة إيران وانتصاراتها. قبل عام ساد مناخ إعلامي – سياسي مشابه، فما الذي تغير؟! نشرت حينها مقالاً بعنوان: لماذا انحنت القوى العظمى أمام حكام طهران؟ في محاولة لاستشراف الدور الإيراني المتوقع. يبدو اليوم وعلى الرغم من المتغيرات العسكرية على الأرض، أن المناخات السياسية لم تتغير في المنطقة، وعلى المهتمين أن يتنبهوا لحقيقة أن إيران لا تقوم إلا بتنفيذ أجنداتها المتوافقة مع طبيعة الحكم فيها، وتقوم في المحصلة بدور يتناغم كثيراً مع (المشروع الغربي) إن جاز التعبير. ولمعرفة جوانب مفترضة من هذا الدور أدعو القارئ الكريم إلى قراءة ما كتبت في العام الماضي من جديد: "ثمة قاعدة سياسية تشير إلى أنه إذا لم تستطع مواجهة العاصفة فانحن لها، فأي عاصفة هبت أو كادت ان تعصف لدرجة أن انحنى قادة القوى العظمى - بل قادة الغرب بتعبيره الواسع - أمام حكام طهران، الذين يفترض أنهم غير قادرين على حكم إيران بطريقة ديمقراطية وشرعية.

أنجز اتفاق جنيف الخاص بالملف النووي الإيراني في ساعة عصيبة ومتأخرة من مساء السبت 23/11/2013، لكن الطريقة الكرنفالية لحفل التوقيع، وما صاحبه من عناق حار بين ممثلي القوى العظمى، وخاصة بين كيري وآشتون،

1. نشرت في موقع شبكة روداو الاعلامية بتاريخ 21/3/2015 على الرابط : http://www.rudaw.net/NewsDetails.aspx?pageid=114113
نشر المقال في 21/3/2013 على الرابط: http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=406626

إن دل على شئ إنما يدل على أن إنجازاً كبيراً واتفاقاً استثنائياً قد تحقق. لقد كتب الكثير عن الاتفاق - الصفقة (Deal)، لدرجة أن المتابع لم يعد قادراً في الأسابيع القليلة الماضية على تصفحه، والتمعن في التحليلات العديدة التي تناولته.

ثمة انجاز وحدث مهم بكل المقاييس، لكن أي انجاز ولصالح أي طرف؟ وما السر في هذا الفرح الطفولي العارم الذي ساد أوساط الموقعين بعد التوقيع؟ فكلا الطرفين قد احتفل بالحدث! إن المشهدية الاحتفالية المبالغ بها، وكذلك الدراما الإعلامية - السياسية التي رافقتها، قد تهدف إلى التعتيم على بعض الحقائق، فالحدث، وبالتالي مشروع الاتفاق الأولي ليس بهذه الأهمية بحد ذاته، بقدر أهميته في التمهيد لقضايا سياسية وستراتيجية أكبر، وملامسته لمسائل ذات علاقة عضوية ببيئة الاتفاق وأطرافه.

السؤال الرئيس الذي يطرح نفسه بمناسبة توقيع هذا الاتفاق، واستمرار انعقاد جولات التفاوض، ماذا لو تمكنت طهران من امتلاك القدرات التقنية لصناعة قنبلة نووية؟ ما الذي يميزها عندئذ عن كوريا الشمالية، أو بشكل أكثر دقة عن باكستان المجاورة. ومتى كانت الدول الصغيرة قادرة على تحقيق اضطراب كبير في توازن الرعب النووي الذي تم تثبيته بين القوتين النوويتين الرئيستين بعد الحرب العالمية الثانية؟

يمكن طرح مائة سؤال فرعي آخر بدون الحصول على إجابات مقنعة، لذلك يفضل التركيز على بحث المسألة خارج الموضوع النووي، أو على تخومه في أقل تقدير. ويستحسن إحالة الحدث إلى ما يشبه نهاية دراما طويلة لعلاقة حكام إيران مع الغرب.

أول فصل في الدراما يدور حول ملابسات تنحي شاه إيران السابق، والتي تذكرنا اليوم بها طريقةُ تنحي زين العابدين بن علي في تونس. ثم بدأت الحلقة الثانية مع هبوط الإمام الخميني من طائرة فرنسية في مطار طهران. وزيادة التوتر بين الحكام الجدد وأمريكا لاحقاً اثر احتلال الطلاب لسفارتها

في طهران نهاية العام 1979، مروراً بالحرب العراقية – الإيرانية، حيث لم يترك الغرب حكام طهران الجدد وحيدين في مواجهة نظام صدام (إيران غيت). والملفت أنه قد رافق التوتر في العلاقات الغربية مع نظام طهران عدم اهتمام بالمعارضة الإيرانية العلمانية والإسلامية المختلفة جوهرياً عن حكم الملالي، خاصة الكوردية واليسارية منها، هذه القوى التي ساهمت بفعالية في قلب نظام حكم الشاه، وتثبيت أسس ثورة الشعوب الإيرانية. فقد صنف أغلبُ الدول الغربية منظمةَ مجاهدي خلق ضمن المنظمات الإرهابية، ومهدت موضوعياً لتفيكيك قوتها، خطوة بعد أخرى لصالح الحكم الجديد في طهران، عن طريق تأمين المناخ لعزلها ودفعها إلى أحضان نظام بغداد، وبالتالي هبوطها نحو أدنى درجات الضعف، وفقدان القاعدة الشعبية، فالفشل السياسي. إلى أن تم قتل وتشريد ما تبقى منهم في معسكر أشرف في السنوات الأخيرة.

في الجانب الآخر المثير لدهشة المراقبين والمهتمين والمنطوي على الكثير من التناقض، نجد إهمالاً شبه تام للمعارضة الكوردية الإيرانية القوية والعريقة (حيث أنها أسست جمهورية في كوردستان إيران في العام 1946)، اذ أنها لم تتلقَّ أي دعم أو تعاطف من قبل الغرب الأورو-أميركي يوماً، لذلك وبعد أن كانت على وشك إعادة إعلان استقلال كوردستان الإيرانية بين الأعوام (1979-1982)، تراجعت عاماً بعد آخر. وتمت تصفية قيادتها بالقتل المباشر في أوروبا (سكرتيري الحزب الديمقراطي الكوردستاني في إيران د. عبد الرحمن قاسملو، وصادق شرفكندي)، والغريب أن المتهمين بالقتل يتجولون في أوروبا بزيارات عمل حكومية ودبلوماسية. فصول قصة تدليل (الغرب) لحكام طهران قد بدأت منذ أكثر من ثلاثين سنة ولم تنتهِ بعد، دون أن ينتابها إلا شيء من الصراع الظاهري والخلاف ذي الطابع الإعلامي والدبلوماسي.

حتى أنه قبل عدة أيام من اتفاق جنيف تم إعدام عدد من المعارضين البلوش (السنة) بتهمة الإرهاب، إضافة إلى أن إعدام العديد من الناشطين

الكورد (العلمانيين السنة) مستمر قبل وبعد لقاءات جنيف، دون إيلاء أي أهمية للحدث المروع، من قبل الجهات الغربية المختصة، ودون اعتراض من أحد، لا المنظمات الإنسانية الأورو-أمريكية، ولا ممثلي الحكومات المتفاوضة مع طهران. لقد أغلقوا أعينهم تماماً، لدرجة أنهم لم يوظفوا سلسلة الإعدامات حتى كورقة في المفاوضات كالعادة.

لا يمكن أن أكرر ما قيل بخصوص هذا الاتفاق خاصة في شقه التقني، لكن ما يبدو لي مؤكداً، أن الغرب متمثلاً في القوى العظمى قد قدم خدمة سياسية كبرى لحكام طهران، فإما هذا الغرب ساذج، على الرغم من نفي هذه التهمة من قبل الوزير كيري بعد توقيع الاتفاق، وأثناء زيارة الاطمئنان للمملكة العربية السعودية: "نحن لسنا سذجاً في التعامل مع إيران"، أو أن القوى العظمى تفتعل هذه السذاجة كاستكمال لفصول قصتها مع حكام طهران، ولتحقيق هدف مستقبلي رئيس متمثل في إعادة تأهيل نظام الملالي سياسياً، وإنقاذه اقتصادياً، وفك عزلته، وإلا لماذا مهدت الطريق للطبقة الحاكمة في طهران لتحقق هذا المنجز السياسي والدبلوماسي بعد ثلاثين سنة من حكمها المضطرب، وفي ذروة أزمتها المركبة؟

لقد مر الحدث - الاتفاق كنهاية لخديعة كبرى، وتم إدراجه كخاتمة لمشكلة وموضوع باهت ومستهلك هو (امتلاك السلاح النووي). فإذا لم يكن ممثلو الغرب سذجاً، وهم كذلك بالتأكيد، فمن السذاجة أيضاً أن لا نأخذ من مجمل سيرة تعاملهم مع حكام طهران بعض النتائج الجوهرية:

أولها أن الغرب الحاكم لا ينظر إلى القضايا العالمية بمنظار أخلاقي ولا عاطفي، وإنما يقيس المسائل بمعايير المصالح والنتائج العملية، وحسب قاعدة: درء المخاطر وتأمين المكاسب. وقد نجح حكام طهران في فهم هذه القاعدة، وتوفير إجابات واضحة لها، خلال عدة عقود. فقد أثبتوا أنهم قوة مخالفة على الأرض، قادرة على خلط الأوراق، وقلب الحسابات الإقليمية، وتقويض السياسات الأمريكية والغربية بطرق وأساليب شتى. سياسة الغرب الراهنة

تفتقد إلى منظومة قيم أخلاقية، كما أنها غير محملة بمضامين فكرية واضحة، وهي بعيدة عن هموم وتطلعات شعوب المنطقة، لذلك بدت مشوشة ومضطربة وفي المحصلة ضعيفة وتحتاج إلى مسار جديد، بل إلى سند إقليمي، لإعادة ترسيم مسارها. إذن ما هو تفسير تظاهر حكام طهران بالقوة، وحتى التهديد بإلغاء الاتفاق قبل وبعد كل جولة جديدة من المفاوضات، سوى حاجة الغرب لدورهم الجديد.

لقد ساهم أيضاً في تفضيل الغرب النسبي لحكام طهران في هذه المرحلة المضطربة من تاريخ الشرق الأوسط، فشلُ النموذج التركي وعدم استلهامه في العالمين العربي والإسلامي. كما أن أخطاء الاخوان المسلمين في مصر عجلت من إعادة النظر في (المشروع المتعاطف) التجريبي والحذر، لتسلم تيار الإسلام المعتدل للحكم في بعض الدول العربية.

أخيراً يبدو أن انقسام العالم الإسلامي بين دول ومرجعيات تقليدية (السعودية، مصر، تركيا) وطبع الحركات الجهادية والسلفية المتطرفة بختم (الإسلام السني)، قد توج حكام طهران كقطب مذهبي أكثر اعتدالاً، ومرجعية سياسية وروحية إسلامية منفتحة فكرياً، وأكثر تنظيماً وتمركزاً. لقد تشكل موضوعياً في العقود الأخيرة قطب مذهبي وحيد وصلب، قادر على أن يرسخ الثنائية المذهبية الإسلامية، ويلبي متطلبات الغرب المرحلية بفعالية، وإن عبر أجندات وشعارات مخادعة.

وفي سياق عملية التشكل والتبلور هذه، تم منذ عدة سنوات تفهم ومباركة التجاذب الروسي – الإيراني السياسي، ومتابعة تطوره إلى مستوى التحالف في أكثر من مكان، ليتحول إلى ما يشبه حلفاً أيديولوجياً مذهبياً أرثوزكسياً – شيعياً لخرق وحدة العالم الإسلامي الظاهرية، وتثبيت انقسامه.

أخيراً، ما يستشف من حالة ضعف الغرب وانحنائه أمام حكام طهران، أنها فقدت بوصلة التعامل مع العالم الإسلامي في هذه المرحلة، وهي لا تخشى رقعة الفوضى التي قد تتسع فحسب، وإنما وبالقدر نفسه تخشى وحدة هذا

العـالم ووفاقـه. وقطبيـة وفعاليـة نظـام طهـران مطلوبـة في كلتـا الحالتـين، وهـذا مـا يهمهـا في المقـام الأول، وليـس مراكـز تخصيـب اليورانيـوم في إيـران، الـذي يـدرك حـكام طهـران قبـل غيرهـم أنهـا محـض مسـألة (فيزيـاء تطبيقيـة)".

بعـد مـرور عـام عـلى الاتفـاق الأولي، ورجحـان موازيـن القـوى لصالـح تيـار طهـران، التـي قطفـت أولى ثمـار مفاوضاتهـا مـع الغـرب، واسـتثمرت تمامـاً عامـل الزمـن كعادتهـا، مـا الجديـد الآخـر في عـام إيـران الثـاني؟

إن شـئنا الدقـة، يمكـن التجـرؤ والقـول لا جديـد، فليـس ثمـة منجزات سـتراتيجية لصالـح طهـران، لأنـه مـن الغرابـة أن نتخيـل إيـران وهـي لا تـؤدي وظيفتهـا الأيديولوجيـة، كـما أنـه مـن السـذاجة أن نتصـور إيـران المذهبيـة في موقـع غـير هـذا الـذي هـي فيـه! إن منظومتهـا المذهبيـة - السياسـية مصممـة للسـير عـلى هـذه السـكة. بمعنـى آخـر إيـران لم تحقـق أي انتصـار، قـد يتمـدد نفوذهـا قليـلاً أو كثـيراً، لكنهـا تـؤدي الـدور، وتمـلأ الفـراغ فقـط، إنهـا تجيـد التفتيـت والهـدم، لكـن مـن الصعـب عليهـا بنـاء نظـام إقليمـي، أو قيادتـه، وذلـك لاسـتحالة تأسـيس كيانـات سياسـية مذهبيـة معـاصرة ومسـتقرة في المنطقـة. المشـكلة إذن ليسـت في إيـران بـل في القـراءات، القـراءات السـابقة واللاحقـة لهـا.

إيـران لم تنتـصر بالتأكيـد، بـل الآخـرون فقـط فشـلوا في تنفيـذ وبلـورة مشـاريعهم، وخاصـة قيـادات ونخـب العـرب السـنة في سـوريا والعـراق، الذيـن يتمتعـون بعنـاد غريـب للعيـش في المـاضي السـياسي المجيـد، ويفتقـرون إلى القـدرة عـلى قـراءة المتغـيرات بعـين نقديـة وموضوعيـة. حـكام طهـران يسـتنزفون طاقـات المنطقـة وإيـران ولا مكاسـب سـتراتيجية في الأفـق البعيـد، حتـى الشـعوب الإيرانيـة سـتدفع الثمـن، والأثنيـة - القوميـة الفارسـية قـد تكـون الخـاسر الأول مسـتقبلاً.

هل ستقود تركيا العالم الإسلامي نحو التطرف؟[1]

- **مقدمة**

في ظل تراجع وأفول نجم "النموذج التركي الإسلامي المعتدل" الذي تم الترويج له منذ أكثر من عشر سنوات، وبالتوازي مع زيادة الانتقادات للحكومة التركية بمساهمتها في نمو الجماعات الإسلامية المتطرفة، وصولاً إلى اتهامات صريحة للقيادة التركية بدعم تيار الإسلام الراديكالي من قبل قيادات سياسية فاعلة في العالم والمنطقة، كان آخرها ما نسب للملك عبدالله الثاني في أن تصدير المتطرفين إلى أوروبا هي سياسة تركية منظمة، وفي بيئة سياسية مشحونة بإمكانية صراع حقيقي بين تركيا وعدد من الدول الأوروبية، فضلاً عن روسيا، حيث بلغ الصراع ذروته في الإقليم وانتشر شمالاً إلى القوقاز، في ظل كل هذه التعقيدات نجحت الحكومة التركية في تحقيق مكسب دبلوماسي كبير في إنجاز اجتماع القمة لمنظمة التعاون الإسلامي الذي عقد في إستانبول يومي (14و15 نيسان 2016)، تلخصت المكاسب في تحقيق تركيا لأجنداتها الإعلامية بتبليغ رسالتها الأيديولوجية - السياسية في المقام الأول، مما زاد من مستوى التوتر السياسي وحدة الصراع في منطقة الشرق الأوسط.

لقد استغلت تركيا هذه المناسبة الإسلامية التضامنية كغطاء لتبرير سياساتها وحربها على الشعب الكوردي، والتعتيم على عمليات الإبادة الجماعية التي اقترفتها في مدن ذات تاريخ إسلامي أصيل كجزيرة ابن عمر وديار بكر (آمد)،

1. نشرت في موقع شبكة روداو الاعلامية بتاريخ 20/4/ 2016 على الرابط:
http://www.rudaw.net/arabic/opinion/studies/20042016

فمررتها كحوادث روتينية لمكافحة (الإرهاب)، لقد بلع المجتمعون في إستانبول الطعم وكأن المدن والقرى الكوردية التي تدمر حالياً تقع ضمن بلاد الكفر، وأن المدنيين الذين يقتلون ليسوا بمسلمين! لقد روجت الحكومة التركية لحلها العسكري للمسألة الكوردية، إذ اتهم الرئيس رجب طيب أردوغان في مؤتمره الصحفي حزبي العمال الكوردستاني وحزب الإتحاد الديمقراطي بالإرهاب دون اعتراض من القادة المجتمعين.

- **ماهية منظمة التعاون الإسلامي**

تأسست منظمة التعاون الإسلامي في العام 1969 تحت اسم المؤتمر الإسلامي، وذلك بهدف الدفاع عن القدس وردّاً على حادثة حرق المسجد الأقصى فيها. تزايد عدد الأعضاء إلى (57) عضواً، حضر منهم حوالي الخمسين في الدورة (13) التي عقدت في إستانبول. بهذا العدد تكون منظمة التعاون الإسلامي ثاني أكبر منظمة دولية بعد الأمم المتحدة. يرأسها حالياً السيد إياد مدني، السعودي الجنسية. مقر المنظمة هو مؤقتاً مدينة جدة، لحين تحرير القدس والانتقال إليها، بحسب قوانين المنظمة. ترأس جلسات آخر اجتماع قمة لها في إستانبول، الرئيس التركي رجب طيب أردوغان. استثمرت كل من السعودية وتركيا هذا المؤتمر لأجنداتهما السياسية الخاصة في لقاء وتفاهم خطير ولافت للنظر، لدرجة أن أبدى العديد من المراقبين تخوفهم من خروج الاجتماع الأخير عن مبادئ وأسس منظمة التعاون الإسلامي الداعية للتعايش والتضامن بين الدول الأعضاء وسائر دول ومجتمعات العالم، إذ يتركز عملها من حيث المبدأ على مجالات إنسانية متعددة يأتي الحقل السياسي في آخرها. لقد اتصف هذا المؤتمر الخير بطابعه السياسي الأيديولوجي الهجومي، مع ترجيح الرؤيا السنية المتشددة لعالمنا المعاصر.

- **نهاية النموذج التركي المعتدل**

كشفت انتفاضات الربيع العربي عن جملة من القضايا الجوهرية كان أهمها ظهور عيوب تركيا الأيديولوجية والسياسية، إذ أخرجت طموحاتها إلى السطح، فتصاعد الخط البياني لتصادمها مع الدول الأخرى، مما مهد لعدم الرهان على هكذا حكم، وهكذا تيار سياسي إسلامي انزاح نحو التشدد والتطرف في أكثر من بلد وموقع. فقد فقدت تركيا موضوعيتها بسبب علاقتها الداعمة والصريحة لجماعة الإخوان المسلمين، "بعد ما يُسمى ثورات الربيع العربي، في إطار رغبة أنقرة في تصدير نموذج حزب العدالة والتنمية إلى دول الإقليم، لكنها لم تأخذ في الاعتبار طبيعة كل مجتمع والاختلافات الموجودة فيه، فضلاً عن تغييب الحسابات الواقعية في هذا الصدد. وكانت النتيجة هي انهيار تجربة جماعة الإخوان في كل من مصر وتونس، واستمرار تصلب تركيا في الدفاع عن الجماعة على الرغم من الفشل الذي مُنيت به، ما جعل أنقرة تكسب خصوماً إقليميين وتدخل في خلافات مع دول مثل مصر، نتيجة لخطابها الشعبوي غير الواقعي".

لقد طويت صفحة الحديث عن النموذج السياسي لحزب العدالة والتنمية وإمكانية تطبيقه في المجتمعات الإسلامية، لأن التركيز يتم حالياً على الدور غير الإيجابي لهذا النموذج نفسه، وخاصة بعد أن باتت تدعم عسكرياً ولوجستياً الكتائب الإسلامية الراديكالية في سوريا، مثل جيش الفتح، أحرار الشام وجبهة النصرة، وبموازاة هذا الدعم تصعد تركيا سياسياً من حملتها الموجهة ضد أطراف عربية وعالمية تخالفها الرأي وترفض هذه السياسات. إن استفزاز كل من مصر وإيران الدولتين الرئيستين في الشرق الأوسط، يؤسس موضوعياً لتفاهم إيراني مصري، مع إمكانية استقطاب عدد من القوى والدول العربية الأخرى للتعاطف مع إيران، حيث قد يتم التأسيس لمحور مواجه لتركيا، ويعيد تأطير

القـوى العربيـة اليسـارية والعلمانيـة في مواجهـة الجبهـة التـي شـكلتها تركيـا. إن قـراءة أوليـة لبيـان منظمـة العمـل الإسـلامي تعـزز تلـك القناعـات بعـدم اعتـدال سياسـات تركيـا الداخليـة والخارجيـة، فضـلاً لمسـاهمتها في تعقيـد وتشـابك المشـهد السـياسي لعمـوم منطقـة الـشرق الأوسـط.

- **البيان الختامي**

تضمـن نـص بيـان القمـة الإسـلامية (218) قـراراً، متجـاوزاً (13) ألـف كلمـة، في نسـخ متباينـة حسـب سياسـات النـشر لـكل جهـة، مـع مـؤشر عـلى التحفـظ في نـشر النـص الكامـل للبيـان. متضمنـاً الاتفـاق عـلى خطـة سـتراتيجية للمنظمـة في السـنوات العـشر القادمـة (2016-2026). في الوقـت الـذي دعـا البيـان إلى "نبـذ الأجنـدة الطائفيـة والمذهبيـة"، أدان التدخـلات الإيرانيـة في الشـؤون الداخليـة لدول المنطقـة، وركـز عـلى ثـلاث قضايـا رئيسـية رأى المؤتمـرون أنهـا تـضر بمصالـح العـالم الإسـلامي، وهـي: "الطائفيـة والتمييـز العنـصري والإرهـاب". القـراءة المتأنيـة للبيـان لا تؤكـد التركيـز ولا التنـاول الموضوعـي لهـذه المسـائل الثـلاث، أمـا المؤتمـر الصحفـي الـذي عقـده رئيـس الـدورة القادمـة رجـب طيـب أردوغـان، فـكان منحازاً ومجسـداً لسياسـات حكومتـه وليـس متوافقـاً مـع توجهـات الـدول الخمسـين المشـاركة في الاجتـماع.

اتصـف البيـان بملامـح بـارزة وخاصـة في إظهـار الدعم لـكل الجماعات السياسـية والمجموعـات الأثنيـة الإسـلامية في الـدول غـير الإسـلامية، وتجنـب تأييـد ومسـاندة حقـوق المسـلمين المضطهديـن داخـل الـدول ذات الغالبيـة الإسـلامية وخاصـة حقـوق الشـعب الكـوردي، فصياغـة البيـان منحـازة ومتعصبـة (إسـلامياً)، وتغطـي عـلى الجرائـم وانتهـاك حقـوق الأقليـات والإنسـان داخـل أغلـب الـدول الإسـلامية وخاصـة تركيـا. فثمـة مبالغـة في مسـاندة كشـمير وادانـة قويـة للعنـف الهنـدي، حيـث خصـص لهـا البنـود ذات الأرقـام 24-23-22-21، كـما انحـاز البيـان تمامـاً

لأذربيجان ضد أرمينيا، في ما يشبه الرد على دعوات أرمينيا في قضية إبادتهم الجماعية من قبل السلطات العثمانية. تكررت الحالة في كل القضايا المشابهة، في حين إلتزم البيان بالصمت تجاه كوردستان ومحنة شعبها، بل لم يرد اسم الكورد وكوردستان، ولا إقليم كوردستان العراق، حتى في البنود التي تقتضي ضرورة السياق ذكره وكالمتعلقة بالحرب على الإرهاب ومواجهة غزوة داعش.

لقد هبط البيان إلى مستوى سافر في دعمه لقضايا الفساد التي اتهمت بها قطر، كما في البند رقم (191): "استنكر المؤتمر الحملات الإعلامية الغربية المغرضة التي تتعرض لها دولة قطر، المشككة في استحقاقها لتنظيم بطولة كأس العالم (مونديال 2022)، وإصرار بعض وسائل الإعلام الغربية على نشر وبث معلومات مغلوطة وغير محايدة تهدف إلى التقليل من أحقيتها بتنظيم المونديال بالرغم من فوز ملف قطر من خلال منافسة شريفة وبشفافية مطلقة. وأكد المؤتمر مجدداً على أن استضافة دولة قطر- العضو في منظمة التعاون الإسلامي- لكأس العالم لكرة القدم للعام 2022، يُعد إنجازاً ومكسباً لدول المنظمة وحقاً لشعوب العالم الإسلامي. ودعا المؤتمر مؤسسات العمل الإسلامي المشترك ووسائل الإعلام للدول الأعضاء لمساندة دولة قطر في دحض أساليب الزيف الإعلامي والتحريض الذي يقوم به بعض وسائل الإعلام الغربية بهذا الصدد"، ولم يكتف البيان بذلك بل عبر عن معاداته لحقوق العمال وبالتالي حقوق الإنسان في دولة قطر: "أكد المؤتمر دعمه لدولة قطر في التصدي للحملة السياسية والإعلامية التي تتعرض لها بشأن حقوق العمال، وأشار إلى اطلاعه على الجهود التي تقوم بها دولة قطر في سبيل تعزيز أوضاع العمالة، والاهتمام المتقدم الذي توليه لهم وكفالتها لكافة حقوقهم وبما يتلاءم مع قوانينها الوطنية".

كل البنود وتفاصيل بيان "منظمة التعاون الإسلامي" تبين أنها قد صدرت عن التيار المتطرف في حزب العدالة والتنمية، ولا تخدم سوى أجندات تركيا،

كـما تسـتعدي سـتة مليـارات مـن سـاكني الكـرة الأرضيـة مـن أبنـاء الأديـان الأخـرى. وبصيغـة مـا يخلـق البيـان أجـواء الحـروب السـابقة التـي دارت مطلـع القـرن المـاضي، وكأن رايـات الحـروب التركيـة سـتلوح في الأفـق في السـنوات القادمـة ضـد العـالم المتحـضر.

لقـد كان البيـان فاقعـاً في دعمـه للأقليـات التركيـة والعنـصر الـتركي – الطـوراني في العـالم، خاصـة في البنـود ذات الأرقـام (98-97-96)، التـي ورد فيهـا: "تابـع المؤتمـر عـن كثـب وشـدد عـلى أهميـة مواصلـة عمليـة إعـادة الأتـراك المسـخيت الذيـن أجـبروا عـلى تـرك وطنهـم عـام 1944. ويرحـب باعتـماد حكومـة جورجيـا في العـام 2014 لسـتراتيجية إعـادة المسـخيت، ودعـا إلى اعتـماد خطـة عمـل شـاملة مـن أجـل تيسـير عمليـة عـودة الأتـراك المسـخيت وإدماجهـم في المجتمـع الجورجـي. أعـرب المؤتمـر عـن اهتمامـه بوضـع التتـار المسـلمين في القـرم في ضـوء التطـورات الأخـيرة في شـبه الجزيـرة، وأكـد عـلى ضرورة معالجـة مسـألة وضـع تتـار القـرم وسـلامتهم وأمنهـم بالشـكل المناسـب، وضـمان تمتعهـم عـلى نحـو فعـلي بحقوقهـم الدينيـة والثقافيـة وبحقهـم في التعليـم والتملـك. وأكـد المؤتمـر عـلى أهميـة كفالـة سـلامتهم وأمنهـم، وشـجع الأمـين العـام عـلى إجـراء الاتصـالات والدراسـات الضروريـة حـول تتـار القـرم إثـر التطـورات الأخـيرة. وطلـب المؤتمـر مـن الأمـين العـام متابعـة هـذه المسـألة ورفـع تقريـر بشـأنها إلى الـدورة الرابعـة والأربعـين لمجلـس وزراء الخارجيـة".

- **لماذا شيطنة إيران ورحمنة تركيا؟**

تبـدو القمـة في سـياقها العـام وكأنهـا عقـدت لغـرض رئيـس وهـو تثبيـت إدانـة إيـران وسياسـاتها، وكذلـك حـزب اللـه الـذي اسـتقطب الاهتـمام كأول حـزب (إسـلامي) يتخـذ بحقـه قـرارات حـادة. لقـد اعترضـت إيـران عـلى أربعـة بنـود تنتقدهـا وبنـد خامـس ينتقـد حـزب اللـه اللبنـاني، ولكـن لم يتـم تعديـل القـرار مـما

أدى إلى انسحاب الرئيس الإيراني روحاني من الجلسة الختامية، لكنه لم ينتقل إلى مرحلة القطيعة مع تركيا، فقد توجه إلى أنقرة لمتابعة التنسيق الناعم بين البلدين، وليقوم برئاسة الجانب الإيراني في أعمال القمة للمجلس الإيراني – التركي المشترك، الذي يتمحور برنامجه حول التعاون الاقتصادي و"التشديد على أهمية حماية وحدة الأرض في سوريا والعراق، والحاجة إلى تطوير التعاون في مجال مكافحة الإرهاب".

لم تستفز الدبلوماسية الإيرانية كثيراً نتيجة هذه القرارات وإنما لمحت بما قد ينتج لاحقاً كردّ فعل، إذ صرح عباس عراقجي نائب وزير الخارجية الإيراني بأن: "الأجواء السائدة في قمة منظمة التعاون الإسلامي في الظروف الراهنة لا تؤشر على التعاون بين الدول الإسلامية ووحدة العالم الإسلامي".

هنا لا بد من التساؤل، لماذا شيطنة إيران وحدها؟ فتركيا لا تقل تدخلاً في الشؤون الداخلية للدول الإسلامية، وذلك بشكل سافر في كل من ليبيا، تونس، مصر والإمارات العربية المتحدة، وكذلك العراق، فضلاً عن تواجدها الداخلي في سوريا. لكن ما يجعل التدخل التركي مختلفاً عن الإيراني، بعد تولي حزب العدالة والتنمية AKP السلطة، بات التدخل التركي دقيقاً، خفياً عبر قنوات حزبية وأيديولوجية متنوعة، فتركيا الأردوغانية تعمل عن طريق الوسطاء البعيدين، حيث أن العقل التركي "العميق" كما منظمات "الدولة العميقة" تعمل لتسخير الآخرين لأجنداتها، وتخطط لاستثمارهم سياسياً وعسكرياً، كما يحدث الآن في سوريا، وخاصة في ضواحي حلب الشمالية، في حين التدخل الإيراني واضح المعالم أيديولوجي مذهبي صريح، متناغم مع نفسه، إذ يقوم أبناء إيران غالباً بالتطوع للدفاع علناً عن قناعاتهم، يرددون شعار "لبيك يا حسين" ثم يتدخلون، في حين تركيا ضحت بمئات الآلاف من الشباب المسلم والعربي خاصة في سوريا لتحقيق أجنداتها وطموحاتها السياسية، دون أن يقتل تركي واحد خارج الحدود، في عمليات استخبارية في غاية الدقة والذكاء.

إن الاحتفاء التركي بنتائج المؤتمر وتركيزه على تقديم الدعم لكل الجماعات والمجموعات الأثنية الإسلامية في الدول غير الإسلامية، مع إهمال حقوق المسلمين المضطهدين داخل الدول ذات الغالبية الإسلامية وخاصة حقوق الشعب الكوردي، تؤكد على انحياز البيان وإغراقه بهموم السياسة التركية، فأجواء البيان منحازة ومتعصبة، تغطي على الجرائم داخل الدول الإسلامية وخاصة تركيا. وهذا ما ترجمه رئيس المؤتمر أردوغان في مؤتمره الصحفي بأن المقاومة الفلسطينة مشرفة في حين وصف نضالات حزب العمال الكوردستاني بالأعمال الإرهابية، وقارنها بإرهاب داعش، دون أن يعترض على التوصيف أحد من القيادات الإسلامية.

من جهة أخرى احتفت الصحافة الموالية للحكم التركي، فضلاً عن بعض مراكز الدراسات فيها بالحدث، كما تسرعت في تصوراتها بأن هذا البيان سيترجم إلى واقع، لتحويل منظمة التعاون الإسلامي إلى أداة فعالة بيد تركيا، وافترضت أنه قريباً سيكون لهذه المنظمة شرطة مشتركة وأجهزة استخبارات، بعد أن تأسس لها جيش قبل أربعة أشهر. المقصود من الجيش قوات التحالف الإسلامي بقيادة المملكة العربية السعودية.

- **نتائج وخاتمة**

إن تهيأت الظروف للقيادة التركية الحالية للتفرد برسم سياسات منظمة التعاون الإسلامي في السنوات القادمة، فإنها قد تحولها إلى منظمة راعية للتطرف الإسلامي، تخدم أجندات الطوارنية التركية بثقافتها التاريخية الغازية لآسيا الصغرى والمتطلعة دوماً لغزو أوروبا بالعديد من الطرق والوسائل. إن مقترح أردوغان بتشكيل منظمة تمثل المسلمين في أوروبا تفصح عن نواياه وطموحاته في المزيد من التدخل في الشأن الأوروبي الداخلي، ولتحقيق مستوى جديد من الاستثمار السياسي والتهديد لدول الاتحاد الأوروبي.

إن القيادة التركية المتوترة والمنحازة في سياساتها الراهنة، تمكنت من حيث المبدأ من نقل هذا المناخ إلى داخل منظمة التعاون الإسلامي، وبالتالي قد تتمكن لاحقاً من نقل أجنداتها السياسية والأيديولوجية المتطرفة إليها، عن طريق إقناع المزيد من الدول الإسلامية بتوجهاتها، هذه السياسة التي ستعمق التهديدات الخارجية للعالم الإسلامي، وستعرض في الوقت نفسه بنيتها لتصدع حقيقي. لقد صب أردوغان النار على زيت التطرف والصراع المذهبي، عكس ادعائه الإعلامي باللاطائفية، وبالضد من خطابه أثناء جلسات المؤتمر.

إفتراض أن تركيا الأردوغانية تمكنت من طبع سياسة المنظمة الإسلامية بطابعها في السنوات القادمة، فإن مرحلة مركبة من الصراعات الداخلية في العالم الإسلامي وكذلك مع العالم غير الإسلامي ستبدأ، فهل جاء هذا التصعيد فقط في سياق الضبط والتوازن لقوة إيران الصاعدة؟ أم هي مجرد رسالة خليجية تركية إلى أمريكا لتعمل على لجم حكومة طهران؟ هل ورد هذا الخطاب في سياق إرضاء مؤقت لدول مجلس التعاون الخليجي واطمئنان لها؟ ولكي لا تتم إساءة فهم توافق أمريكا مع سياسات إيران بعد تطبيق أوائل بنود الاتفاق النووي، وفي تساؤل ذي صلة، هل ستقبل السعودية بهذا الدور التابع والمكمل لسياسات أنقرة؟! وستؤيد سعيها في زعامة العالم الإسلامي؟ ما موقف باكستان وموقعها في رسم ستراتيجيات منظمة التعاون الإسلامي؟ جملة من التساؤلات تطرح بإلحاح، نظراً لخطورة الخطاب الأيديولجي المتطرف الذي ساد أجواء المؤتمر وتم تثبيته في البيان الختامي، فعلى الأرجح ستتم مراقبة هذا التحول والتصعيد في خطاب منظمة التعاون الإسلامي، وخاصة مدى فعالية الرئاسة التركية في تطبيقها، وقدرتها في تحويل المنظمة نحو صيغة من التحالف التركي - الخليجي، ومقدمة لتتويج الخليفة "المدني" أردوغان، وإعادة الروح لمشروعه الخاص، وتشجيعه للمضي في سياساته الراديكالية الطموحة تجاه أوروبا والعالمين العربي والإسلامي، في مسار صعب، يظل محتملاً، لكنه غير

واضح المعالم، كما هو غير مضمون النتائج في كثير من الجوانب والقضايا. ما يهمنا كثيراً بصدد هذا التحول هو طبيعة ردود الفعل الكوردستانية ومواقف نخبها السياسية وعلماء الدين، التي لا بد لها من أن تتخذ بعض الإجراءات إزاء سياسة الإهمال هذه، وإدارة الظهر لمعاناة الشعب الكوردي، إضافة إلى غض الطرف عن الجرائم التي تنفذ بحق أبنائها من قبل حكومات الدول التي تقود هذه المنظمة الإسلامية الكريمة.

الأبعاد الجيوستراتيجية للخلاف الأمريكي - الصيني حول تشييد الجزر الاصطناعية [1]

• أهمية بحر الصين في الجيوستراتيجية الأمريكية

يقع بحر الصين غرب المحيط الهادي، وهو امتداد له، يشمل المنطقة الممتدة من سنغافورة جنوباً إلى مضيق تايوان شمالاً، وهو أحد أكبر بحرين في العالم بعد البحر الأبيض المتوسط. تتجاوز مساحته ثلاثة ملايين كيلومتر مربع. يعد من أكثر بحار الدنيا حركة بالبضائع والسفن، لذلك يشكل أحد أهم ساحات التنافس التجاري بين الولايات المتحدة الأمريكية والصين، إضافة إلى احتوائه على ثروات طبيعية هائلة، خاصة النفط والغاز. يتناثر في أرجائه أكثر من مائتي جزيرة صغيرة، خالية من السكان، تدعي الصين بأنها جزء من مجال نفوذها التاريخي، على الرغم من قرب أغلب هذه الجزر من شواطئ الدول الأخرى، حيث ترى الصين أحقيتها بالسيطرة والسيادة على 80% من مساحة بحر الصين الجنوبي، وهذا ما يرفضه معظم الدول المتشاطئة. يعد بحر الصين الجنوبي ثاني أكثر الممرات البحرية ازدحاماً في العالم، إذ تمرُّ به شحنات تجارية قيمتها خمسة تريليونات دولار، أي حوالي نصف حركة الشحن في العالم. لأنه الحوض المائي لعدد من أكثر دول العالم سكاناً، وأكثرها كثافة، وبالتالي هو البوابة البحرية لأكبر سوق تجارية في العالم. ويتجاوز مجموع عدد سكان الدول المطلة عليه وتلك التي تستخدمه للنقل البحري مليارى نسمة[2].

1. نشرت في موقع شبكة روداو الاعلامية بتاريخ 10/1/2016 على الرابط:
http://www.rudaw.net/arabic/opinion/studies/10012016

2. عدد سكان الدول المطلة على بحر الصين الجنوبي، وتلك التي تستخدمه كممر للملاحة بالملايين (الصين = 1375، اندونيسيا = 260، الفلبين = 100، فيتنام= 90، كمبوديا= 15، تايلاند=68، ماليزيا = 30، تايوان = 23).

نظـراً للأهميـة الاقتصاديـة الفائقـة لبحـر الصـين، فقـد تجسـد الـصراع عليـه وتمركـز عـلى شـكل "صراع حـول الجـزر والشـعاب المرجانيـة فيهـا"، ففـي المحصلـة تمتـاز هـذه الجـزر بأهميـة كبـيرة في ترسـيم الحـدود الدوليـة في ميـاه بحـر الصـين، فضـلاً عـن أن محيطهـا غنـي بالـثروة السـمكية، إضافـة إلى النفـط والغـاز. مـا جعلهـا مطمعـاً للـدول المتشـاطئة، ومحـلاً للنـزاع بينهـم، قبـل أن تكـون موضوعـاً للخلافـات الصينيـة- الأمريكيـة[1].

• الانسحاب الأمريكي المتدرج من الشرق الأوسط

بـدأت ملامـح السياسـة الخارجيـة للولايـات المتحـدة الأمريكيـة وسـتراتيجيتها المتطلعـة نحـو الباسـفيك تتشـكل وترتسـم خطوطهـا العريضـة، حسـب مقترحـات وخطـط العديـد مـن الباحثـين والمفكريـن المعاصريـن، في مقدمتهـم جوزيـف نـاي، الـذي اسـتشرف متسـائلاً بخصـوص آفـاق ومسـتقبل الـصراع مـع الصـين: "هـل سـتتفوق القـوة الصينيـة عـلى نظيرتهـا الأمريكيـة خـلال العقـود القادمة؟"، ليشـارك بقـوة في السـجال الدائـر بهـذا الصـدد. تتبايـن الدراسـات البحثيـة الأمريكيـة حـول تصاعـد القـوة الصينيـة وإمكانيـة تجاوزهـا قوة ونفـوذ الولايـات المتحـدة الأمريكية، فثمـة مـن يـرى أن القـوة الصينيـة سـتتجاوز نظيرتهـا الأمريكيـة، وأن القـرن الحـالي سـيكون قرنـاً صينيّـاً بامتيـاز.

يعـد الاقتصـادي الأمريـكي الحائـز عـلى جائـزة نوبـل في الاقتصـاد "جوزيـف سـتيغليتز" مـن أنصـار هـذا التيـار، والـذي يؤكـد: أن القـوة الاقتصاديـة الصينيـة أضحـت تتفـوق عـلى تلـك الأمريكيـة، وأن الصـين سـتدخل العـام 2015 وهـي في أفضـل وضـع، مشـيراً إلى أن العـام 2014 كان آخـر عـام للحديـث عـن الولايـات المتحـدة الأمريكيـة كأكـبر قـوة إقتصاديـة، ويتفـق مارتـن جـاك، الـذي تظهـر رؤيتـه

1. بثينة اشتيوي، بحر الصين الجنوبي: الصراع البارد بين الصين والولايات المتحدة. سياسة بوست، على الرابط:
http://www.sasapost.com/china-us-relations/ 6/6/2015 /آخر زيارة للموقع.

عـبر كتابـه "حينـما تحكـم الصـين العـالم"، مـع هـذا الـرأي والتيـار الفكـري مفترضـاً أن الصـين لـن تكـون القـوة الاقتصاديـة العظمـى المقبلـة فحسـب؛ بـل لديهـا نظـام اقتصـادي وسـياسي مختلـف عـن الـذي تتبنـاه الـدول الغربيـة، وستسـعى لتأسـيس نظـام عالمـي مختلـف عـن النظـام الـذي أنشـأته وتتزعمـه الولايـات المتحـدة حالياً[1].

في حـين يـرى بعـض الباحثـين الأمريكيـين أن الصـين لا تـود تغيـير النظـام العالمي، ولا تـود تشـكيل منظـمات وتحالفـات ضـد أمريـكا. لكـن يبـدو أنهـا عمليـاً تسـتعد لمواجهـة الولايـات المتحـدة الأمريكيـة وسـتقاوم خططهـا للسـيطرة عـلى السـوق في جنـوب شرق آسـيا، وقـد بـدأت ملامـح هـذا الـصراع بالظهـور مـن خـلال مشـكلة بنـاء الجـزر في بحـر الصـين الجنـوبي.

مـن جهـة أخـرى، وفي سـياق مواجهـة صعـود الصـين، وكأحـد أهـم الخيـارات، يقـترح العديـد مـن الباحثـين المختصـين ومراكـز الدراسـات الأمريكيـة، بـل يلمحـون باتجـاه انسـحاب الولايـات المتحـدة الأمريكيـة بمرونـة مـن منطقـة الـشرق الأوسـط، كـما انسـحبت بريطانيـا لصالـح أمريـكا، ورفعـت وصايتهـا جزئيـاً عـن الـشرق الأوسـط بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة[2]. الاتجـاه الداعـي للانسـحاب يقـترح حلـولاً للمرحلـة التـي تـلي الانسـحاب، كحاجـة الولايـات المتحـدة الأمريكيـة إلى الموازنـة بـين مصالحهـا في منطقـة الـشرق الأوسـط وإعـادة تموضـع نفوذهـا وقوتهـا لاحتـواء تصاعـد النفـوذ الصينـي الـذي يهـدِّد مكانـة الولايـات المتحـدة دوليّـاً في المسـتقبل، وضرورة نقـل مركـز قوتهـا مـن الـشرق الأوسـط إلى شرق القـارة الآسـيوية، دون أن تتـورط في التدخـل العسـكري، كـما في حالتـي أفغانسـتان والعـراق. ولتحقيـق ذلـك، طـرح كل مـن سـتيفن والـت وجـون ميرشـايمر "سـتراتيجية التـوازن الإقليمـي"، والتي تعنـي اعتـماد الولايـات المتحـدة عـلى القـوى الإقليميـة (مثـل: إيـران، السـعودية، مـصر، تركيـا) ليـوازن بعضُهـا بعضـاً، مـع اسـتمرار الانخـراط الأمريـكي الدبلوماسي في

1. عمر عبد العاطي. عرض لكتاب "هل انتهى القرن الأمريكي؟" Is The American Century Over Joseph S. Nye، مركز الجزيرة للدراسات. على الرابط : http://studies.aljazeera.net/bookrevision/2015/04/201541994657890204.htm آخر زيارة 27/12/ 2015

2. مايلز كوبلاند، The Game Of Nations، لعبة الأمم. تعريب: مروان خير. بيروت – 1970, ص57.

المنطقة، ومساعدة القوى الأضعف إذا تطلب الأمر، ورفض التدخل العسكري المباشر، لكي لا يشكل انسحابها المحتمل فراغاً ستراتيجياً كبيراً.

وثمة بوادر واضحة تبين أن النظام الدولي سيتعرض لتحول رئيس يكمن في انتقال مركز القوة من الغرب إلى الشرق، وستتمظهر صحة هذا الافتراض في زيادة فعالية القوى الآسيوية الصاعدة، وخاصة الصين.

تأسيساً على ما سبق، بات التحول الستراتيجي الأمريكي تجاه منطقة آسيا - الباسيفيك، على خلفية تصاعد التنافس الأمريكي - الصيني مؤكَّداً، وعلى الأرجح ستقوم الولايات المتحدة الأمريكية بما أسماه ستيفن سيمون وجوناثان ستيفنسون (الانسحاب الناضج)، حيث يستمر الوجود العسكري الأمريكي في المنطقة من خلال الإبقاء على القواعد العسكرية الأمريكية بنفس قواتها، وبقاء مجموعة قتالية واحدة على الأقل، بالإضافة إلى استمرار الغارات الجوية ضد تنظيم الدولة الإسلامية[1].

• الصين لا تبلط البحر وإنما تؤسس لإدارة الصراع

إن فرضية انسحاب الولايات المتحدة الأمريكية من الشرق الأوسط، وتركيز اهتمامها على آسيا يقتضي بالضرورة مستوى من مستويات الصراع والصدام مع الصين، الدولة التي تحاول استعادة إمبراطوريتها السابقة، وتتهيأ لمواجهة الولايات المتحدة الأمريكية بأفضل الطرق، وفي مقدمتها الاقتصاد، وهذا ما يفترضه الإعلامي والباحث الاقتصادي الفرنسي، جون ميشيل كاتربوان في كتابه "صدام الامبراطوريات" الذي يؤكد فيه أن كلاً من أمريكا والصين وألمانيا سيكونون في الصف الأول في السوق العالمية، تتبعهم روسيا واليابان في الصف الثاني، وفرنسا والمملكة البريطانية في الصف الثالث، ويفترض بأن العلاقة بين

1. Steven Simon and Jonathon Stevenson, The End of Pax Americana: Why Washington's Middle East Pullback Makes sense. Foreign Affairs, Nov/Dec2015, Vol. 94 Issue 6, p2-10.

عرض: هايدي عصمت كارس، تحت عنوان "آسيا أولاً :التوازن من الخارج... لماذا تنسحب أمريكا من الشرق الأوسط؟" المركز الإقليمي للدراسات. على الرابط: http://www.rcssmideast.org/Article آخر زيارة 28/12/2015.

هـذه الـدول/ الإمبراطوريـات علاقـة صراعيـة تخضـع لمنطـق الاصطـدام المتكـرر، وأن الدولـة/ الإمبراطوريـة التـي سـتهيمن عـلى الاقتصـاد العالمـي في العقديـن الأول والثـاني مـن الألفيـة الجديـدة سـيكون لهـا الحـق والأفضليـة في توجيـه السياسـة العالميـة خـلال مـا تبقّـى مـن القـرن. وعـلى اعتبـار أن ألمانيـا غـير مهيـأة لذلـك، فـإن السـباق ينحـصر بـين الصـين والولايـات المتحـدة الأمريكيـة، وبالتـالي بـات الـصراع الأمريكي-الصينـي شـبه حتمـي. كـما ينـوه بـأن الصـين تتهيـأ منـذ عقـود للمواجهـة، خاصـة عندمـا رفضـت الـدرس الأمريـكي التقليـدي، وقامـت في العـام 1989م بقمـع الطـلاب الذيـن طالبـوا بالديمقراطيـة الغربيـة في سـاحة "تيـان آن مـين". يصـف كاتربـوان عقـد التسـعينات (1990-2000) بأنهـا فـترة الحـرب التجاريـة، ومحطـة حاسـمة في الاقتصـاد العالمـي، وفي مراحـل الـصراع الصيني-الأمريـكي أيضـاً، فاقتصـاد البلديـن الـذي يعتمـد عـلى الصـادرات إلى الخـارج، حتَّـم عـلى الطرفـين الدخـول في اتفاقـات مشـتركة، وقامـت الصـين عـبر هـذه الاتفاقيـات "ببيـع عمالتهـا الرخيصـة للـشركات الأمريكيـة الكـبرى مـن أجـل الإنتـاج داخـل الصـين والتصديـر نحـو الخـارج". وخـلال هـذا العقـد حقَّـق الميـزان التجـاري الصينـي طفـرة ماليـة لم يسـتطع تحقيقَهـا عـلى مـدى عقـود كاملـة. لكـن في العـام 2001 ومـع دخـول الصـين منظمـةَ التجـارة العالميـة، غـيَّرت مـن سـتراتيجيتها كليّـاً، فهـي لم "تعـد تـرضى بـأن تكـون مصنـع العـالم"، بـل تريـد أن تصبـح قـوة اقتصاديـة ضمـن الخريطـة العامـة للاقتصـاد الرقمـي. واليـوم تقـوم الـشركات الصينيـة بتصنيـع جميـع معـدات شركـة أبـل الأمريكيـة، وجميـع متعلقـات الصناعـات الإلكترونيـة، وتخطِّـط لتكـون في العـام 2050 القـوة الاقتصاديـة العالميـة بـلا منافـس ولا منـازع. وبفضـل سياسـتها التجاريـة القويـة، نجحـت الصـين في اكتسـاح جميـع الأسـواق العالميـة بمـا في ذلـك السـوق الأمريكيـة، مـا زاد مـن حجـم عائداتهـا الماليـة وراكـم مديونية زبائنهـا، حتى أمريـكا نفسـها أضحـت مدينـة للصـين؛ وبذلـك تراجعـت مقولـة "أمركـة العـالم" أمـام التفـوق التجـاري للصـين، التـي تجـد مـن حقهـا أن تبحـث عـن اسـتعادة

دورهـا، كـما في القـرون الماضيـة، لكـن ليـس باعتبارهـا مركـز العـالم، بـل لتكـون هـي العـالم نفسـه. إن مسـتقبل الاقتصـاد العالمـي يشـير إلى أن الاقتصـاد الصينـي أصبـح بإمكانـه تحويـل خارطـة الاقتصـاد العالمـي في أي اتجـاه يريـد. والسـبب في ذلـك هـو أن معظـم الاقتصاديـات العالميـة مرتبـط بمعـدلات النمـو الاقتصـادي الصينـي، وبالتـالي فـإن أي تحـول يطـال السـوق الماليـة الصينيـة سيُسـمع صـداه في البورصـات العالميـة. تخـشى أمريـكا، أوروبـا والعـالم العـربي اليـوم مـن أي تعـثر صينـي، ويراهنـون عـلى القيـادة الصينيـة للخـروج مـن أزمـة بورصـة شـنغهاي، وبـث روح التفـاؤل في الأسـواق العالميـة رغـم الهشاشـة الملازمـة لبنيـة الاقتصـاد العالمـي[1]. تسـعى الصـين للسـيطرة عـلى أكـبر الأسـواق العالميـة، خاصـة عـبر مـشروع إحيـاء طريـق الحريـر بـين أوروبـا وآسـيا، وعـلى الرغـم مـن العنـوان الثقـافي والـتراثي الحضـاري لهـذا المـشروع، إلا أنـه يؤسـس عمليـاً لأكـبر سـوق تجاريـة عـبر تاريـخ البشريـة، يتجـاوز عـدد سـكانها أربعـة مليـار نسـمة. إن الصـين جـادة في إعـادة إحيـاء هـذا المـشروع – الحلـم، وهـذا مـا أعـاد الرئيـس الصينـي التأكيـد عليـه في خطابـه بمناسـبة رأس السـنة الميلاديـة، مـا سـيجدد مخـاوف شركاء الصـين التجاريـين عـلى الصعيـد العالمـي، ويزيـد مـن ارتيابهـم[2].

مـن الواضـح أن الصـين تطمـح وتخطِّـط لتكـون، ليسـت القـوة الاقتصاديـة العالميـة الأولى فحسـب، وإنمـا القـوة المهيمنـة جيوسياسـياً، وبـدأت أولى خطواتهـا في هـذا الاتجـاه بالعمـل عـلى تأمـين وتوسـيع محيطهـا البحـري وجغرافيتهـا السياسـية، بطريقـة تقنيـة ناعمـة وسلسـة، ولـكي تخـرج بحـر الصـين مـن دائـرة

1. جون ميشيل كاتربوان. صدام الإمبراطوريات. مراجعة: عبدالسلام رزاق. مركز الجزيرة للدراسات، على الرابط:
http://studies.aljazeera.net/bookrevision/2015/09/2015913103022857965.htm 29/12/2015 آخر زيارة للموقع

2. كتبت نيوريوك تايم بهذا الخصوص يوم 26/12/ 2015 تحت عنوان: China Plans a New Silk Road, but Partners Are Wary، على الرابط:
http://www.nytimes.com/2015/12/26/business/china-plans-a-new-silk-road-but-trading-partners-are-wary.html?emc=edit_ae_20151225&nl=todaysheadlines-asia&nlid=73834259
آخر زيارة للموقع 1/1/2016.

النفـوذ الأمريـكي، البحـر الـذي ظـل لعقـود طويلـة بحـيرة أمريكيـة مـن حيـث حريـة التجـارة وحركـة القـوات المسـلحة. فكـما حققـت الصـين نهضتهـا الاقتصاديـة، واسـتطاعت تطويـر قواتهـا المسـلحة، فإنهـا تحـاول السـيطرة عـلى بحـر الصـين الجنـوبي مـن جهـة، واختبـار قـوة الولايـات المتحـدة الأمريكيـة وفعاليـة تحالفاتهـا في شرق آسـيا مـن جهـة أخـرى. وبالتـالي تعـد سياسـات الصـين خـلال العـام 2015 اختبـاراً لدرجـة تشـبث الولايـات المتحـدة الأمريكيـة بنفوذهـا المسـتقبلي في منطقـة شرق آسـيا عمومـاً، وبحـر الصـين الجنـوبي خصوصـاً. اللافـت هـو أن تصريحـات طـرفي الخـلاف اتسـمت بالدبلوماسـية، وتتجـه نحـو التهدئـة في الآونـة الأخـيرة، رغم الخطـوات الصينيـة العمليـة المثـيرة، فالصـين تعتقـد أنهـا حققـت مـا يكفـي مـن بنـاء الجـزر الاصطناعيـة في هـذه الجولـة، وقـد نجحـت مبدئيـاً في حسـن إدارة الـصراع مـع الولايـات المتحـدة الأمريكيـة بطريقـة غـير تقليديـة.

• الهندسة في خدمة السياسة

انتقلـت الصـين في أواخـر 2013م لتطبيـق سياسـة مختلفـة تمامـاً، بالنسـبة للنـزاع حـول السـيادة في بحـر الصـين الجنـوبي. ورغـم أن القليـل مـن المراقبـين والمهتمـين خـارج الصـين لاحظـوا هـذا التغيـير، إلا أنـه ترجـم عـلى بـر الواقـع وبحـره! فبـدلاً مـن أن تحـاور الصـين الـدول المجـاورة المطالبـة بالسـيادة عـلى المناطـق المتنـازع عليهـا، قامـت بتسريـع تعزيـز قوتهـا البحريـة، وبنـاء الجـزر الاصطناعيـة في المنطقـة الخاضعـة لسـيطرتها. لقـد اعتمـدت الصـين هـذه الإجـراءات العمليـة السريعـة، بمـا يتفـق مـع قدراتهـا الهندسـية المبهـرة بسرعتهـا ودقتهـا[1]. لم يُلاحـظ هـذا التغيـير في العـالم الخارجـي البعيـد عـن الصـين، إلا في أوائـل 2015م، بعـد أن نـشرت عـدة مراكـز أبحـاث أمريكيـة صـوراً ملتقطـة بالأقـمار الصناعيـة، تبـين التطـور غـير

1 .DEREK WATKINS From Reef to Island in Less Than a Year، على الرابط: نيويورك تايمز،
http://www.nytimes.com/interactive/2015/07/30/world/asia/what-china-has-been-building-in-the-south-china-sea.html?_r=0، 2/1/2016 آخر زيارة.

العـادي في سرعـة الصـين في بنـاء الجـزر الاصطناعيـة، والتـي تمكّـن الصـين مـن التغطيـة والتحكـم بمسـاحات الميـاه المتنـازع عليهـا[1].

تعـد عمليـات اسـتصلاح البحـر، خاصـة الشـعاب المرجانيـة، وأرخبيـل الجـزر المتناثـرة، وتأهيلهـا لعمليـات التشـييد سـواء للمنشـآت العسـكرية أم المدنيـة، سياسـة صينيـة مبتكـرة، واسـتعراضاً لقوتهـا الاقتصاديـة فضـلاً عـن قدراتهـا العلميـة – التقنيـة التـي أصبحـت متقدمـة، خاصـة في مجـال الهندسـة المدنيـة الثقيلـة، حيـث قامـت بتوظيـف هـذه القـدرات بـذكاء لخدمـة مصالحهـا السياسـية وسـيادتها الوطنيـة، كـما أنهـا برهنـت عمليـاً عـلى صحـة معادلـة تنمويـة فعالـة تتلخـص في أن "الهندسـة في خدمـة السياسـة"، وخاصـة في حقـل المشـاريع العملاقـة Mega Projects.

مـن الناحيـة المنهجيـة، كان العديـد مـن الـدول يحلم باسـتثمار البحـر عن طريق عمليـات البنـاء والتشـييد فـوق الميـاه، أو ردم البحـر، وخاصـة في الـدول السـاحلية صغـيرة المسـاحة، إلا أن ذلـك الحلـم كان مرهونـاً بالتقنيـات والآلات الهندسـية المتوافـرة والجـدوى الاقتصاديـة، حتـى نجحـت التجربـة تجاريـاً في دولـة الإمـارات العربيـة المتحـدة، وخاصـة في مشروعـي (النخيـل) و(خارطـة العـالم). تلقفـت الصـين فكـرة نجـاح مشـاريع ردم البحـر في الخليـج، وطورتهـا لغايـات وأهـداف أكـبر مـن اقتصاديـة، بـل سـتراتيجية وسـيادية. التقنيـة المعتمـدة في اسـتصلاح البحـر لأغـراض البنـاء والتشـييد، تتلخـص في البحـث عـن مناطـق الميـاه الضحلـة والنتـوءات الصخريـة القريبـة مـن سـطح البحـر، وخاصـة الشـعاب المرجانيـة[2]، لـكي يتـم تدعيـم العديـد منهـا، خاصـة المتناثـرة عـلى شـكل جـزر صغـيرة بعيـداً عـن حـدود البـر الصينـي، وهـي غـير صالحـة للسـكن في حالتهـا الطبيعيـة، وقـد لا ترتفـع

1. المصدر السابق.

2. الشعاب المرجانية (Reef): هي صخور جيرية (كربونات الكالسيوم) متوسطة الصلابة تنتج من تعايش الكائنات الحية المرجانية معها وتشكل تجاويف عديدة، تتشكل وتنمو في البحار الدافئة الضحلة، اي بأعماق أقل من خمسين متراً. كما يؤدي نموها إلى تشكل حواجز، تضاريس أو جزر داخل البحار، لتقترب من سطح البحر أو تبرز فوقها. وتستخدم للعديد من الأغراض، كالسياحة في البحر الأحمر، وصولاً إلى الاستصلاح، وتشكيل جزر متعددة الاستخدامات منها، كما في الحالة موضوع دراستنا في بحر الصين الجنوبي.

عـن منسـوب سـطح البحـر. عمليـات اسـتصلاح وتدعيـم الجـزر المرجانيـة تتـم عـن طريـق سـحب (شـفط) الرمـل مـن قـاع البحـر، ثـم ضـخ الرمـل مـع الكونكريـت في الفراغـات والتجاويـف داخـل هـذه الشـعاب المرجانيـة، لتقويـة بنيتهـا الهشـة، ثـم الـردم فوقهـا بمـواد قابلـة لتشـكيل سـطح مسـتوٍ مسـتقر تمامـاً، مثـل التربـة، الرمـل والمـواد الحصويـة، لتتراكـم وترتفـع إلى مسـتوى أعـلى مـن سـطح البحـر، وبالتـالي تكـون تلـك السـطوح مهيـأة لتحمـل ثقـل المنشـآت الثابتـة والمتحركـة. الهـدف النهـائي مـن اسـتصلاح هـذه الجـزر أن تكـون أراضي يابسـة قابلـة للسـكن والحيـاة المدنيـة. وهـي تصلـح بعـد الاختبـار لأن يشـيّد فوقهـا العديـد مـن المنشـآت والمبـاني، لدرجـة أن الصـور الفضائيـة تبـين بوضـوح أن الصـين قـد شـيدت فـوق هـذه المسـاحات المسـتصلحة، التـي تجـاوزت أربعـة كيلومـترات مربعـة حتـى نيسـان 2015، مطـاراً عسـكرياً، وربمـا منظومـة صوريـخ مضـادة للطائـرات ورادارا[1]. لاحـظ الصـور المرفقـة للجـزر وعمليـات البنـاء الجاريـة فوقهـا في آخـر البحـث.

• الأبعاد الستراتيجية والقانونية لبناء الجزر

يعـد أرخبيـل جـزر سـباراتلي، الحالـة المثـلى لمنطقـة متنـازع عليهـا، فهـو الأبعـد جغرافيـاً عـن حـدود الصـين البريـة وشـواطئها، وأقـرب إلى الـدول الأخـرى (فيتنـام، الفلبـين، برونـاي وماليزيـا) والتـي حـاول كل منها أن يسـتصلح وينشـئ جـزراً صغيرة فيهـا لتثبيـت حقوقـه، وتدعـم الولايـات المتحـدة الأمريكيـة أولويـة هـذه الـدول وأحقيتهـا في اسـتثمار الأرخبيـل. تبلـغ المسـاحة الظاهـرة لهـذه الجـزر حـوالي أربعـة كيلومـترات مربعـة، موزعـة عـلى مسـاحة شاسـعة مـن البحـر تبلـغ حـوالي 425 ألـف كيلومـتر مربـع، وليـس لهـذه الجـزر أي سـكان أصليـين. لذلـك اسـتغلت الصين هـذه الخاصيـة الجغرافيـة والخلـو السـكاني فيهـا، فبـدأت بتشـييد جـزر اصطناعيـة شـكلت امتـداداً لجـزر سـباراتلي الأصليـة، عـن طريـق إصلاحهـا وتوسـيعها ورفـع

1. أحمد عز العرب. الوفد، خطة الصين الكبرى لبحر الصين الجنوبي. موقع الوفد، على الرابط: http://alwafd.org/essay/1491 آخر زيارة 7/6 /2015.

منسوبها إلى مستوى أعلى من سطح البحر، وذلك في حزيران من العام ٢٠١٤، وستمثل خطوة كهذه ترسيخاً نهائياً للسيطرة الصينية على منطقة الأرخبيل وكل المساحة المائية بينها وبين سواحل الصين الجنوبية، ولتأكيد بناء وتوسيع الجزر قام البنتاغون الأمريكي بنشر العديد من الصور التقطت عبر الأقمار الاصطناعية، تظهر أن بكين تعمل بشكل مكثف على ردم جروف مرجانية، لتحويلها إلى موانئ ومنشآت أخرى (مرفق نماذج منها) لدرجة أن المساحة التي يمكن استخدامها قد تزايدت خلال (2014-2015) من 800 هكتار إلى 1200 هكتار، أي 12 كيلومتراً مربعاً. وتحاول الحكومة الصينية التأكيد على تنوع استخدامات هذه الجزر، وخاصة في المجال التنموي والعلمي، وفي مواجهة الإنتقادات التي وجهت للصين، أفصح المتحدث باسم وزارة خارجيتها، لو كانج: "الغرض الرئيس من أنشطة البناء التى تقوم بها الصين هو تلبية مختلف الاحتياجات المدنية وأداء الالتزامات والمسؤوليات الدولية للصين بشكل أفضل... وأضاف أن هذا يشمل البحث والإنقاذ والوقاية من الكوارث والبحث العلمي ومراقبة الأرصاد الجوية والمحافظة على البيئة وسلامة الملاحة وكذلك إدارة الصيد"[1].

هذا ونحا النزاع على تلك الجزر منحى حاداً وجاداً مع إصدار الأمم المتحدة في العام 1972 دراسة نظرية ترجّح وجود كميات كبيرة من النفط والغاز والمعادن في تلك المنطقة من بحر الصين، إلى أن تم التوقيع على تفاهم في العام 2002 يحظر على أي طرف القيام بأية إجراءات أحادية استفزازية، خاصة في عمليات التنقيب عن النفط والغاز، لتهدئة التنافس والشروع في التفاوض على إيجاد صيغة للاستثمار المشترك للمنطقة المتنازع عليها، وعلى الرغم من إعلان واشنطن وقوفها على الحياد إلا أن أقوالها تختلف عن أفعالها،

1. HIROYUKI AKITA . 'Great wall of sand' Chinese reclaimed land worries US على الرابط: http://asia.nikkei.com/Politics-Economy/International-Relations/Chinese-reclaimed-land-worries-US. واليوم السابع، على الرابط: آخر زيارة 29/12/2015: http://www.youm7.com/story/2015/6/16/%d

حيث قررت نشر منظومة صواريخ جديدة متوسطة المدى في اليابان، في حين طمأنت وزيرة الخارجية السابقة هيلاري كلينتون نظيرها الياباني، بأن "البند الخامس من الاتفاقية الأمنية الموقعة بين واشنطن وطوكيو في العام 1951 يغطي منطقة الجزر المتنازع عليها"، ما يعني استمرار التزام واشنطن بالدفاع عن اليابان إذا تعرضت تلك المناطق لأي اعتداء خارجي. كما أن خطوات الصين تتناقض كذلك مع قانون الحدود البحرية الذي أقرته الأمم المتحدة[1]. كل هذه الأحداث تشير إلى صعوبة حل المسألة، وتفصح عن عدم تخلي واشنطن عن هذه القضية، التي لا تقاس بالمساحات المستصلحة الصغيرة بقدر ما تتعلق بتبعاتها القانونية والسيادية، وبالتالي بقدرتها أن تشكل مفتاحاً لقلب موازين القوى في جنوب شرق آسيا. لأن الحفاظ على الواقع الذي فرضته الصين يعني ببساطة السيادة على أغلبية مساحة بحر الصين الجنوبي الشاسعة. هذا وتتسم تصريحات الولايات المتحدة الأمريكية بهذا الصدد بالحيادية والموضوعية، فهي تطالب بشكل روتيني كل الدول التي تتنازع على السيادة في المنطقة بوقف عمليات البناء في جزر "سباراتلي" ولكنها تتهم الصين بتنفيذ عمليات على مستوى يفوق بكثير أي دولة أخرى. وتؤكد في الوقت نفسه أن بناء جزر اصطناعية كما تفعل الصين لا يسمح لها بالمطالبة بمياه إقليمية محيطة بها، ولا بإقامة مجال جوي فوقها.

- **آفاق التصعيد العسكري الأمريكي – الصيني على خلفية البناء**

برزت انعطافة في لغة تعامل الصين مع الولايات المتحدة الأمريكية، إثر التصعيد العسكري بينهما في نيسان 2001 واشتباكها مع الطائرات الأمريكية بجزيرة هاينان الصينية. لكن بعد استكمال بناء الجزر الأخيرة تزايدت المخاطر، مع احتمال مواجهة عسكرية بين الولايات المتحدة الأمريكية والصين

1. بثينة اشتيوي، بحر الصين الجنوبي. مصدر سابق.

بسبب تضارب المصالح في السيطرة الفعلية على بحر الصين الجنوبي، واختبار القوة. فمن الواضح أن الصين تتهيأ للانتقال من موقع السياسات الدفاعية إلى سياسة أكثر استعداداً للهجوم ومواجهة المخاطر، خاصة بعد تحريك فرقاطتها "يولين" في أيار 2015 بحسب صحيفة التلغراف، التي قيمت الوضع على لسان الناطق باسم مجلس الدولة: "أن الصين تواجه سلسلة مخاطر أمنية"، مما اضطرها لدفع قواتها إلى ما وراء الحدود البحرية، لحماية ممتلكاتها البحرية. وربما المقصود هنا الجزر الاصطناعية الجديدة! وأن الولايات المتحدة الأمريكية إذا أجبرت الصين على وقف أنشطتها، فالحرب قائمة بين الطرفين لا محالة. ويفترض بعض الآراء، أن هذا التهويل والترجيح للسياسات الهجومية يقف وراءه القوميون المتشددون في الحكومة الصينية. لكن ما ورد على لسان المتحدث باسم وزارة الدفاع الصينية، يانغ يوجن، لا يبدو مختلفاً كثيراً عن المواقف الأخرى: "رفضت الحكومة الصينية انتقادات المجتمع الدولي ووصفت عمليات الإصلاح بأنها مثل بناء أي طريق أو مبنى في الأراضي الصينية، وستكون لها منفعة عامة على المجتمع الدولي بأسره. ومن منظور سيادي لا فرق بين الحالتين، لكن بعض الدول الخارجية يريد التدخل في الشؤون الداخلية لبحر الصين. من جهة أخرى دعا رئيس وزراء تايوان ماينج جو، إلى وضع المطالبات القومية والخلافات جانباً، والعمل على تنمية الموارد الطبيعية في بحر الصين[1].

تبدو الصين جادة في تطوير وتضخيم ترسانتها العسكرية، إذ أعلنت بناء أو استكمال تشييد حاملة طائراتها الثانية، في سياق تقوية أسطولها الحربي. وكانت قد وضعت حاملة طائراتها الأولى في الخدمة في العام 2012 بعد شراء واحدة غير مكتملة من أوكرانيا في العام 1998، حيث اجتهدت ورشات القوات المسلحة في الصين بإتمام بنائها (بحسب نيويورك تايمز 31/12/2015). وتماشياً

1. Julian Ryall التلغراف. http://www.telegraph.co.uk/news/worldnews/asia/china/11630185/US-China-war inevitable unless-Washington-drops-demands-over-South-China-Sea.html

مـع خطـة التطويـر العسـكري، فقـد بدأت الصـين عمليـاً برفـع ميزانيتها العسـكرية، إذ بلغـت الموازنـة العسـكرية الصينيـة للعـام 2014 حـوالي 130 مليـار دولار، والتـي مازالـت أقـل بكثـير مـن الميزانيـة الأمريكيـة البالغـة نحـو 581 مليـار دولار[1].

لذلـك ثمـة مـن يشـخص بدقـة، في الجانـب الأمريـكي، الـصراع مـع الصـين ضمـن دائـرة الخطـر عـلى الأمـن القومـي، ويدعـو إلى مزيـد مـن التسـليح والتركيـز عـلى جنـوب شرق آسـيا، فقـد نـشر معهـد البحريـة للصحافـة الأمريـكي في العـام (2014) كتابـاً للخبـير العسـكري روبـرت هاديـك، يناقـش فيـه كيف يشـكل الصعـود الصيني في منطقـة آسـيا والمحيـط الهـادي مصـدر خطـر عـلى الأمـن القومـي الأمريـكي ولحلفائهـا في تلـك المنطقـة، مبينـاً "خطـورة تحديـث القـدرات العسـكرية الصينيـة عـلى المصالـح القوميـة الأمريكيـة في منطقـة آسـيا والمحيـط الهـادي، وأن تلـك الخطـورة لا يدركهـا الكثـير مـن المواطنـين، بـل حتـى الخـبراء وصنـاع القـرار داخـل الإدارات الأمريكيـة[2]. ويـرى أنـه في غضـون عقـد مـن الزمـن، سـتحل الصـين محـل الولايـات المتحـدة كقـوة عسـكرية في هـذه المنطقـة. ويفـسر ذلـك بـأن السـتراتيجية العسـكرية الصينيـة ترتكـز في الوقـت الراهـن عـلى التوسـع الجـوي والـبري اعتـماداً عـلي القـوة الصاروخيـة، واسـتغلال الثغـرات الأمنيـة للوجـود العسـكري الأمريـكي في آسـيا والمحيـط الهـادي، ويضيـف أن الصـين تعتـزم دفـع البحريـة الأمريكيـة للتراجـع والعـودة إلى حـدود ميناء بـيرل هاربـر، أي لحدودهـا قبيـل حسـم الحـرب العالميـة الثانيـة... منتقـداً خيـارات الولايـات المتحـدة التـي يصفهـا بالإفـراط في التفـاؤل بخصـوص قدرتهـا عـلى احتـواء الصـين الصاعـدة، مؤكـداً أن محـاولات اسـتيعاب الصـين يترتـب عليهـا ضرر كبـير. مقترحـاً زيـادة الاسـتثمار في الأسـلحة الهجوميـة

1. المزيد من التفاصيل العسكرية، على الرابط: https://www.iiss.org media/Images/Publications/The20%Military20%Balance/MilBal202015%/MB201520%Defence20%budgets20%and20%expenditure.jpg

2. Robert Haddick. Fire on the water:China, America, and the Future of the Pacific,(USA: Naval Institute Press, 2014)
عرض: د. مروة نظير، في مجلة السياسة الدولية، على الرابط:
http://www.siyassa.org.eg/NewsContent/4/96/7596
آخر زيارة 3/1/2016.

بعيدة المدى، وتقليل الاعتماد على المنصات الكبيرة، مثل حاملات الطائرات والمقاتلين، والتي تعد من دعائم التجهيزات الدفاعية والعقيدة العسكرية الأمريكية [1]. ويمثل هذا أحد أبرز المؤشرات على التصعيد المحتمل بين القوتين الكبيرتين، وليس التهدئة.

• خلاصة ونتائج

تدخل الأهمية المستقبلية لمنطقة الشرق الأوسط في السياسة العالمية مرحلة من عدم الوضوح، فالصراع الأمريكي الصيني في تصاعد، وقد تنتقل من المستوى الاقتصادي الصرف إلى مستوى صراع جيوستراتيجي وإقليمي عسكري، ومن المتوقع لهذا الصراع أن يتمحور حول أحلام الصين في إحياء طريق الحرير، وكذلك السيادة على بحر الصين الجنوبي، كممر تجاري في غاية الأهمية بالنسبة للدولتين. جوهر السياسة الصينية غير التقليدية في مواجهة زحف أمريكا على جنوب شرق آسيا عموماً، وبحر الصين على وجه الخصوص، يكمن في إطلاقها خطة لاستصلاح الجزر والشعاب المرجانية في بحر الصين الجنوبي، وتحويلها إلى جزء لا يتجزأ من أرض الصين على الرغم من أن البعض منها يبعد حوالي 800 كيلومتر عن سواحلها، وذلك لتثبيت حقوق جغرافية إقليمية وتسخيرها لمصالحها في المقام الأول، ثم الانتقال إلى صياغة جيوستراتيجية مستقبلية لتوسيع دور الصين وحدود نفوذها لاحقاً. لقد عملت الصين، على تغيير واقع الأرخبيل والجزر المتناثرة في البحر، لترسيخ حق السيادة الجديد، ولاختبار قدرة أمريكا وسرعة استجابتها في مواجهة هذه المتغيرات، التي فرضتها الصين بسرعة قصوى.

• تتزامن هذه الانعطافة مع مؤشرات واضحة على انسحاب الولايات المتحدة الأمريكية من الشرق الأوسط، سواء كلياً أم جزئياً، تحت عنوان

1. المصدر السابق.

(الانسحاب المتدرج أو الناضج) وإعادة تموضع نفوذها وقوتها لاحتواء تصاعد النفوذ الصيني الذي يهدِّد مكانة الولايات المتحدة دوليّاً في المستقبل. تأتي نية الولايات المتحدة الأمريكية في نقل مركز قوتها من الشرق الأوسط إلى شرق القارة الآسيوية في سياق منهجية باتت تندرج ضمن إطار سياسة مستقبلية تعرف بـ"انتهاء صلاحية الشرق الأوسط، والاستدارة شرقاً خلال القرن الحادي والعشرين" [1]. لا شك أن هذا الانسحاب الأمريكي المفترض سينعكس على الاستقرار وتوازنات القوى في الشرق الأوسط عموماً ومحيط كوردستان خصوصاً، وبالتالي تحدد هذه السياسة الجديدة آفاق وفرص السيادة والتقدم لعموم كوردستان، بحسب الجهة التي ستخلف أمريكا في الوصاية على منطقة الشرق الأوسط. فعلى القيادات الكوردستانية أن تتابع بدقة وحساسية هذا التحول المتوقع، فثمة احتمالان رئيسان يساهمان في معرفة تلك القوى والدول المرشحة لدور فعال في ظل غياب أو تراجع الدور الأمريكي:

1 . توازن مجموعة من الدول الإقليمية بعضها البعض وتتصارع، وتظل الدول العظمى حذرة في تدخلاتها المستقبلية. قد يسبب هذا السيناريو الكثير من الصراعات، الحروب والفوضى، وربما المتغيرات الجيوسياسية والاجتماعية.

2 . تحتل روسيا عملياً مكان الولايات المتحدة الأمريكية ضمن صفقة، أو تفاهم غير معلن، إذ أن موقع روسيا المستقبلي ليس بمعزل عن الصراع الصيني – الأمريكي. هذا السيناريو يفترض عدم سماح روسيا، وبالإتفاق الضمني مع أمريكا، لأي من التيارين الرئيسين بالمنطقة أن يتغلب على الآخر، بهدف استمرار استنزاف الطاقات والموارد، مع حماية حتمية لأمن إسرائيل وحدودها والحفاظ على فعاليتها ودورها أيضاً، عبر تنسيق ثلاثي إسرائيلي-

1. مالك عوني. ما بعد التفكك: هل انتهت صلاحية الشرق الأوسط؟ السياسة الدولية. على الرابط:
http://www.siyassa.org.eg/NewsContent/3/135/7649
آخر زيارة 4/1/2016.

روسي- أمريكي مستمر، عسكرياً وسياسياً. يأتي ذلك في سياق المساعدة في تنامي الدور الإقليمي والدولي لروسيا، وربما بهدف إبعادها عن التحالف مع الصين، وعدم انخراطها في إطار أحلام الصين الكبرى.

• لم تلجأ الصين في نزاعها على الجزر إلى القانون الدولي، ولا إلى الإتفاقات الموقعة بهذا الصدد مع الجيران، بل لجأت إلى مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها المحليين بأسلوب القبول بالأمر الواقع، ديفاكتو. وعملت بسرعة على تغيير جغرافية بحر الصين، بطريقة ذكية ومبتكرة، عن طريق بناء ورفع وتوسيع أكثر من سبع جزر اصطناعية خلال سنة واحدة، لتنويع استخداماتها بين مدنية وعسكرية ولتحقيق المعادلة الذهبية في حقل التنمية والسياسات المستقبلية: الهندسة في خدمة السياسة.

الصور

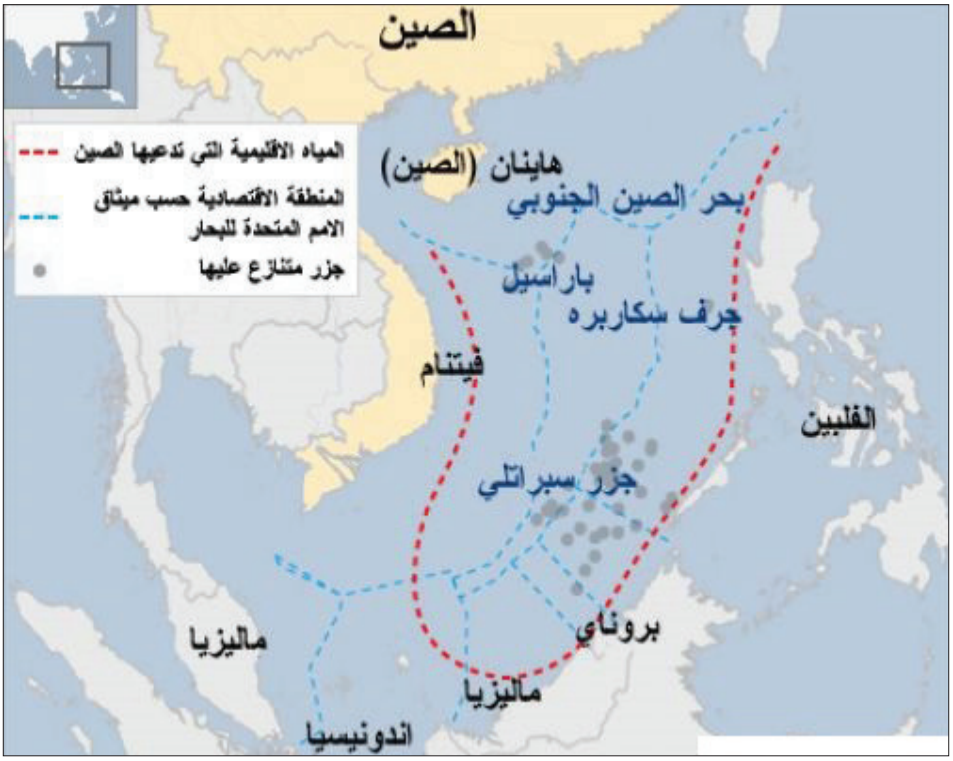

بحر الصين الجنوبي مبين عليه الجزر وحدود التوسع الصيني (الخط الأحمر)

صورة بالأقمار الاصطناعية تبين من الفضاء موقع الجزر التي تشيدها الصين

تقنية ضخ الرمل والكونكريت في الشعاب المرجانية من البواخر الخاصة بعمليات الانشاء

الآليات العائمة الثقيلة تقوم بعمليات البناء

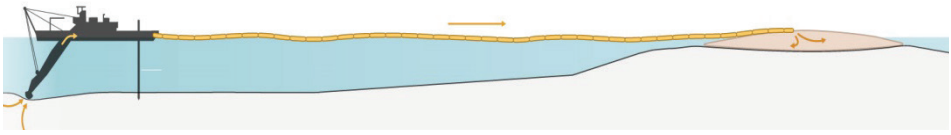

تقنيات سحب الرواسب من قاع البحر وضخها في الشعاب المرجانية

البواخر تطور وتوسع الشعاب المرجانية الحلقية إلى جزر حقيقية

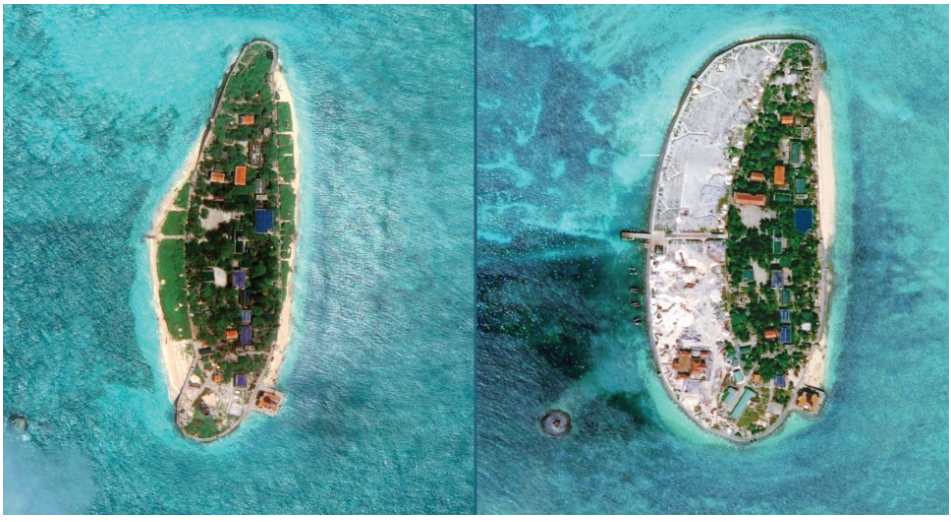

صورة فضائية تبين توسيع نفس الجزيرة خلال سنة واحدة

صور لمهابط طائرات ومنشآت عسكرية أخرى

الصور عن نيويورك تايمز – خدمة:

Sources: C.I.A., Congressional Research Service, CSIS Asia Maritime Transparency Initiative, IHS Jane's, NASA, China Maritime Safety Administration

الخطوط العامة للستراتيجية الأمريكية الجديدة [1]

ليس مصادفة أن أصبح السيد الملياردير دونالد ترامب الرئيس رقم (45) للولايات المتحدة الأمريكية، كما لا يمكن تبسيط فوزه وإحالته فقط إلى مزاج جماهيري شعبوي، فالوصول إلى الرئاسة الأمريكية يتطلب سياقات سياسية وقانونية متدرجة ومعقدة، فضلاً عن عملية تنافسية حزبية ودبلوماسية صعبة، تتطلب آليات ترشيح وترجيح ليست سهلة.

ينبغي أيضاً أن لا نفترض أن مؤامرة خفية روسية، أو قوة كبرى غامضة قد جاءت به وساعدته للوصول إلى الحكم. حيث تشكل رئاسته حالة استثنائية لم تعد تهم أمريكا فحسب، بل العالم بأسره. لذلك، يحتاج التفسير للتدقيق بين الافتراضين التقليديين السابقين. ينبغي التذكير بأن رئاسة ترامب مازالت تتصل ببعض جذورها بالمرحلة المتأخرة للحرب الباردة وبالتالي لما بعد تفكك الإتحاد السوفيتي السابق، هي بصيغة ما إحدى ثمار سقوط الأيديولوجية الاشتراكية الشمولية من جهة، ونتيجة أولية لخيبة الأمل من حملة لَبرلة العالم ورسمَلته على النمط الغربي من جهة أخرى.

ظاهرة ترامب هي إحدى أهم ثمار الديناميات الداخلية للمتغيرات السياسية والأيديولوجية على الساحتين العالمية والأمريكية عبر العقود الأربعة المنصرمة. هذه الإدارة بطريقة ما تجسد عمق المتغيرات في منحى وسياسات الحزب الجمهوري، الأكثر قدرة على التجريب والمجازفة في السياسات الأمريكية الخارجية. إن الأيام السبعين الأولى من حكم ترامب حددت بصيغة ما الخطوط العامة للستراتيجية الأمريكية، التي ستستند على أدوات وعقول عسكرية

1. نشرت في موقع شبكة رووداو الاعلامية بتاريخ 25/3/2017 على الرابط:
http://www.rudaw.net/arabic/opinion/25032017

في المقام الأول ومن ثم رأسمالية في الدرجة الثانية، بالتالي نحن لسنا أمام جنرالات يقودهم الساسة في واشنطن، بل قادة عسكريين يصنعون السياسة، فالإدارة الأمريكية الجديدة تتجه لتكون عملية تزاوج بين المؤسستين العسكرية – الأمنية والمالية - الرأسمالية. خططت في البدء لرفع الأداء العسكري لأمريكا، عبر زيادة ميزانية الدفاع على حساب ميزانية العمل الدبلوماسي.

ستكون الإدارة الجديدة حسب فهمنا الأولي لمنهجها، إدارة لمرحلة ما بعد ليبرالية الرأسمال العالمي، تخطياً لما أسست ومهدت له العولمة تقنياً، إدارة تعمل على ترسيخ مرحلة يمكن تسميتها بمرحلة الرأسمال المقوى (Reinforced Capitalism)، التي تأتي في أحد أوجهها كردّ فعل على عدم القدرة على لَبرَلة العالم ولا على حل المشاكل الرئيسة للمجتمعات المعاصرة سلمياً.

ستراتيجية الإدارة الجديدة تنتقل من شعار أمريكا أولاً الانتخابي الشعبوي إلى شعار (أمريكا ستفوز بالحرب)، فأي حرب ستفوز بها، وإلى أي مدى ستزداد الفعاليات العسكرية، خاصة في ظل رفع ميزانية الدفاع بمقدار (54) مليار دولار، أي حوالي 9%. فهل نحن عملياً أمام مرحلة تعولم العسكرة والحروب؟ بدلاً عن المرحلة السابقة التي كانت تبشر بالديمقراطية ونشرها، التي طالما نظر لها كيسنجر، فوكوياما وكونداليزا رايس منذ أمد بعيد، حتى حلم بها الرئيس الأمريكي السابق أوباما لفترة وجيزة.

جملة من العوامل تشير الى اتضاح ملامح الستراتيجية الأمريكية في سياساتها الخارجية عموماً، والشرق الأوسطية خصوصاً. إن التقدم في معركة تحرير الموصل بموازاة تحسن العلاقات بين أربيل وبغداد، إعادة إدارة العلاقات التحالفية التقليدية باتت تشكل أحد أبرز أسس هذه الستراتيجية في الساحة العراقية، كما أن الموقف من المسألة السورية يظل ذا علاقة وثيقة مع ارتسام ملامح الستراتيجية الأمريكية، فعبر الخطوات العملية لحل المعضلة السورية يمكن فهم المنهج العام للتناول الأمريكي للقضايا الساخنة في المنطقة والعالم. إضافة

إلى مـؤشرات أخـرى عديـدة وجديـدة تسـتند عـلى مسـتويات التعـاون الاقتصـادي والعسـكري مـع دول الخليـج العـربي.

1 - أمريكا المقسمة

الإدارة الأمريكيـة لم تسـتكمل بعـد شروط فعاليتهـا، بـل يكـرر ترامـب بأنـه قـد ورث "أمريـكا مقسـمة مـن عهـد أوبامـا"، فـإن كان وصـف أمريـكا بالانقسـام مبالغاً فيـه لكـن انقسـام إدارة أوبامـا كان مؤكـداً، فهـل سـيتحقق التسـاوق والانسـجام بين أطـراف الإدارة الأمريكيـة الجديـدة؟ هـل ترامـب قـادر أن يقنـع جميـع المؤسسـات ذات العلاقـة الوثيقـة بتوجهاتـه؟ أم سـيظل الاختـلاف في السياسـات والسـتراتيجيات قائمـاً بـين (البنتاغـون، سي آي إيـه، الكونغـرس). مهمـة ترامـب الأسـاس تكمـن في التقـارب بـين المؤسسـات الأمريكيـة الفاعلـة ذات التوجهـات والسياسـات المتباينـة، حتـى يتمكـن مـن إعـادة تشـذيب وترتيـب تحالفاتـه في المنطقـة، لأن هـذه التحالفـات والأولويـات مازالـت موضوعـاً خلافيـاً بـين أطـراف الإدارة الأمريكيـة نفسـها، فحتـى يـوم 24/3/2017 لم يبـد الكونغـرس تناغـماً كافيـاً مـع توجهـات ترامـب وسياسـاته، عـلى الرغـم مـن غالبيتـه الجمهوريـة (إذا أخذنـا موضـوع أوبامـا كـير نموذجـاً ومـؤشراً أوليـاً).

لذلـك، ولدقـة قـراءة المشـهد مـن الأهميـة أن نعـرف مـن سـيكون مهنـدس السياسـة الخارجيـة الأمريكيـة القـادم؟ في ظـل عـدم ظهـور شـخصية كارزميـة ذات ثقـل فكـري وسـياسي مـن الصعـب الاتفـاق عـلى فلسـفة متماسـكة وجديـدة للحكـم. أمـا كيـف سـتتم بلـورة السـتراتيجية الأمريكيـة الراهنـة والمسـتقبلية، مـن سيرسـم مسـارها فكريـاً وفلسـفياً إن جـاز التعبـير؟ مـن القـادر عـلى أن يمـرر هـذه السياسـة التـي قـد تتصـادم مـع القوانـين الأمريكيـة، كـما في حالـة (حظـر السـفر لمواطنـي بعـض الـدول)، مـن هـم الشـخصيات الأبـرز القـادرون في هـذا الحقـل عـلى إقنـاع ترامـب والتأثـير بشـكل مبـاشر عـلى قراراتـه العمليـة؟ بالتـالي، هـل

السياسة الأمريكية هي نتاج فكر ورؤى شخصية فعلاً أم تخطط لها المؤسسات؟ مجموعة كبيرة من الأسئلة المتزاحمة تحتاج للإجابات الأولية والنظرية، كي يتم التمهيد لفهم الملامح العامة للستراتيجة الأمريكية الجديدة.

ما يرجح كفة الميزان لصالح القيادات العسكرية أن أغلب المناصب المفتاحية قد تسلمها جنرالات سابقون في الجيش الأمريكي. الذين سيساهمون مباشرة في رسم السياسات، فثمة شخصيتان قد يكونان ذا علاقة وثيقة برسم الستراتيجيات، الأول هو الجنرال (مكماستر H.R. McMaster)، مستشار الأمن القومي، الذي يكون عادة شخصية مدنية خبيرة بالسياسات الخارجية بخلاف هذا الاختيار، الثاني مدير CIA مايك بومبيو. بصرف النظر عن مستقبل دور هذين الجنرالين، إلا أن قراءة السيرة الشخصية لأي صانع قرار تظل مفيدة لوضع تصور عن ما سيتخذه من قرارات، أو ما سيعتمده كمنهج للتطبيق. مكماستر ضابط عسكري برتبة فريق في الجيش الأمريكي، مقاتل ميداني، شارك بفعالية في حروب (الخليج الثانية، العراق، أفغانستان)، في الوقت نفسه بروفيسور في تاريخ العلوم العسكرية وصاحب رؤية ستراتيجية محددة، ما يوحي بأن شغله لمنصب مستشار الأمن القومي للرئيس الأمريكي ترامب، سيطبع بطريقة أو أخرى السياسات الخارجية بالمؤثرات والمنهج العسكري الذي يتبناه. أما مدير وكالة المخابرات الأمريكية مايك بومبيو= Michael Rich- ard Pompeo الذي يعد أيضاً أحد العاملين في الجيش الأمريكي، فضلاً عما يقال عن ميله إلى المواقف المتطرفة من المسلمين، فقد سبق وأعلن رفضه للاتفاق النووي مع إيران.

في سياق هذا الاستعراض جدير بالأهمية أن يتم التذكير بوزير الدفاع جيمس ماتيس (James Norman Mattis) صاحب لقب (الكلب المسعور) والمقولة - الفلسفة المثيرة : "كن مؤدباً، كن مهنياً، ولكن لتكن لديك خطة لتقتل جميع من تقابلهم"، ماتيس قارئ جيد، في مكتبته الخاصة عدة آلاف من الكتب، وبالتالي نحن لسنا أمام جنرالات نمطيين يقودهم السياسيون

كأنهـم بيـادق أو آلات حـرب، بـل قـادة عسـكريين أصحـاب رؤى قادريـن عـلى رسـم وصنـع السياسـات. وإذا أخذنـا بعـين الاعتبـار أن وزيـر الخارجيـة ريكـس تيلرسـون (Rex Tillerson) هـو رجـل نفطـي، حيـث شـغل منصـب رئيـس مجلـس الإدارة والرئيـس التنفيـذي لشركـة أكسـون موبيـل منـذ العـام 2006. المعـروف عـن هـذا الرجـل القـادم مـن تكسـاس أيضـاً نجـاح عملـه مـع الـروس، إذ منحـه الرئيـس الـروسي فلاديمـير بوتـين وسـام الصداقـة في العـام 2013.

2 - السلاح على حساب الدبلوماسية أم التنمية؟

قبـل أن تسـتكمل الإدارة الأمريكيـة كل طاقمهـا وبنـاء شـخصيتها، يمكـن التكهـن بـأن المؤسسـات الأمريكيـة مهـما كانـت راسـخة ورصينـة في عملهـا، يتضـح في المحصلـة أن مواصفـات وخـبرات أغلـب صانعـي القـرار الأمريـكي الجـدد ترجـح اهتمامهـم بقضايـا الـشرق الأوسـط السـاخنة في المقـام الأول، فثمـة مـؤشرات عـلى تفضيلهـم الحلـول العسـكرية عـلى العمـل الدبلومـاسي. لذلـك نفـترض أن أول هـذه التطبيقـات لهـذا المنهـج العسـكري كان إقـرار زيـادة عـدد القـوات الأمريكيـة للمرة الثانيـة في غضـون شـهر، لتتحصـن في شـمال سـوريا. علـماً أنـه في ظـل العديـد مـن التكهنـات، أن عمليـة تحريـر الرقـة لا تحتـاج إلى كل هـذا العـدد مـن القـوات والأسـلحة الثقيلـة خاصـة المدفعيـة، أي مـن الممكـن أن يتـم توظيفهـم في مواقـع أخـرى قريبـة لاحقـاً.

شـكلت الخطـوة العمليـة الأمريكيـة في التمركـز بمدينـة منبـج وغربهـا لمنـع دخـول القـوات التركيـة والمعارضـة السـورية الحليفـة لهـا، بهـدف الحيلولـة دون اشـتباك حلفائهـا المتحاربـين، تموضعـاً عسـكرياً جديـداً، بـل في الواقـع هـو تموضـع سـياسي سـتراتيجي وخطـة يمكـن تحليلهـا عـلى عـدة مسـتويات: إنهـا مـؤشر عـلى رغبـة أمريـكا باسـتبعاد الـدور الإيـراني وتجميـد الـدور الـتركي لجعلـه بمثابة المسـاند فقـط في العمليـة العسـكرية، كمسـتوى أولي، أمـا المسـتوى الثـاني مـن فهـم التمركـز العسـكري فيكمـن في الاعتـماد عـلى القـوات ذات الغالبيـة الكورديـة كحليـف

وشريك أساس في معركتي الرقة ودير الزور، المستوى الثالث لتفسير الحدث يكمن في أنه جاء كبداية لتعاون روسي - أمريكي لمحاربة داعش، وربما تدريباً عملياً مشتركاً لمكافحة الإرهاب. عبر استعراض المستويات الثلاثة السابقة من التحليل، يمكن أن نستنتج ملامح الستراتيجية الأمريكية الجديدة في سوريا، علماً أن السفير الأمريكي في سوريا فورد (Robert Ford) يعدها قديمة، استمرارية لخطة أوباما الأصلية في كيفية تناول المسألة السورية.

بات من المتعارف عليه أن السياسة الخارجية الأمريكية في بعض مراحلها قد طبعت إلى حد كبير بأفكار مستشار الأمن القومي، المستشار الجديد محارب وشخصية عسكرية بامتياز، فبحسب مصادر متعددة أن ترامب قد أعطاه مساحة واسعة للتحرك، لذلك من المرجح أن تزداد الفعاليات العسكرية، بل يترسخ النهج العسكري في السياسة الخارجية الأمريكية، هذا ما يستشف أيضاً من رغبة ترامب المتصاعدة في تحديث وتضخيم الجيش الأمريكي بطلب (30) مليار دولار إضافي، ليصل إجمالي الزيادة في ميزانية الدفاع الأمريكية إلى (54 مليار دولار) أي ما يعادل 9%.

تقديم وتطبيق هذا النهج العسكري قد يكون عبر الساحة السورية، حيث يشكك مكماستر في نوايا كل من روسيا وايران، وقد سبق له أن صنف في مقالات قديمة موسكو بالخصم وليس الشريك. إن الاحتكاك العملي على ساحة الجبهات السورية في الأسابيع القادمة سيكون اختباراً جديداً لنوايا الدولتين، فقد يستخلص الأمريكان منه ما سيتخذونه لاحقاً من مواقف إزاء كل من روسيا وإيران.

هذا وقد سارعت التحركات العسكرية الأمريكية من الوصول إلى عتبة الاختبار هذه، فعملية الانزال للمارينز يوم 22/3/2017 في محيط مدينة الطبقة غرب نهر الفرات قطعت الطريق أمام مشاركة القوات التركية وحلفائها من (الجيش الحر)، كما وضعت حاجزاً عسكرياً أمام تقدم القوات الحكومية السورية وحلفائها من (الميليشيات الشيعية).

3 - الاستثمار في الحرب؟

إن رؤى الجنرالات وخاصة وجهة نظر مكماستر في تطبيق ما يشبه ستراتيجة مستعارة من تجربة العراق، أي "ستراتيجية العمل من البيت أو الباب المجاور from next door" ، والتي تركز على عملية توطين القوات الأمريكية في مناطق مجاورة لأرض المعركة من جهة والاعتماد على الحلفاء المحليين من جهة أخرى، تلتقي مع أطروحات ترامب الشعبوية الراديكالية، بما فيه توسيع قاعدة الحلفاء المشاركين في الحرب، لجرّ الأغنياء منهم للمشاركة المالية في جهده العسكري القادم (اليابان، السعودية، ألمانيا، بريطانيا). سيتطلب هذا النهج على الأرجح التركيز على سياسة (أمريكا أولاً) عسكرياً، وبالتالي ستفتتح مرحلة جديدة من التوغل والانخراط العسكري الأمريكي الواسع في مواقع متعددة من العالم، ويمكن الافتراض أننا نتجه نحو مرحلة قد تكون أبرز سماتها توجه الرأسمال العالمي بقيادة أمريكا للاستثمار في الحرب، سواء طلباً للربح أم خوفاً من تزايد المخاطر الأمنية، هذا ما يستشرف من نتائج لقاءات ترامب مع ولي العهد السعودي محمد بن سلمان والمستشارة الألمانية السيدة ميركل وقبلهما رئيس الوزراء الياباني شينزو آبي.

قد تكون العمليات العسكرية في الرقة شرق سوريا أحد أبرز الدلائل على القدرة على تتبع مسار السياسة الأمريكية في هذا الحقل، أي حقل الاستثمار في الحرب على التطرف، فبعد أن تم تحييد وتقييد تركيا على جبهة منبج، وربما تحصين هذا الموقع الستراتيجي أمام تمدد تركيا مستقبلاً، ستواصل أمريكا التعاون مع القوى الأخرى على الأرض من جهة، وتقلل من دور الواحدة تلو الأخرى كهدف مشخص في نهاية المطاف، فقد سبق وأعلن الأمريكان بأن وجودهم في منبج كاف، وليس ثمة داع لتقدم قوات أخرى، هذا ما ترجم تماماً بعد أيام قليلة في عملية سد الطبقة بغرب محافظة الرقة.

ميدانياً، جاوز عدد القوات الأمريكية في شمال سوريا الألف في انتظار

الألف الآخر، أغلبهم من قوات المشاة، فضلاً عن القوات البحرية، مع وجود عدد كبير من المدرعات، بالتوازي مع إنشاء قواعد ثابتة للمدفعية. إن العدد ونوعية الأسلحة وكذلك بناء القواعد، التمركز الكثيف في قاعدة عين الأسد بغرب العراق، كلها مؤشرات على بقاء أمريكي طويل الأمد في مناطق العرب السنة وفي محيط البادية العراقية – السورية المشتركة. إن الإسراع في الإعلان عن نشر المزيد من القوات الأمريكية بطريقة تقليدية ورسمية، والكشف عن إنشاء قواعد ثابتة للمدفعية، فضلاً عن الاستعانة بالمارينز من الوحدة رقم (11) كلها دليل على سياسات عسكرية تقليدية قادمة مع احتمال البقاء لأطول فترة ممكنة. ما يعزز افتراضنا بتثقيل الجهد العسكري أيضاً، هو الاهتمام الكبير بالمناورات وفعاليات التمرين العسكري "حسم العقبان 2017"، المتقدم على مستوى الشرق الأوسط، التي انطلقت يوم الأحد 19/3/2017، في مياه دولة الكويت بمشاركة القوات المسلحة السعودية وست دول خليجية وأوروبية، منها فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية. إذ تأتي هذه التدريبات بالتزامن مع زيادة حدة التصريحات الموجهة ضد سياسة إيران، ومقدمة لخطوات عملية عسكرية أوسع في محيط مياهها الإقليمية، خاصة بعد دخول حاملة الطائرات جورج بوش إلى مياه الخليج.

إن سياسة الضغط التي تمارسها إدارة ترامب على حلفائها لتقديم الدعم المالي لمساندة جهدها العسكري مقابل تقديم الحماية الصريحة لبعض الحلفاء، أي تطبيق شعار المال مقابل التحالف الآمن لتأمين ديمومة (الحماية والقواعد)، كامتداد لشعارات الحملة الانتخابية أو في سياق تلمسها خلال النشاط الدبلوماسي ولقاءات ترامب الأخيرة، تؤكد على أنه قد تم جرّ السعودية بدرجة ما، وربما اليابان أيضاً، للقبول بشراكة مالية تستثمر في الحرب، سواء في قضايا مكافحة التطرف أو الأمن السيبراني. قد يدرج هذا التعاون الاقتصادي تحت عناوين للاستثمار والتنمية والمشاريع المشتركة، لكنها

تهدف إلى تمويل الحرب على الإرهاب في هذه المرحلة، وربما أيضاً في مجال الحرب الإلكترونية – التقنية القادمة، فطبيعة الاستثمارات الأمريكية القادمة في حقول حماية البيئة والتعليم والصحة ودعم منظمة اليونسكو لم تتضح، بل غائبة عن الخطط.

مهما كانت درجة تكهناتنا، أو دقة قراءتنا، فنحن أمام حقيقة بدء مرحلة جديدة تتصف بمتغير كبير قد طرأ على طبيعة وتوجهات الرأسمال العالمي وآفاق تحالفاته، سواء في مواجهة التطرف الإسلامي راهناً أو أي خطر آخر يبرز لاحقاً.

في المحصلة الفترة الراهنة تشكل بداية مرحلة، هي امتداد لصيرورة عولمة الرأسمال العالمي الذي لم يعد قادراً على نشر الليبرالية المنسجمة مع النماذج الغربية، وظلت الليبرالية عاجزة عن الإجابة على تساؤلات العصر في العقود الماضية، لكن الرأسمال كقوة أولى تسعى للتكيف مع مستلزمات التمركز في مناطق ساخنة من العالم، مناطق غير قابلة للتحول السلس نحو النموذج الديمقراطي الغربي. على اعتبار أن الرأسمال المعولم لن يهزم كقوة مالية وكقوة سياسية ولن يقر بعجزه، فهو مضطر في هذه المرحلة القريبة القادمة أن يعزز أحد أهم أركان وجوده، أي رفع مستوى العسكرة، التسلح وإعادة نشر ظاهرة تسليح الجيوش إلى أقصى الحدود للاستثمار ليس في "الحروب الأمنية" فحسب، بل لتظل هذه الدول الرأسمالية قائدة تتحكم بالتجارة العالمية، سائدة وتحقق المزيد من عمليات تصنيع السلاح والتراكم المالي، وتتهرب بجدارة من استحقاقات السلم ومساعدة عوالم الفقر وتنميتها.

ما يستنتج أيضاً من خطابات ترامب وتوجهات طاقم حكمه أن الانخراط العسكري لا يتوقف على سوريا، بل هو شعار أشبه ما يكون بفلسفة ونهج: "ترامب يؤكد: يجب أن نربح الحرب، فنحن أمام مرحلة تتصف بقيادة ما يشبه لجنة عسكرية في واشنطن ستعمل على عسكرة مراكز الرأسمال وليس

لبرلتها، فقد يطوى لحين ولو نسبياً مرحلة الرأسمال الليبرالي. وربما كانت أولى سمات هذه المرحلة، الحرب المتبادلة بين ترامب ومراكز القوى الليبرالية في الصحافة والإعلام الأمريكي نفسه، فإن لم يكن كذلك فماذا يعني إذن شعار (على أمريكا أن تربح الحرب) وأي حرب هذه؟!

4 - النتيجة:

قد يتوقف نجاح سياسات أمريكا في الخارج كثيراً على التوافق والانسجام داخل الإدارة الأمريكية قبل اتفاقهم مع الشركاء في الناتو، لكن انخراطها المتصاعد في الحرب السورية سيؤثر بل سيتأثر وهي ذات علاقة جدلية وثيقة بموقف أمريكا من حلفائها الأساسيين في الساحة السورية (روسيا، تركيا والكورد)، فرجحان مصالح هذه الأطراف هو الذي سيحدد المسار العام لستراتيجية أمريكا الأمنية في الشرق الأوسط. كما قد تحقق الإدارة الأمريكية الجديدة عبر تواجدها العسكري المكثف في سوريا والعراق انتصارات على الإرهاب، وقد تقوم بخطوات لاحقة تثلج صدر العديد من حلفائها من أبناء شعوب المنطقة، كأن تتمكن من إبعاد نفوذ إيران عن سوريا ولبنان، تجهيز وضبضبة حقائب رئيس النظام في دمشق، إنهاء الوجود العسكري لداعش وجفش، لكن مخرجات هذه المرحلة التي سميناها من حيث التعريف والتصور العام بمرحلة الرأسمالية المقواة (Reinforced Capitalism) غير قادرة على الإجابة على التساؤلات الكبرى والملحة لشعوب المنطقة، كما ليست لها القدرة على حل مشاكلها الجوهرية، كمقاربة جوهر التطرف ومسبباته، الغائبة تماماً عن أجندات الإدارة الأمريكية والدول الرأسمالية الأخرى.

المصادر:

1. العولمة والديمقراطية والإرهاب. إيريك هوبزباوم، ت: أكوم حمدان. مركز الجزيرة- قطر 2009.

2. السيرة الشخصية لكل من القادة الأمريكان الجدد: دونالد ترامب، مكماستر، بومبيو، ماتيس، ريلكسون.

3. Trump's Military Strategy Reflects A More Aggressive Stance March 10, 2017 http://www.npr.org

4. https://www.defense.gov/News/Article/Article/1121459/trump-seeks-30b-more-in-fiscal-2017-to-rebuild-military-fight-isis

5. www.washingtonpost.com/world/middle_east/with-a-show-of-stars-and-stripes-us-forces-in-syria-try-to-keep-warring-allies-apart/2017/03/08

6. http://alkhaleejonline.net/articles